

أحمد بهاء الدين

دار الشروق

إهـــــــداء ٢٠٠٧

الأستاذ الدكتور / قدري محمود حفني

جمهورية مصر العربية

وتحطمت الأسطورة عند الظهر!

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ جواد حسنى ت ٥١٢١٤ برقيا : شروق القاهرة
بيروت : ص . ب ٨٠٦٤ ت ٢٢٣٨٣٨ برقيا : داشروق بيروت
جدة : ص . ب ٤١٤٦ ت ٢٦٦١٠ برقيا : شوركورب جدة

أحمد بهاء الدين

وتحطمت الأسطورة عند الظهر!

قصة ٦ أكتوبر ١٩٧٣

دار الشروق

الطبعة الأولى

فبراير ١٩٧٤

الغلاف بريشة الفنان مصطفى حسين

الإهداء

إلى الذين قاتلوا .. ثم صمدوا .. ثم قاتلوا
ومازالوا صامدين !

حسن البدري



الرئيس أنور السادات القائد الأعلى والى يساره الفريق أول أحمد اسماعيل واللواء محمد عبد الغنى الجمسى فى غرفة العمليات يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣

مقدمة

« وتحطمت الطائرات عند الفجر »

لعل عشرات الآلاف من المواطنين العرب مثلى ، ظل هذا العنوان طوال سنوات يبعث القشعريرة فى أبدانهم واعصابهم ..

كان هذا عنوانا لكتاب لقيط ، اسم مؤلفه مزور ، واسم مترجمه مجهول ، ولكنه كان لا يكف عن غمر الأسواق العربية ، مكدسا سنة بعد سنة على أرصفة المدن العربية.. واحدا من تلك الكتب التى دبجتها الدعاية الصهيونية ودستها على العرب بعد هزيمة ١٩٦٧ ، وكأنها تلاحقهم بالهزيمة ليس على الأرض وحدها ، ولكن حتى داخل أعمق اعماق نفوسهم ..

« أدب » كثير وغزير ، ظهر فى أعقاب النكسة ، فى كل كتاب قليل من الحقيقة وكثير من الخيال والتلفيق والتزوير .. يريد أن يحطم فى العربى كرامته ، ومعنوياته ، وبقايا أمله .. فأرضنه أمام اسرائيل عراء ، وأسراره لعملائها مكشوفة ، وقدرته على القتال أمام عدو أسطورى غير موجودة ...

وكان هذا العنوان « تحطمت الطائرات عند الفجر » عنوان واحد من هذه الكتب ، وربما أشهرها ، حتى صار رمزا على هذه الأكداس من المؤلفات المدسوسة ... خصوصا وأنه كان يستمد عنوانه من حقيقة مرة : فقد تحطمت الطائرات فعلا ، بعد الفجر بقليل ....

وكان ذلك بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ المجيدة بحوالى شهر عندما ذكرنى صديق بكتاب « وتحطمت الطائرات عند الفجر » .

كيف لا أذكر ؟

وكان الاقتراح : كتاب سريع ، يعيد بعض الأمور الى نصابها، بعد أن ارتفعت الرؤوس التى ظلت منكسة لسنوات ..

فقد تحطمت الأسطورة عند الظهر ، عندما أصدر أنور السادات قراره التاريخى باطلاق الشرارة !!

وكان لابد أن تمر فترة تردد . فالأحداث مازالت قريبة والحرب لم تنته هذه المرة بعد ، وأسرارها بالتالى ليست مفتوحة كماحدث بعد ١٩٦٧ .

ثم بدأت المحـــاولة ، وكان لابد لهـــا من عنصرين : الايجاز والسرعة .

لمـــاذا السرعة ؟

لأن اداة اسرائيل الدعائية بدأت تعمل لمحاولة التقليل من قيمة العمل الذى قامت به ، قواتنا المسلحة ، بتصوير انتصارها كنوع من الصدفة والايحاء بأنه لو استمر القتـــال ، لأحرزت اسرائيل انتصارا جديدا .

وليس هذا كتاب مغامرات « جيمسبوندية » مزيفة مثل الكتب التى أشرت اليها .. ولكنه محاولة لوضع هذه المرحلة من الصراع العربى الاسرائيلى بحلوها ومرها فى اطارها التاريخى الصحيح .. ولهذا كان الاعتمـــاد فى أماكن كثيرة على مصـــادر اسرائيلية وغربية ثابتة .

ان حرب اكتوبر ١٩٧٣ المجيدة قد هزمت الهزيمة

وهذا ما ستحاول هذه السطور السريعة أن تشرحه .

احمد بهـــاء الدين

حرب ١٩٦٧

لايمكن الكتابة عن حرب اكتوبر ١٩٧٣ وتقدير حجم الانتصار الذى حققته ، دون الاشارة فى ايجاز الى حرب يونيو ١٩٦٧ ، وما خلفته ! . ذلك انهما فى حقيقة الأمر قتالان فى مسار حرب واحدة . وكل ما حدث فى حرب يونيو ١٩٦٧ كان له انعكاس فى حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، من اسلوب العمل السياسى والعسكرى ، حتى اعمق وجدان الجماهير (ألم نستمع كلنا الى البلاغات العربية الأولى فى اكتوبر ١٩٧٣ فى تحفظ واشفاق شديدين ، لأن افئدتنا كانت ما تزال مثقلة بالبلاغات الأولى لحرب يونيو ١٩٦٧ ؟) .

ومع ذلك ، فانه من الممكن القول أن بعض عناصر النظرة الشاملة والتقييم الأخير لحرب يونيو ١٩٦٧ ما زالت ناقصة : لأن الكثير مما قيل كان غير صحيح . ولأن الدعاية الصهيونية دفعت بالهزيمة — التى كانت اعباءها عميقة بالفعل — الى ابعاد أكثر مبالغة ، ولأن كل الأطراف لم تتكلم بعد .

ومع ذلك فلا بد من القاء نظرة أو محاولة اجراء تقييم مبدئى لحرب ١٩٦٧ ، التى ما زلنا فى النهاية نعيش آثارها القائمة أو صفحتها التى لم تنطو بعد .

والعبرة التى يجب أن نخرج بها من حرب ١٩٦٧ ، بالغة الاهمية .

فلا يجوز من جهة أن نستسلم للحرب النفسية التى شنت علينا بمئات الكتب وآلاف المقالات محاولة أن تجعل للهزيمة ابعادا اكثر من حقيقتها ، اى ان تثبت ان اسباب الهزيمة ابدية وأزلية وكامنة فى طبيعة شعبنا وقدراته . كما أنه من ناحية أخرى لا يجوز مطلقا

محاولة التقليل من العوامل التى قادت الى الهزيمة ، ولا الاعتذار عنها بأى شكل من الأشكال ..

هناك منطقة وسـط بين تعذيب النفس وبين دفن الراس فى الرمال ، هى المنطقة التى يجب أن نقف فيها ، ونستخرج منها الدروس الصحيحة ، التى يتعلمها شـبابنا وأبناؤنا . فبهـذه السلسلة المتصلة من الهزائم والانتصارات ، يتواصل تاريخ كل شعب فى العـالم . انما المهم دائما هو اسـتخلاص النتائج الصحيحة .

*

من هذا المنطلق أبادر فأقول اننى من الزاعمين بأن حرب ١٩٦٧ كانت فخا منصوبا لنا ، واستدراجا تفتحت مراحله أمامنا بأحكام ، استدرجنا اليه مغمضى العينين .

وليس معنى هذا اننا أبرياء من مسئولية الوقوع فى الشرك ...

ذلك أن السياسات الدولية ، خصوصا ما يتصل منها بالحرب والسلام ، مليئة بالشراك والأفخاخ . ولكن هذه الشراك والأفخاخ لا تنصب ولا يتم عملها بأحكام ، من فراغ . انما تستمد عناصرها من الظروف والملابسات الواقعية .

ان من ينصب لخصمه شركا فى عالم اليوم : يدرس هذا الخصم جيدا ، ويتعرف على مواطن ضعفه وقوته ، ويبحث ردود فعله السياسية والعسـكرية بكل دقة . ويختار لنصب هذا الشرك اللحظة السـياسية والعسـكرية ، المحلية والدولية ، المادية والمعنوية ، المناسبة له ، بحيث تؤتى خطته ثمارها .

وفى عصر اشتهرت فيه اصطلاحات The Game of Nations

والـــ Gamesmanship كاد هذا الأسلوب فى السياسة أن يكون علما قائما بذاته .

لم يعد واردا فى عالم اليوم أن تعتمد فى احكامك أو خططك السياسية على الالهام أو الارتجال ، أو على حســـابات سريعة محدودة . ولكن القرارات السياسية الآن محصلة خبرة العسكرى والسياسى والمهندس والعالم والاقتصادى وكل طاقات البلد العلمية والعقلية . العالم صار معقدا . وأجهزة الدول معقدة . وردود فعل أى حدث ، خصوصا اذا كان حربيا ، معقدة ، فلم يكن جائزا مواجهة هذا كله بتبسيط للأمور ا أو بالاستسلام للحماسة غير المدروسة ، أو للخلط بين الرغبات وبين الظروف المحيطة بامكانية تحقيق هذه الرغبات .

وهذا القول ينطبق اكثر ما ينطبق بالنسبة لخصم مثل دولة اسرائيل .

لمـــاذا ؟ .

لأن اسرائيل ، من هذه الزاوية التى نتحدث عنها ، لها عدة خصائص معينة :

أولا ـــ انها دولة أساس فلسفتها التوسع . على الأقل التوسع الى أن تضم حدودها ذات يوم (١) كل ما تسميه هى « أرض اسرائيل التاريخية Eretz Israil » (٢) كل أو معظم يهود العالم (٣) ولأن « أرض اسرائيل التاريخية » قد لا تســـمح مواردها الطبيعية بمستقبل مضمون لكل أو معظم يهود العالم فهى محتاجة أيضا الى اضافات معينة الى هذه الأرض ، مثل منابع الأنهار مثلا فى جنوب لبنان ....

اذن فهناك سببان أساسيان يجعلان التوسع جزءا فى سياسة الدولة الاسرائيلية .

العنصر الأول هو عنصر العقيدة الذى قامت عليه الدولة ، والذى يجب بمقتضـــاه أن تضم الدولة كل اراضى اسرائيـــل التاريخية .

العنصر الثـــانى هو العنصر العملى ، العنصر الســـياسى ـــ الاقتصادى ـــ والديمغرافى : فازاء هذا العالم العربى الواسع لا بد للدولة الصغيرة من دفاع يتمثل فى حدود أوسع وأقوى ـــ ومساحة تستوعب المهاجرين المتوقعين ، وعناصر طبيعية مهمة لاقتصاد أى دولة على المدى البعيد حتى تجعل «المشروع الاسرائيلى» قائما على أسس صحيحة ...

ويكفى أن نضرب مثلا على ذلك : موضوع المياه فقط ...

فمن اكبر مشاكل النمو التى تواجهها اسرائيل مشكلة المياه وهى تريد أن تضع يدها على ما حولها من أنهار ومصادر مياه لهذا السبب . لأنه كما قا لمناحم كنتور مدير مصلحة المياه فى اسرائيل يوم ١٩٧٣/٧/٦ « ان المحافظة على معدل النمو المقبول اقتصاديا معناه طلب متزايد على المياه » وموارد اسرائيل بعد عشر سنوات لن تكفيها فى المياه للصناعة والزراعة والشرب حتى ولو نجحت الأبحاث العلمية فى استخدام مياه المجارى بعد تنقيتها ...

وفى بحث الحـــلول يطرح عادة اســـتغلال روافد نهر الأردن والحاصبانى والوزانى وتحلية مياه البحر « واسرئيل لم تستطع قبل حرب ١٩٦٧ ، جعل الروافد تصب فى اسرائيل ، ولكن حرب الأيام الستة قضت على المشروع العربى لتحويل روافد نهرالاردن ،

واصبح نهر بانياس والجزء الغزير من الحاصبانى (ينابيع الوزانى) تحت السيطرة الاسرائيلية .. واقيمت مشاريع مياه فى مرتفعات الجولان ونفذت أعمال حفر فى جبال الضفة الغربية من أجل التغلب على النقص فى المياه » .

ولكن هذا كله لا يحل مشكلة اسرائيل . فقد نشر «اليشع كلى» مدير شعبة التخطيط البعيد المدى للمياه ، بحثا قال فيه أن هذه الحلول كلها لن تكفى مع نهاية القرن . والحل الوحيد فى رأيه ، بعد الاستفادة من الأنهار العربية المجاورة ، وهو الاستفادة من مياه نهر النيل » .. فنهر النيـــل ينتج نحو مائة ضعف أكثر من الليطانى مثلا . وهو يختلف عن الليطانى اذ ليس فيه مشـــكلة فيضانات الشتاء الخطرة . كما أن النقل منه الى وسط مناطق الاستهلاك المستقبلة فى اسرائيل (قطاع غزة ، المنقب الشمالى الغربى ، مدن النقب) بواسطة قناة مكشوفة عبر سيناء ، وأنابيب تحت قناة السويس ، قد يكون رخيصا جدا » .

ثم يستطرد قائلا « انه من الصعب ، طبعا ، التفكير فى استغلال مياه النيل فى اسرائيل دون التفكير فى الوضع الجغرافى — السياسى الحالى ، لكن ربما يستطيع من هو مستعد لاستخدام خياله تصور أوضاع سياسة مختلفة تماما عن الوضـــع الحالى ، الاستعانة بحقيقة أن النيل ســـيظل يمد مصر كل عام بنحو ٨٠ مليار متر مكعب . ومن شأن مشكلات المياه فى اسرائيل أن تحل على المدى البعيد باستخدام ١٪ فقط من انتاج النيل دون المساس بنظام استهلاك مياه النيل فى البلد الذى يتدفق فيه » (١) .

---

(١) نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٦ سبتمبر ١٩٧٣

فالتوسع ، وهذا موضوع يستحق كتابا بمفرده ، جزء مركب فى نظرة اسرائيل الحالية الى مستقبلها .

ولا أريد أن استطرد هنا لاثبات عقيدة اسرائيل التوسعية ، حتى لا نبعد كثيرا عن أصل الموضوع .

يكفى أن نذكر أن اسرائيل تعمدت أن لا تنص فى دستورها حين قامت على حدود دولتها .

ويكفى أن نذكر حديث بن جوريون مع ديجـول ، الذى رواه بن جوريون نفسه فى خطابه المفتوح الى ديجول بعد حرب يونيو ، حين هاجم ديجول موقف اسرائيل .

لقد روى بن جوريون أنه فى آخر لقاء له مع ديجول فى فرنسا ، وهما يتمشيان فى حدائق قصر الاليزيه مع مرافقيهما — قبل حرب يونيو — أن ديجول جذبه من ذراعه بعيدا عن اسماع المرافقين وسأله « ولكن ما هى الحدود التى تريدها اسرائيل فعلا » ورد بن جوريون بدهائه « لو سألتنى قبل ربع قرن لقلت لك نهر الأردن شرقا ونهر الليطانى شمالا . ولكننا الآن نريد السلام » .

فهو بلباقة قد أبلغ ديجول ماذا يريدون . دون أن يقول له غير المقبول سياسيا ، من أنه ينوى ضم هذه الأراضى بالقوة .

وقبل ذلك ، نذكر كيف أن الحركة الصـهيونية ناضلت أثناء مؤتمر فرساى ، وخلال تقسيم الشرق الأوسـط بين فرنسـا وانجلترا لكى تضم « فلسطين » شرق الأردن وجنوب لبنان ، حتى يصبح كل هذا ساحة لتطبيق وعد بلفور القاضى باعطائهم « وطنا قوميا فى فلسطين » .

ثانيا ـ أنها دولة تعرف أنها لا يمكن أن تحقق أى توسع الا على حساب العرب ، وبالتالى لا يمكن أن يتم أى توسع الا بالحرب

ثالثا ـ انها دولة صغيرة الحجم محدودة السكان والموارد ، مهما تدججت بالسلاح وبالتالى فأملها فى تحقيق هذا التوسع الذى لا بد أن يكون بالقوة ، لا يمكن أن يتم الا فى لحظات معينة ، تكون كفة القوة بينها وبين الدول العربية مائلة لحسابها ، وتكون الظروف الدولية مواتية ، وتكون فى الدرجة الأولى معتمدة على حليف أو على حلفاء خارجين أقوياء .

ومعنى ذلك : ان اسرائيل لا يمكن ان تذهب الى قوة خارجية كبرى ، وتقترح عليها مساعدتها لكى تشن حربا على العرب وتقتطع من أرضهم جزءا تضمه الى دولتها . ولكن عليها :

١ ـ أن تعمل عملا سياسيا واعلاميا دعوبا ، خلال عشرات المواقف المتوالية ، لكى يكون لها مثل هذا الحليف ، وتقيم معه علاقة حميمة خاصة .

٢ ـ انه لا بد لها من تمهيد الأرض لكى تقنع هذا الحليف المنتظر بأن هناك تطابقا أو توافقا بين مصالح اسرائيل ضد العرب وبين مصالح هذا الحليف .

٣ ـ أن تبقى بعد ذلك فى انتظار لحظة تدهور العلاقة بين العرب وبين هذا الحليف ، وفى ظل كل ما مهدت به الأرض مسبقا ، تقوم اسرائيل بهجومها الخاطف ، من مدخل انتظار الفرصة ، لفرض توسع جديد تحقق به خطوة فى استراتيجيتها البعيدة المدى وأهدافها المذهبية والحياتية معا ...

●

كان هذا هو الشأن فى حرب ١٩٥٦ ، التى صارت كل أسرارها مكشوفة الآن ...

لقد اتخذت اسرائيل قرارها بضرورة توجيه « ضربة وقائية » ضد مصر ، تحت تأثير عاملين : أولهما جلاء القوات البريطانية عن منطقة قناة السويس ، وثانيهما عقد عبد الناصر صفقة الأسلحة السوفيتية الشهيرة مع الاتحاد السوفيتى . ذلك أن هذين العنصرين كانا يقللان من حرية اسرائيل فى توجيه الضربات التأديبية التى كانت تقوم بها ضد الدول العربية المحيطة بها — مصر والاردن وسوريا . ولكنها بقيت تنتظر اللحظة المناسبة بالمعنى الذى ذكرناه منذ قليل .

كانت تنتظر تجمع العاصفة فى عواصم أخرى قوية ضد مصر ، لكى توجه ضربتها ، ولكى تخرج منها بغنيمة جديدة .

وكان ذلك فى بداية المد بالنسبة لتيارات كثيرة تزعج العالم الغربى وتلعب فيها مصر دورا قياديا : حركة التحرر فى الوطن العربى ومقاومة الأحلاف العسكرية وأشهرها حلف بغداد . وحركة التحرر فى العالم الثالث . وحركة دول عدم الانحياز .

على أن انجلترا وفرنسا كانتا غاضبتين بشكل خاص . انجلترا بسبب حرب عبد الناصر ضد مشروع حلف بغداد . وفرنسا بسبب مساعدة مصر لثورة الجزائر . وكانت أمريكا غاضبة لغضب أهم حليفتين لها ، وصادف ذلك أوج الحرب الباردة فى عهد وزير خارجيتها جون فوستر دلاس . ثم جاءت أزمة السد العالى وتأميم قناة السويس : لقد أراد دلاس عقاب مصر ، وشاركه فى ذلك انطونى ايدن ، فأعلن جون فوستر دلاس سحب عرض أمريكا

تمويل السد العالى واعقبه ايدن بسحب عرض انجلترا وأعلن على التليفزيون ، فى تبرير ذلك ، افلاس مصر ، معتقدا أنه يوجه بذلك ضربة قاصمة للثورة فى مصر . ورد عبد الناصر على ذلك بتأميم قناة السويس .

ساعتها قررت انجلترا وفرنسا القيام بعمل عسكرى ضد مصر : السبب المباشر هو استرداد قناة السويس ، والسبب الأعمق هو ضرب حركة المد الثورية التى كانت تقوض الوجود البريطانى فى الشرق الأوسط والوجود الفرنسى فى شمال أفريقيا .

ومن مراجعة كل ما كتب عن أسرار حرب السويس التى كشفت بعد ذلك نفهم لقاء انجلترا وفرنسا واسرائيل فى الحرب .

.. كانت اسرائيل ، حقا ، قد لجأت قبل ذلك الى فرنسا لشراء الاسلحة التى توازن بها السلاح السوفيتى الذى بدأ يرد الى مصر . وأخذت الاتفاقات العسكرية السرية تنفذ بين فرنسا واسرائيل من قبل تأميم القناة ، بدافع من التقاء رغبة اسرائيل فى الاستعداد لتوجيه ضربة اذا سنحت الفرصة مع رغبة فرنسا فى اضعاف العاصمة التى تمد الثورة الجزائرية بالمال والسلاح والدعم السياسى .

وكانت فرنسا قد اقتنعت ان اسرائيل ، اذا سنحت الفرصة ، مستعدة فعلا لتوجيه ضربة عسكرية الى مصر ....

ولكن الذى حدث بعد تأميم القناة ، هو أن القيادات الفرنسية والانجليزية وضعت فى البداية خطة للهجوم على مصر عن طريق غزو الاسكندرية ثم شق الطريق الى القاهرة . ولكن القيادة السياسية « الانجليزية والفرنسية » وجدت أن هذا الطريق بعيد عن قناة السويس ، التى هى حجة التدخل ، وبالتالى قد لا تبدو

الحملة مقتنعة فى أسبابها ، فتقرر وضع خطة أخرى للهجوم على بور سعيد لاحتلال القناة مباشرة ، لأن هذا سيكون أسهل فى تبريره ازاء العالم .

وفى هذه اللحظة قفزت اسرائيل الى ذهن القيادات العسكرية الفرنسية والمجموعة السياسية التى كانت متحمسة لاخضاع ثورة الجزائر . وابلغت فرنسا حليفتها انجلترا لاول مرة عن اقتراح اعطاء اسرائيل دور ما فى العمليات العسكرية ، أولا لدوافعها السياسية الخاصة بها ، وثانيا لموقعها الجغرافى الذى يسهل الهجوم على منطقة القناة الى حد كبير .

وتقول المراجع أن انجلترا ترددت طويلا فى قبول ادخال اسرائيل فى الخطة . فهى بدرايتها الاكبر بالعالم العربى تعرف أن اشتراك اسرائيل كاف لكى يجعل كل العرب يقفون الى جانب مصر ، الامر الذى قد يهزم الحملة كلها سياسيا . وانقضى وقت ثمين فى هذا التردد وهناك خطتان منفصلتان : خطة فرنسية اسرائيلية ، وخطة فرنسية انجليزية ، مع محاولات فرنسية متصلة لجمع الخطتين فى خطة واحدة . واخيرا قبل الانجليز ، بشرط السرية التامة ، وأن لا يجتمع الانجليز والاسرائيليون معا ، خشية انكشاف السر ذات يوم .

ولكن الذئب العجوز دافيد بن جوريون صمم على أن لا يشترك الا بعد لقاء مباشر مع الطرف الانجليزى . وبعد أخذ ضمانات محددة من انجلترا وفرنسا أهمها : ضرب المطارات المصرية ، وحماية الجو الاسرائيلى حماية كاملة . ورضخت انجلترا وتم توقيع الاتفاقية « سيفر » السرية بين بن جوريون وجى موليه عن فرنسا والسير جلادوين جيب مندوب انجلترا .

ولعلنى استطردت فى قصة باتت معظمها معروفا . ولكن الهدف كان القاء الضوء على أســلوب اسرائيل الذى حاولت ايجازه فى « أولا وثانيا وثالثا » من أن اسرائيل لا تهجم الا من خلال دراسة لظروف كثيرة معقدة ، وتحت مظلة ضمانات دولية محددة ، وطبقا لخطة ليست هى الطرف الوحيد فيها .

وقد لخص ذلك موشى ديان ، كما روى فى كتابه عن حــرب سيناء ، حين شرح خطة الهجوم لضباطه واركان حربه المندهشين (وكانوا لا يعرفون أن الهجوم ستكمله انجلترا وفرنسا) وأراد أن يطمئن وساوسهم فقال لهم فى غموض : « لن نكون وحدنا .. سنكون كراكب الدراجة الذى يمسك بيده سيارة لورى مسرعة ، فتجره معها بسرعتها الاكبر » .

ويكمل هذه الفكرة الاساسية فى فهم الســلوك الاسرائيلى ، الأهداف التى كانت تكشف عنها بعد كل قتال : والتى تتعدى تماما كل ما يقولونه فى رغبة فى السلام أو رغبة فى الحصول على صلح مع العرب أو رغبة فى مجرد حدود آمنة ....

ففى صــباح اليوم الذى انتهت فيــه حرب ١٩٥٦ ، وقف بن جوريون رئيس وزارة اسرائيل فى الكنيست يعلن عن نواياه فى استثمار الانتصار أو عن نصيبه من الصفقة لاول مرة . رفض فى هذه الخطبة أن يعتبر أن ما أخذته اسرائيل كان مملوكا لمصر . وبدأ يعامل سيناء على أنها أرض غير مصرية . قال : « ان قواتنا لم تطأ أرض مصر ولم يكن هذا فى حسابها . لقد كانت عملياتنا الحربية قاصرة على شــبه جزيرة سيناء وحدها » وفى نهاية هذا الخطاب قال : « ان اتفاقية الهدنة بين اسرائيل ومصر قد ماتت ودفنت ولن تبعث بعد ذلك ابدا . وبموت اتفاقية الهدنة تلاشت وماتت خطوط الهــدنة » .

وأعاد بن جوريون رسم الخريطة ! قال ان سيناء « صحراء غريبة عن مصر » وأشار الى شرم الشيخ باسم « شلومو » وذكر تيران باسم « يوتفات Yotvat » وتحدث فى بعض أحاديثه عن اعادة مملكة سليمان !

وأشـــار بن جوريون الى ان « اسرائيل لم تنتصر بالصــدفة والفضل للاجراءات الخاصة التى اتخذت لحماية سماء اسرائيل من الطيران المصرى » وأهم من ذلك قوله « ان أزمة قناة السويس التى انفجرت منذ شهور لم تكن هى التى جرتنا الى هذه العاصفة . ولكنه منع المرور من والى ايلات » وتحدث عن « تحرير ذلك الجزء من وطننا الذى يحتله الغزاة » .

وطوال مباحثاته بعد ذلك أو مواجهاته مع حكومة ايزنهاور التى قامت بضغط عنيف للانسحاب ، حاول ، مراوغا ، أن يستخدم كلمة « مصر » بتعريفه المحدود السابق لها ، أى بدون سيناء . وبعد سنوات طويلة قال لصديقه ومؤرخه « ميشيل بازوهار » : « ان قراره بالانسحاب من سيناء كان أصعب القرارات التى اتخذها فى حياته وأكثرها ايلاما » أما المعارضة فكانت تقول أنه ليس من حق أحد الانسحاب من جزء من الوطن .

●

فى السنوات التى قادت الى تاريخ ٥ يونيو ١٩٦٧ كان يبدو وكأن السيناريو الذى سبق حرب ١٩٥٦ يعيد نفسه من جديد ...

كانت علاقة مصر وجمال عبد الناصر بالغرب تتدهور بانتظام ، بسبب الأحداث التى كانت تجتاح المنطقة العربية ، بل والعالم كله ..

كانت أمريكا غاضـــبة على مصر بســـبب موقفها فى الكونغو

وسياستها فى افريقيا بوجه عام ، فى فترة كانت القارة السوداء تتفتح فيها على الاستقلال وبالتالى على الصراع الدولى بين الشرق والغرب .

ثم زاد غضب أمريكا بسبب ذهاب القوات المصرية الى اليمن ، اذ وجدت فى ذلك تدخلا من مصر فى شئون غيرها ، وتشجيعا لعناصر خطرة قريبة من منابع البترول الثمينة .

وبدأت أمريكا تمارس ضغطها على مصر منذ أواخر عهد كنيدى ، أولا بطلب ايقاف صناعة الصواريخ فى مصر ثم بعقد أمريكا لأول صفقة مباشرة مع اسرائيل لتزويدها بصواريخ هوك . ولما اغتيل كنيدى زاد ارتياب مصر فى نوايا أمريكا بتولى ليندون جونسون رئاسة الجمهورية . فهو الرجل الذى قاد المعارضة سنة ١٩٥٦ ضد ايزنهاور فى قراره بالضغط على اسرائيل للانسحاب ، فضلا عن عنجهيته وجهله بالسياسة الدولية وتفضيله للجوء الى سياسة القوة . وبالفعل لم يلبث أن أوقف اتفاقيات القمح مع مصر فى وقت كانت مصر تمر فيه بأصعب مراحل التنمية الاقتصادية التى كانت تستهلك كل ما لديها من عملة صعبة .

وأحرق طلبة الكونغو مكتبة السفارة الأمريكية فى مظاهرة صاخبة فى مصر وأسقطت المدفعية المصرية المضادة للطائرات طائرة تابعة لشركة بترول أمريكية خرجت عن ممرات الطيران المقررة . وتصاعد التسليح الأمريكى المباشر بوجه عام لاسرائيل وصارت أمريكا هى ذات العلاقة الخاصة باسرائيل ...

وبالنسبة لانجلترا ، كان الخليج العربى يطرح مشكلة مستقبله السياسى . وانفجرت فى اليمن الجنوبية الثورة المسلحة . وبعد أن كادت مشكلة اليمن تحل ، جاء هارولد ويلسون على رأس حكومة

العمال بسياسة قمع فى اليمن الجنوبية ومحاولة الوصول الى حل بريطانى ، وبعد أن أعلن أن الوزير البريطانى جورج تومسون قادم الى مصر ليتفاهم مع عبد الناصر ، أعلنت انجلترا بعد وصوله الى مصر وقبل موعده مع عبد الناصر ، تجميد الدستور فى عدن وطرد الوزارة واستلام السلطة مباشرة ، فشعر عبد الناصر ان هذه كانت خطوة محسوبة فى توقيتها ، فرفض مقابلة تومسون . وازاء فشل كل محاولات حل مشكلة اليمن اعلن أن القوات المصرية لن تترك اليمن قبل أن يترك الانجليز اليمن الجنوبية . ثم قررت دول افريقيا قطع علاقاتها الدبلوماسية مع انجلترا لموقفها من مشكلة روديسيا وقطعت مصر علاقاتها الدبلوماسية مع انجلترا بوصفها دولة افريقية ...

وبالنسبة لألمانيا الغربية ، كان قد انكشفت صفقة سرية قدمت المانيا بمقتضاها ٣٠٠ دبابة من طراز « ليوبارد » الى اسرائيل . وكان من رأى عبد الناصر الرد على ذلك بالاعتراف بألمانيا الشرقية ولكن بعض الدول العربية فضلت على ذلك قطع العلاقات مع المانيا الغربية ، فقطعتها مصر وبعض الدول العربية .

وفى نفس الوقت كانت العلاقات العربية الداخلية قد بلغت مرحلة من أسوأ مراحلها فالحملات عنيفة بين مصر والانفصاليين فى سوريا . وبين مصر وسوريا والأردن . وبين العراق وسوريا . وبين الكثير من هذه الدول والمملكة العربية السعودية . وذهبت قوات مصرية مرة الى بغداد لحماية حكم عبد السلام عارف ومرة أخرى الى الجزائر خلال أزمة الحدود بين الجزائر والمغرب .

فلما أعلنت اسرائيل أنها ستبدأ فى تحويل ٧٥٪ من مياه نهر الأردن الى اسرائيل ، دعا عبد الناصر الى مؤتمر القمة الأول الذى تلته مؤتمرات . ولكن الصراعات فى تلك المؤتمرات كانت

ابرز من الاتفاق . وكانت هـذه الصراعات تؤدى الى الاحراج المتبادل البعيد عن المصلحة العالمة ، وتبادل التهمة الشائعة وهى مهادنة اسرائيل . قال رئيس دولة عربى أن القضاء على اسرائيل لن يستغرق أكثر من ثلاث ساعات . وبدأت نغمة مهاجمة مصر لأنها تترك قوات الطوارىء الدولية فى شرم الشيخ وعلى الحدود بين مصر واسرائيل .

كانت الفكرة الأساسية لدى عبد الناصر من مؤتمرات القمة « أولا » البدء فى خلق كيان فلسطينى تبلور فى منظمة التحرير الفلسطينية « ثانيا » اقامة قيادة مشـتركة تمهيـدا لخلق قوة عسكرية مشتركة تبدأ بحماية مشروعات عربية مضادة لمشروع اسرائيل لتحويل نهر الأردن .

ولكن الهدف الأول لم يتحقق بجدية لأنه ولد فى وجه معارضة من الأردن ولأن كيانا فلسطينيا لا يمكن أن يتم « تعيينه » بقرار ، وكان عليه أن ينتظر حتى ٦٧ ليقيم نفسه بنفسه ، بقتاله ودمه .

أما الهدف الثانى ، وهو القيادة المشتركة ، فقد ظلت حبرا على ورق . اذ كان مستحيلا أن تقوم وحدة عسكرية بين دول متناحرة الى الدرجة التى كانت الأمور قد وصلت اليها .

أكثر من ذلك أن مؤتمرات القمة كشفت عن أن الدول العربية ليس لديها فى الحقيقة أى استعداد عسكرى لدخول معركة حربية مع اسرائيل ، رغم أن التصريحات العلنية كانت كلها تهدد بذلك وأحيانا تحرض عليه .

ولم يكن مسـتغربا ، فى اطار هـذه الظروف ، فيما يتعلق بالفلسطينين أن تولد منظمات سرية للمقاومة ، تبدأ فى ممارسة

نشاطات متفرقة ، ضد اسرائيل . وكان لا بد أن ترد اسرائيل على ذلك بعنف .

وفى نفس تلك السنوات تم عزل سوكارنو ، واسقاط نكروما ، ويروى انتونى ناتنج الوزير البريطانى السابق أنه حين قابل عبد الناصر قبل حرب ١٩٦٧ وجد عبد الناصر غير راغب فى الحرب قط ، ولكنه شاعر فى نفس الوقت أن تحرك اسرائيل فى هذه الظروف كان بداية مؤامرة تفاصيلها خافية عليه ، ولكنها أشبه بمؤامرة حرب السويس سنة ١٩٥٦ .. ولكنه لم يتصرف لتجنب الشرك المنصوب .

ذلك أن اسرائيل كانت قد بدأت تتحرك ، تطبيقا لنفس الفكرة القديمة : عقيدتها التوسعية ، التى تنتظر فقط المناسبة المواتية لها لكى تضرب ضربتها ، فى ظل الشروط التى سبق ذكرها من قبل.

ونحن نستطيع اليوم بعد تفجر أزمة الطاقة فى العالم على هذا النحو ، أن نشير الى أن البترول كان عاملا أساسياً بغير شك وراء حركة الاستدراج الى حرب ١٩٦٧ ...

واستأذن القارىء فى أن أعود الى حديث كتبته قبل سنوات ، ولكن بعد حرب ١٩٦٧ ، مشيرا الى هذه القضية .

فالاهتمام بمصادر البترول وان كان قد تغير أخيرا بصورة أساسية ، الا أنه قديم قبل حرب ٦٧ . وبالتحديد ، منذ ظهرت حاجة العالم الى الطاقة ، وسياسة انجلترا فى الانسحاب من شرقى السويس ، وبحث أمريكا عن وسائل أخرى لابقاء سيطرتها هناك ..

« فبالاضافة الى أن البترول ما زال هو المخزون الرئيسى للطاقة فى العالم ، خصوصا لليابان شرقا وغرب أوروبا غربا ..

فقد ظهر عنصران جديدان اولهما انه ثبت أن أمريكا تتزايد حاجتها الى استيراد البترول والغاز من العالم العربى لاستهلاكها المحلى . فلم تعد مصلحتها فيه مصلحة مالية وتسويقية فقط ، ولكنها مع سنة ١٩٨٠ ستصبح معتمدة على البترول والغاز العربيين لاستهلاكها المحلى وللاحتفاظ باحتياطى استراتيجى كاف داخل اراضيها أطول وقت ممكن .

كما ظهر أن الاتحاد السوفيتى قد يصبح بدوره دولة مستوردة وبالتالى منافسا فى مساحة البترول ، بعد أن كان دولة مصدرة .

« أن هذا الوضع البترولى قد نقل مركز التوتر من السويس الى شرقى السويس ، ومن البحر الأبيض الى الخليج .

ولكن مصر تظل مع ذلك « مطلوبة » و « مستهدفة » !

من وجهة نظر الغرب — أوروبا قديما وأمريكا حديثا — كانت مصر غنيمة مطلوبة لذاتها كانت بالنسبة للغرب أكبر مزرعة قطن ، واكبر سوق بشرية للتجارة والاستثمار ، وكانت بسبب وجود قناة السويس فى أراضيها صاحبة أهم مركز استراتيجى . هكذا دار الصراع فى أواخر القرن الماضى واوائل هذا القرن على احتلالها وامتلاكها . حتى قيام اسرائيل ذاتها بررته مذكرات الحلفاء فى معاهدة فرساى سنة ١٩١٩ باقامة نقطة حراسة قرب قناة السويس .

ولكن ظهور البترول ، وسبق اغلاق قناة السويس ، جعل الغنيمة الأساسية هناك شرقى السويس ، وظهرت قيمة اسرائيل كعازل بين مصر وسائر العالم العربى ، يقلل من تأثيرها القوى فى المنطقة وبقى أن مصر ظلت مطلوبة لا لذاتها بالمعنى الاقتصادى ولكن لنفوذها فى المنطقة بالمعنى الاستراتيجى والقيادى والمعنوى .

ولكن يمكننا أن نقول اليوم أن السحر قد انقلب على الساحر . فان أمريكا لم تقدر مدى انتشار فكرة القومية العربية واستقلالها ووصولها الى درجة صارت لها مقوماتها الذاتية التى لا تحتاج الى تحريض . فبـــدأت دول البترول بعـــد ١٩٦٧ تدعم مصر ودول المواجهة ، وترفع الأسعار وتلوح بقبضتها فى وجه الدول صاحبة الامتيازات خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ الى اتخاذها موقفها الشهير من الضغط البترولى ...

ولكن هذا لا ينسينا أنه حين تفاقم الجدل والصراع حول البترول بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، أبرزت اسرائيل وجودها المنتصر فى المنطقة كرادع فى هـــذا المجال . وأنها اذا كانت قد أقيمت لحماية قناة السويس فهى اليوم قادرة على حماية البترول من أصـــحابه . وما زال يرن فى الأذهان تصريح أحد الجنرالات الاسرائيليين خلال تعثر المفاوضـــات بين دول البترول والشركات « إن اسرائيـــل تستطيع احتلال الكويت وضمان البترول فى ساعات . فليس بين جيش اسرائيل وبين الكويت سوى صحراء خالية ! » .

●

قال جدعون رفائيل فى ذكرياته نشرها بعد الحرب بســـنوات « وصلت نيويورك يوم ٢ مايو ١٩٦٧ لأباشر عملى الجديد كرئيس لوفد اسرائيل الـــدائم فى الأمم المتحـــدة . وكنت قادما لتوى من موسكو . فقد كان أبا ايبان وزير الخارجية يعتقد أنه يجدر بممثل اسرائيل الجديد لدى الأمم المتحـــدة الذى يلم الماما جيدا بالمجال الأمريكى أن يطلع أيضا على تفكير السوفيت وأن يشرح للمسئولين الســـوفيت بصراحة تامة وجهة نظرنا حول الوضـــع الخطير فى الشرق الأوسط .

« على هذا الأســـاس ، أجرت محادثاتنا فى وزارة الخارجية

السوفيتية ، حاولت اقناع سيمونوف نائب وزير الخارجية المتولى لشئون الشرق الأوسط ، بأن السياسة السوفيتية المؤيدة تأييدا تاما لسياسة الانتقام العربية تنطوى على اخطار جسيمة .... **ولكن سيمونوف وزملاءه قالوا ان شركات البترول الأمريكية التى تسعى لاسقاط الحكومة السورية هى التى توجه السياسة الاسرائيلية وقال بصراحة مفاجئة أنه من المحتمل أن تكون اسرائيل قد تورطت دون وعى فى هذه المؤامرة التى دبرتها الدول الكبرى ».**

●

كتب المؤلف الامريكى كينث لاف(١) :

« كان قرار اسرائيل بشن حرب أخرى ضد العرب ، وضد مصر بالذات ، قرارا قائما لم يتغير .

« لقد استخلصوا من حرب ١٩٥٦ دروسا كثيرة ، بعضها عسكرى ، ليس هذا مجال سرده ولكنه ظهر فى تخطيطهم لحرب ١٩٦٧ ، وبعضها سياسى . العبرة الأساسية التى خرجوا بها سياسيا من حرب ١٩٥٦ هى : ضمان موقف الولايات المتحدة بالذات بصفتها أحد القوتين الأعظم ، وعدم العمل خارج دائرتها أو من وراء ظهرها كما فعلوا سنة ١٩٥٦ ، اعتمادا على دول أقل قوة » .

وفى الكتابات الاسرائيلية الكثيرة التى كتبت بعد حرب ١٩٥٦ ، نجد أنهم يختلفون فى تقدير الأخطاء ، ولكنهم يتفقون على غلطة واحدة هى : أنهم سمحوا بخلق موقف وقفت فيه أمريكا وروسيا

---

(١) Suez : From War to War

معا تطالبان بالانسحاب حتى ولو من منطلقات مختلفة . لقد ادركوا من تجربة ١٩٥٦ أحد حقائق العـالم الجديدة وهى ضـآلة قوة الامبراطوريات القديمة اذا قيست بسطوة القوتين الاعظم . أما والاتحاد السـوفيتى مع العرب ، فلا بد من التركيز أولا على الولايات المتحدة ونقل « العلاقة الخاصة » التى تهم اسرائيل من أوروبا الى الولايات المتحدة . خصوصا وأن الظروف مهيأة لذلك بقوة الضغط الصهيونية الهائلة الموجودة داخل الولايات المتحدة . ولابد « ثانيا » من العمل باستمرار على زيادة الاستقطاب فى منطقة الشرق الأوسط : بحيث يصبح ترجمة « العرب » فى الخارج هى روسيا وترجمة اسرائيل هى أمريكا .

دروس ١٩٥٦ لم يكن من بينها قط عدم الحرب . بالعكس ، لقد ظلت القناعات الاسرائيلية الأساسية فى هذا المجال كما هى :

— ان اسرائيل لم تكتمل . وبالتالى فالرسالة لم تتم . ولا يوجد اسلوب لاتمـامها سوى الحرب . المهم فقط هو حسن اختيـار اللحظة ، وانتهاز الفرصة المواتية ، والاحتماء بقوة كبرى .

— ان ازدياد قوة العرب خطر ، وتفاهمهم خطر ، والوحدة العربية بأى درجة هى الخطر الأكبر ولذلك لابد من انتهاز فرصة التفكك العربى لتوجيه الضربة .

— ان اسرائيـل ليس أمامها مجـال من الزمن لتحقيق حلم خريطتها الكاملة الا قبل أن يتم نمو العرب وتحضرهم بالدرجة التى قد لا يكون هناك بد منها .

وأنقـل هنـا اشـارات هامة من كتاب للمؤلف الأمريـكى « كينث لاف » .

يقول : ان بن جوريون حتى بعد ١٩٥٦ بزمن طويل كان يرى انها حرب حققت أهدافا هامة لاسرائيل . كان يرى أن غزو سيناء رغم الانسحاب منها بعد ذلك والدراما التى أحاطت بذلك كله ، ادى خدمة أعلامية لاسرائيل « لم يكن يقوم بها ألف أبا ايبان » على حد تعبيره . كان يرى أن العالم « قد بدأت تتكون لديه أفكار » حول هذا الموضوع : يقصد أن سيناء لم تعد فى ذهن العالم مصرية بما لا يقبل الشك ، بل موضوع آخر متنازع عليه . وليس مثل هذا دليل على أن فكرة الحرب التالية بدأت مع نهاية حرب ١٩٥٦ والا كيف يمكن أن تأخذ اسرائيل سيناء ؟ ...

الأمر الآخر الذى ظل يقوله بن جوريون أنه يعتقــد أن حرب ١٩٥٦ اضعفت قيادة عبد الناصر « ان خوفى المستمر هو أن يظهر بين العرب رجل مثل رجالهم الذين ظهروا فى القرن السابع او مثل اتاتورك الذى ظهر فى تركيا بعد هزيمتها فى الحرب العالمية : يرفع معنوياتهم ، ويغير شخصيتهم ويحولهم الى أمة مقاتلة . وما زال هناك حتى الآن خطر أن يكون ناصر هو نفسه ذلك الرجل » .

واذا كان عبد الناصر قد ارتفع اسمه بعد حرب ٥٦ وأحــرز انتصارات سياسية كبيرة ، فذلك مدعاة لتحفز اكبر وليس اقل .

ثم يقول كينيث لاف « ان عبد الناصر وجنرالاته لم يتعلموا من أخطاء ١٩٥٦ العسكرية بينما تعلم الاسرائيليون . وفى سنة ١٩٦٧ أعاد الاسرائيليون استخدام الاســاليب التى نجحت سنة ١٩٥٦ بينما هجروا الاساليب التى لم تنجح . لقد درس الاسرائيليون كل المعارك التى دارت فى هذه المناطق حتى تلك التى خاضها أسلافهم من الفى سنة وبين جنرالات اسرائيل خبراء آثار مثل بيجال يبادين وموشى ديان الذين انصب اهتمامهم على مواقع المعارك القديمة التى ستكون حتما ساحات لمعارك الغد . فخبرة يادين فى هذا

المجال مكنته من أن يسلك طريقا قديما لهجوم مفاجىء فى أول حرب على حدود سيناء سنة ١٩٤٨ . وقادة حرب ١٩٦٧ كانوا نفس الضباط الذين حاربوا فوق نفس الأرض وسلكوا نفس المحاور سنة ١٩٥٦ . فمنذ اللحظة التى عرفت فيها اسرائيل أنهـا سوف تنسحب سنة ١٩٥٦ ادركت أن سيناء ساحة سوف تخوض القتال فوقها مرة أخرى ذات يوم . خطط الحرب التالية بدأ وضعها فور انتهاء الحرب السابقة ، وظلوا يطورونها يوما بعـد يوم دون انقطاع .

« ان البريجادير جنرال موردخاى هود ، الذى قاد الهجوم الجوى المفاجىء الذى حطم الطيران المصرى فى الثلاث ساعات الأولى من حرب يونيو ١٩٦٧ قال لونستون تشرشل وأبوه راندولف بعد الحرب انهم لم يقضوا عشر سنوات فقط بل ستة عشر سنة فى الأعداد لهذه الضربة « كنا نعيش مع الخطة وننام مع الخطة حتى صرنا نحن الخطة . وكنا نحسنها ونزيد من دقتها بلا انقطاع » ونفس الشىء قاله عازار ويزمان نائب رئيس الاركان من وجهـة نظر اسرائيل كانت ١٩٥٦ بمثابة (بروفة) حرب ١٩٦٧ . سنة ١٩٥٦ كانت الخطة عمرها سنة فقط حين جربت على الطبيعة أما سنة ١٩٦٧ فان عمرها كان ١٢ سنة . لم يكن ينقصـها ، مثل سنة ١٩٥٦ ، الا الظروف المواتية ، والقرار السياسى للبدء فى تنفيذها .

« وفى سنة ١٩٦٦ كما كان الحال سـنة ١٩٥٥ كان الوضع الاقتصادى فى اسرائيل متدهورا . كان حزب الماباى ما زال هو الحاكم ولكنه تمزق الى فئات . ومع ربيع ١٩٦٧ كانت الهجرة الى اسرائيل قد هبطت الى درجة الصفر . ونتيجة لخطة اقتصادية لمقاومة التضخم والغـلاء هبط الانتاج وتحـول ١٠٪ من الأيدى العاملة إلى متعطلين . وفى مارس ١٩٦٧ قامت أول مظاهرات

العاطلين عن العمل فى تل أبيب وقذفوا مقر بلديتها بالحجارة .
ومثل هذه الظروف تشجع نزعة المغامرة لتحويل الأنظار لدى أى حكومة . فالسياسة يرسمها بشر . وحين تتوتر الأعصاب تكبر المخاطر . وقد كان جزءا أساسيا من حياة بن جوريون وفكره وأسلوبه . اقتناعه العميق بأن أى عمل ايجابى يجلب الأنظار حتى وقد أساء الى صورة اسرائيل الا أنه أحسن من نسيانها واهمالها . فالعنف يجذب انظار العالم الى مشاكل اسرائيل ويضاعف تأييد اليهودية العالمية لاسرائيل ولأهدافها حتى ولو انتقدوا سياستها .

« وكما ان حرب السويس سنة ١٩٥٦ لها جذورها التى ترجع ايضا الى الغارة على غزة سنة ١٩٥٥ كذلك فان حرب ١٩٦٧ لها جذور فى تلك الهجمات والهجمات المضادة التى بدأت بالغارة الاسرائيلية على قرية (السموع) الأردنية . ففى هذه الغارة قتل الاسرائيليون ١٨ عربيا وجرحوا ١٣٤ . ومثل الغارة على غزة لم يكن هناك أى مبرر مقنع للغارة الاسرائيلية على قرية (السموع) . لقد قال الاسرائيليون أنهم قاموا بهذه الغارة ليس ردا على الأردن ولكن على تسلل سورى ولكنهم اختاروا السموع لأنها آوت المتسللين . وكما كانت غارتهم على غزة قبل ١٩٥٦ أكبر حجما من الاشتباكات العادية ، كان الهجوم على قرية السموع مختلفا بوصفه أول هجوم شامل ، فى وضح النهار ، وأول هجوم من نوعه تستخدم فيه الدبابات والطائرات وسائر الأسلحة .

« وقد أصدر مجلس الأمن فى ٢٥ نوفمبر أقوى قرار له ضد اسرائيل منذ عشر سنوات ، قائلا ان مثل هذه الغارات « لا يمكن السكوت عليها » وانذر « باتخاذ خطوات أخرى أكثر فاعلية » . ولكن لم يكن لمثل هذا القرار أى فاعلية أكثر من القرارات التى سبق وأصدرها فى سنتى ٥٥ و ١٩٥٦ .

« وقد بدا وقتها أن اسرائيل اختارت أن ترد على الأردن بدلا من سوريا ، حتى لاتخاطر بتحريك اتفاقية الدفاع المشترك المعقودة حديثا بين سوريا ومصر وبالتالى تشعل حربا ينجر اليها الاتحاد السوفيتى . ذلك أن اتفـاقية الدفاع السورية المصرية التى تم توقيعها فى ٤ نوفمبر كانت تقضى بأن أى هجوم على احدى الدولتين يعتبر هجوما على الدولة الأخرى وقد ظن بعضهم وقتها أن اسرائيل بهجومها على الأردن كانت تريد دفع الأردن الى الدخول فى هذا التحالف وبالتالى تعيد استخدام أحد الحجج الأساسية التى استخدمتها فى تبرير حرب ١٩٥٦ ، حجة « الطوق الحديدى الذى يحاصرها » .

« وكان بن جوريون قد قال مرة أمام الكنيست : منذ أصبحت مسئولا عن أمن اسرائيل وضعت قاعدتين ، احداهمـا ايجابية والثانية سلبية . القاعدة الايجابية هى أن جيش الدفاع الاسرائيلى يجب أن يكون دائما قويا بدرجة تسمح له بهزيمـة كل الجيوش العربية مجتمعة والقاعدة السلبية الا تصـل الى وضـع يجعل الجيش الاسرائيلى يحارب ضد أى قوة أوروبية أو أمريـكية ، أو سوفيتية .

« وبعد ذلك بقليل ، أظهرت اسرائيـل تحديها لاتفاقيـة الدفاع المصرية السورية فى يوم ٧ ابريل ١٩٦٧ حين اشتبكت الطائرات الاسرائيلية بالطائرات السورية فى العمق السورى فوق دمشق واسقطت ستة منها . وفى اليوم التالى أعلنت اسرائيل ترقية قائد طيرانها ، الكولونيل موردخاى هود الى رتبـة بريجادير جنرال « تقديرا له » . على أن اسرائيـل لم يكن ينقصها سبب لهـذا الاستفزاز . فمنظمات الفدائيين الفلسطينيين ، خصوصا المنطلقة من سوريا كانت تزداد جسارة ، وكانت الحكومات العربية تواجه صعوبة أكبر فى تهدئتها ، لعدم شعبية مثل هذا الاجراء .

ويلفت النظر ان السفير الأمريكى فى الأمم المتحدة «تشارلز يوست» نشر مقالا فى مجلة الشئون الخارجية الأمريكية Foreign Affairs فى يناير ١٩٦٨ قال فيه ان اسرائيل قد « خلقت بذكاء وحنكة الأزمة التى مهدت لهجومها على مصر » . وقال : « انه من الصعب أن نتصور كيف يمكن لأى زعيم اسرائيلى أن لا يعرف أن مثل هذه الهجمات والتحديات المتواصلة لا بد لها وأن تضع قائد التجمع العربى فى موقف لا بد له فيه من الرد » . ان هناك ظروفا كثيرة تشير الى ان اسرائيل قد سعت فعلا سنة ١٩٦٧ كما سعت سنة ١٩٥٦ ، الى خلق موقف مهيأ للحرب ، خصوصا لمن يتابع سلسلة الأعمال الاسرائيلية التى استهدفت استدعاء رد الفعل العربى المتوقع . ولا شك أن أهدافها التوسعية ، كجزء من خطتها العسكرية العامة ، كانت مرسومة قبل الأزمة بوقت طويل .

●

يقول انتونى ناتنج فى كتابه المشار اليه : « طوال هذه السنوات العشر من ١٩٥٧ الى ١٩٦٧ ، كانت الفكرة الثابتة لدى اسرائيل انه يجب تدمير عبد الناصر ، أو على الأقل تدمير سمعته لدرجة لا يمكنه معها استرداد مكانته فى العالم العربى » .

وفى رأى ناتنج أيضا — نفس الكتاب صفحة ٣٩٨ ، أن الاسرائيليين بدأوا يرسمون لنا الفخ ، الذى سرنا اليه تماما كما توقعوا .

وكانت خلاصة خطة هذا الفخ : انتهاز كل هذه الظروف المواتية لهم لكى يبدأوا فى سلسلة استفزازات متصاعدة نحو العرب بوجه عام ، ومصر بوجه خاص ، استفزازات تتصاعد بها الى الدرجة التى تدفع العرب الى ردود فعل متصاعدة ، تصل بهم الى حالة

الحرب معها ، فى وقت كانت تعرف فيه أنها مستعدة تماما ، بسلاحها وخلفاءها ، فى حين أن الدول العربية ليست مستعدة لها، بخلافاتها وانعدام استعداداتها وعدم التنسيق بينها .

أخذت اسرائيل تنصب هذا الفخ بتصعيد الاستفزازات فى ايقاع محسوب ، عارفة من جهة بردود فعل العرب المتوقعة بسبب حياة الصراع والشقاق والمزايدات ، ومتجنبة من جهة أخرى أخطاء سنة ١٩٥٦ التى حرمتها من الثمرة المطلوبة،وهى ضم أراض جديدة .... بينما توجهنا نحن الى الفخ مغمضى العيون ، يصم آذاننا ضجيج عال من صياحنا . غير مستفيدين من أى درس من دروس سنة ١٩٥٦ ....

●

كانت اسرائيل،بناء على معلومات مخابراتها ومعلومات المخابرات الأمريكية ، تعرف أنها أقوى عسكريا ، وأنها قادرة على خطف انتصار سريع ، وان كانت ستحتاج قبيل القتال الى امدادات معينة من أجهزة وأسلحة أمريكية خاصة ..

ولكنها كانت حريصة على ثلاثة أمور :

أولا ــ خلق الملابسات التى تعطيها أمام العالم مبررا لشن القتال ، وتأييدا معنويا دوليا ، الأمر الذى يجعل فى مقدورها بعد ذلك الاحتفاظ بثمار النصر .

ثانيا ــ أن تنسق مع أمريكا الى آخر الحدود ، وتعمل بالتفاهم معها لأنها القوة التى تمدها بالسلاح وأيضا لكى تساعدها كذلك على الاحتفاظ بعد المعركة بثمار النصر .

ثالثا ــ أن تقاتل بمفردها ، أى أن تحول دون تدويل الصراع

بينها وبين العرب لأن هذا مرة ثالثة ، أساس للهدف الجوهرى الذى ستقاتل من أجله وهو : الاحتفاظ بعد المعركة بثمار النصر ...

كان الصخب العربى قد وصل الى أحدى ذرواته ، عندما شنت اسرائيل فى نوفمبر ١٩٦٦ هجومها المســلح على قرية السموع الأردنية،فى تحد عملى سافر للعرب.وكان يجب أن يلفت النظر أن هذا الهجوم كان أكبر كثيرا من ضرورة الردع العادية ضد عمليات الفدائيين المحدودة . فقد تم الهجوم بالدبابات والطائرات وفصائل المشاة ، وفى وضح النهار ، مخلفا وراءه عددا كبيرا من القتلى والجرحى . وســــارت فى الوطن العــربى مظاهرات وتبودلت اتهامات ، وطالب كل نظام غيره بتأديب اسرائيل !

وبعد عقد معاهدة الدفاع المشترك بين سوريا ومصر لأول مرة منذ الانفصال، غطت الطائرات الاسرائيلية سماء دمشق وما حولها فى اعداد كثيفة ، وأسقطت ست طائرات سورية مرة أخرى بحجة حوادث الحدود .

وأدى هذا الحادث أيضا الى نفس ردود الفعل ونفس الشكوك والاتهامات . سوريا ارادت تدخل مصر . ومصر فسرت معاهدة الدفاع المشترك بأنها التزام بالحرب اذا شن هجوم شامل على سوريا . وطلبت القيادة المصرية نقــل قوة دفاع جوى وطيران مصرى الى سوريا . واختلفت الأطراف على التفاصيل أو على الأسس ، وتركت حزازات الانفصال والحملات السابقة ما زالت فى النفوس .

كان واضحا أن اسرائيل تصعد استفزازها للعرب . وتكشف فى نفس الوقت نقط ضعفهم وتتعرف على نوع ردود فعلهم .

ومع مايو ، تحولت اسرائيل فجأة الى حملة تهديدات صريحة

ضد سوريا ، مصحوبة باجراءات لا تترك شكا فى أنها تمهيد الهجوم الشامل .

كتب انطونى ناتنج يقول « رغم أن الأردن وسوريا قد تم عقابهما ، الا أن ناصر لم يلمسه شىء بعد . وطالما أن قوات الطوارىء الدولية هناك فمن الصعب ادخاله فى معركة من هذا النوع . وبتحذير بن جوريون الذى يرن فى آذانهم طول الوقت ، كانوا مصممين على اخراج ناصر من خندقه لتدمير صورته نهائيا كزعيم للعالم العربى . وكان التزام مصر الجديد بالحرب الى جانب سوريا هو المفتاح نحو هذا كله . ولذلك أعلن الاسرائيليون عندما هاجموا قرية السموع أنهم لم يقصدوا عقاب الأردن ، بل سوريا ، التى يعمل « مخربوها » من وراء الحدود . ولكن عبد الناصر لم يستدرج الى هذا الفخ الواضح. ولما فشلت سلسلة أخرى من الغارات الأقل حجما أن تستدرج العرب الى أكثر من الاحتجاجات الغاضبة ، رضخ اشكول لضغط القوى التى كانت تطالب بضربة أكبر . وفى أبريل ، مع تحذير واضح للعرب بأن اسرائيل تستطيع أن تعتمد دائما على مساندة أمريكا التى لم يبعد أسطولها السادس قط عن شواطىء سوريا ومصر ، أرسل اشكول الطيران الاسرائيلى فى هجوم كثيف على الجو السورى ردا على عمل قامت به مجموعة منظمة فتح ، حيث أسقط ست طائرات ميج سورية » .

ولم يتأخر الوقت طويلا قبل أن يعلن متحدث عسكرى اسرائيلى أن اسرائيل قد تضطر الى احتلال دمشق لانهاء التسلل السورى والفلسطينى داخل اسرائيل . وفى ١١ مايو أعلن الجنرال اسحق رابين رئيس أركان حرب القوات الاسرائيلية : « ان طريقة الرد التى انتهجت ضد الأردن ولبنان انما تلائم تلك الدول غير المعنية

بأعمال التخريب التى تجرى على الرغم منها ، أما فى سوريا فالقضية تختلف لأن الحكم القائم هو الذى يستعمل المخربين ، لذلك فان هدف العملية فى سوريا يختلف عن عمليات ضد الأردن ولبنان » . وأدلى ليفي أشكول بتصريح سجل فيه التزام الأسطول السادس الأمريكى بالعمل الى جانب إسرائيل فى حالة الحرب . وفى ٣ امايو قال ان اسرائيل قد تتخذ أعمالا لا تقل خطورة عما فعلته يوم ٧ ابريل .. وانتشر وزراء اسرائيل فى انحاء البلاد يرددون نفس الاتهامات « كما قال ميشيل بارزهار مؤرخ ابن جوريون » ..

●

منذ قامت اسرائيل بهذه الاستفزازات ، وبدأت حشودها على الحدود السورية بدأت الأحداث تتحرك بسرعة ...

اسرائيل تحاول أن تحركها فى اتجاه الحرب .

وعبد الناصر يحاول أن يحركها فى اتجاه يردع اسرائيل عن الاقدام على الحرب ..

هذا بصرف النظر عن الأخطاء التى سهلت لاسرائيل مهمة النجاح فى الشرك المنصوب ..

لقد اكدت معلومات وثيقة كثيرة أن هناك حشودا اسرائيلية تصل الى ١٢ لواء عند حدود سوريا ، واقترن هذا بالتهديدات السابقة .

وقول اسرائيل أن هذه الحشود لم يكن لها وجود ، قول لا قيمة له ، أولا لانه كان لدى الجانب العربى ما يؤكد وجودها . ثانيا ،

ان نظـــام اسرائيل العسكرى يسمح لهـــا باخفاء هذه الحشود . فحين دعت السفير السوفيتى لزيارة الحدود ، رفض السفير لسبب بسيط ، هو انه ليس اسهل من تضليله عن اماكنها . وثالثا ، لانه فى النهاية المهم هو « الانطباع » الخطير الذى تتركه قصة الحشود على الأطراف الأخرى ، وهـــذا الانطباع هو المقصود أساسا من العملية — اثارة رد فعل لدى الخصم — وهذا انطباع تعمـــدت اسرائيل أن تغذيه بتصريحات الرسميين المحددة عن احتلال دمشق، بعد الغزو الجوى الفعلى الذى قامت به فوق دمشق .

وحدث رد الفعل الذى لابد منه : ارسل عبد الناصر قواته فى صورة مظاهرة علنية لدرجة انها اجتازت شوارع القاهرة فى وضح النهار ، الى سيناء ، التزاما بمعاهدة الدفاع المشترك ، والعلنية هذه كانت مقصودة لاشعار العالم أن هناك أزمة زاحفة وخطرا منتظرا ، ومن المستحسن أن تتدخل الأطراف الدولية للحيلولة دون قيام اسرائيل بالهجوم .

ولكى يكون هذا « الردع » جديا ، ابلغ القائد العسكرى المصرى قائد قوة الطوارىء الدولية انه أمـــر القوات المصرية المســـلحة « بالاستعداد لعمل ضد اسرائيل ، اذا ومتى قامت بعمل عدوانى ضد أى دولة عربية . وبناء على ذلك احتشدت قواتنا على حدودنا الشرقية فى سيناء . ومن أجل سلامة جنود قوات الطوارىء ، اطلب منك أن تأمر بسحب هذه القوات من المراكز على الحدود ، وتركزها فى قواعد القطاع » .

خطاب لم يشر قط الى « سحب قوات الطوارىء » من مصر . ولم يشر قط الى شرم الشيخ . ونسجل بوضوح أن الهـــدف من التحرك دفاعى محض .

ولو توفرت النوايا الحسنة ، لأمكن فض القضية بسحب التهديدات الاسرائيلية رسميا ، أو بأى صيغة أخرى .

ولكن عجلة الدعاية الاسرائيلية ، التى لا تنفصل عن عجلتها السياسية ، كانت قد دارت بكل قوتها فى الاتجاه المرسوم : مصر تريد تدمير اسرائيل . العرب يريدون تدمير اسرائيل .. اسرائيل مضطرة للدفاع عن نفسها .

وفى جو عربى محموم ، من التظاهر والجدية والمزايدة والرغبة فى التوريط معا ، ساعدت تصرفات وتصريحات عربية كثيرة فى تزويد الدعاية الاسرائيلية بوقود كثير ..

وكانت بعض الأصوات تنادى بان هذه حيلة من مصر . وان التحدى الحقيقى والواجب القومى هو طرد قوات الطوارىء واغلاق خليج العقبة .

والأهداف حتى المشروع منها اذا طرحت فى غير أوانها تكون قاتلة ولكن الصراع العربى كان قد جعل المزايدة والضغط والتجريح المتبادل هو اسلوب الحياة الوحيد لنظم كثيرة .

وقد كمل يوثانت المهمة دون أن يدرى ..

فكر ، وهو الأمر الطبيعى فى البداية ، أن يتدخل ، أو أن يرد ردا مختلفا أو أن يمارس دوره كأمين عام للأمم المتحدة فى حل المشاكل لا فى دفعها الى التدهور . ولكن دكتور رالف بانش دخل عليه غاضبا ، لدوافع مشكوك فيها ، وطلب منه أن يكون الرد اما البقاء الكامل أو الانسحاب الكامل .

أشار رالف بانش بذلك ، وهو الخبير القديم بهذه القضية بالذات ، والذى يعرف انه لن يكون هناك رد الا طلب الانسحاب الكامل ،

وان يكون العرب ، وعبد الناصر بالذات ، قد هزموا بغير قتال .
وان الانسحاب الكامل معناه اغلاق خليج العقبة ، أي اثارة أزمة كبرى ، أكبر بكثير من الأزمة فى حجمها حتى ذلك الوقت .

وباعلان اغلاق مضايق خليج العقبة ، صارت فى يد اسرائيل الورقة المطلوبة . وكان غريبا أن لا نعرف أننا نعطيها الورقة المطلوبة عالميا !

وكمراقب سياسى ، قلت لكل من كانوا معى وقتها فى مؤتمر فى الجزائر ، بمجرد سماعنا النبأ أن الحرب واقعة لا محالة ، وفى خلال أيام .

ذلك أن أى دارس لاسرائيل يجب أن يعرف أن الحرب والتوسع ثم الحرب والتوسع ، مقوم أساسى من مقومات الدولة فى وضعها الراهن . الأمر الذى يقتضى الحساب ، والاستعداد ، وجعل القتال حين يقع ، يكون فى الظروف التى تناسبنا ولا تناسبهم .

●

لم يكن خافيا على اسرائيل ان مصر أرسلت قواتها لمحاولة ردعها عن مهاجمة سوريا ، وليس للبدء بمهاجمة اسرائيل . وانها بالتالى ذهبت فى مهمة دفاعية ، وانه حتى حين ذهب الاسرائيليون الى الولايات المتحدة يطلبون نجدتها أول الأمر ، قالوا لهم فى وزارة الخارجية الامريكية : أن كل معلومات البنتاجون والمخابرات الامريكية تؤكد ان القوات المصرية منتشرة فى صورة دفاعية ظاهرة .

ولكن عجلة السياسة والاعلام والعسكرية الاسرائيلية بدأت تدور معا فى أحكام شديدة ، وصارت لها أهداف محددة :

١ — اظهار العرب فى صورة المعتدين الذين يريدون ابادة اسرائيل ، كغطاء لهجومها « الوقائى » فيما بعد . وكطريقة لأخذ أحدث المعدات الالكترونية بالذات والخبراء والمتطوعين من دول

شمتى . وقد تحقق لهـا الهدفان معا . اجتاحت العالم موجة من العطف على اسرائيـل والعداء للعـرب . وفتحت المخازن أمام اسرائيل وتقاطرت الطائرات عليها تحمل الاسلحة الدقيقة والفنيين.

٢ ـــ ابقاء التوتر قائما حتى تستكمل عدتها ، دون أن تضيع خلال ذلك فرصة الحرب .

٣ ـــ التنسيق الكامل مع أمريكا ، خصوصا فى مجال حمايتها سياسيا وعسكريا ، وفى التزامها بعدم السماح بحرمانها من ثمار النصر ...

من كتاب ميشيل بارزرهار ، العـليم بالاسرار ومؤرخ حيـاة بن جوريون ، نجد هذه الوقائع :

ـــ عندما عرض العسكريون خطة الهجوم كاملة على بنجوريون، الذى كان متقاعدا منذ مدة ، وافق بعد تردد ، قائلا أنه يعتقد أن مصر لا تنوى الهجوم قط (ولكنهم كانوا يعرفون) .

ـــ عندما قال ديجول لابا ايبان « لا تبدأوا الحرب » رد ايبان ردا مدروسا غامضا « ليس أمامنا الا أمرين : الاستسلام أو المقاومة وقد عزمنا على المقاومة » .

ويعلق المؤلف الاسرائيلى قائلا انه اختار كلمة « المقاومة » بدلا من الحرب ، بقصد تضليل ديجول ، دون الكذب الصريح عليه .

ـــ عندما سأل الضـباط الاسرائيليون ليفى اشـكول رئيس الوزراء متى يبدأ الحرب رد عليهم قائلا « يجب أن نضمن عدم وقف عمليات الجيش تحت ضغط سياسى من الخارج » رد دقيق يحدد تمـاما العلاقة بين النشـاط السياسى والاعلامى وبين الهـدف العسكرى !

— فى الحديث عن التنسيق بين أمريكا واسرائيل قال يوجين روستو ، وكيل وزارة الخارجيـــة الأمريكية لسفير اسرائيل فى واشنطن « اذا شئتم أن نكون معا أثناء الهبوط فعليكم أن توافقوا على وجودنا معكم ساعة الاقلاع ! » .

هذه الكلمة « المفتاح » كانت هامة جدا فى تلك اللحظات ..

وما كانت تريده اسرائيل ، فوق تأييد « الرأى العام العالمى »، هو ضمان موقف أمريكا بالذات ، التى كان تحالفها مع اسرائيل وتزويدها لها بالسلاح فى عهد جونسون قد وصل الى قمته،وخلافها مع عبد الناصر فى ذروته ، وكانت هى الدولة الكبرى المؤهلة لأن تعطل أى حركة للاتحاد السوفيتى ، وتحقق لاسرائيــل الحماية داخل الأمم المتحدة من اى قرار — كما قال أشكول لجنوده — « قد يوقف عمليات الجيش تحت ضغط سياسى من الخارج » ..

وكان لدى أمريــكا اقتراح محدد لمواجهــة قرار اغلاق خليج العقبة عند مضيق تيران هو أن تتوجه قوة بحرية دولية اذا أمكن، وأمريكية اذا لم يمكن تشكيل هذه القوة ، وتخترق المضايق ذاهبة الى ايلات ، متحدية بذلك القرار .. وكان ماكنمارا وزير الدفاع فى ذلك الوقت ودين راسك وزير خارجية قد قدما لجونسون مذكرة تخيره بين اختراق المضايق ، أو ترك اسرائيل تتصرف « وآثر جونسون تجربة الاقتراح الأول .

وفى البداية اتصلت أمريكا بدول عديدة لمشاركتها فى تكوين هذا الاسطول ليتخذ صفة دولية ، ووافق هارولد ويلسون باســم انجلترا ، واتصل بكندا لاقناعها ، وامتنعت ايطاليا .

وليس لدينا كل التفاصيل ، ولكن القدر الثابت هو أن الولايات المتحدة اتخذت نفسها هذا القرار وان البنتاجون طلب التفكير فى

فى احتمال نشوب مقاومة من جانب مصر ، فطلب البيت الأبيض من قيادة الجيش وضع خطة انزال واحتلال وقتال فى سيناء عند شرم الشيخ ، وتم وضع هذه الخطة .

وحاولت أمريكا فى البداية اقناع اسرائيل بذلك وطلبت منهـا المهلة المعقولة لتنفيذ هذا القرار . وكان رأى أمريكا أن انزال هزيمة سياسية بعبد الناصر يساوى الهزيمة العسكرية فى اثرها. قال يوجين روستو للسفير الاسرائيلى وابا ايبان « سنمر بلا مقاومة ، فيكون هذا كالابرة التى تنفس البالون » .

ولكن تفكير اسرائيل كان مختلفا ، فماذا عن الأرض ؟ ماذ عن فرصة التوسع التى لا تتم الا بالحرب والاحتلال ؟

لذلك عارضت اسرائيل بكل قواها هذا الاقتراح ، بحجة أن اعداده سوف يستغرق وقتا طويلا .

كان قـرار اسرائيل هو نفسه ما رتبت له الحـرب . ولكنها محتاجة الى أن تجربة سلوك أمريكا معها اذا حاربت . واجتمع مجلس الوزراء الاسرائيلى وقرر عمل حيلة غريبة « للاختبار » . وأرسلت برقية عاجلة الى واشنطن تبلغها أن القوات المصريـة تحركت وانها على وشك الهجوم على اسرائيل خلال أيام . وانها مضطرة للعمل .

وتنبهت كل مراكز صنع القرار فى أمريكا . ولكن المخابرات ، ومراكز التجسس الآلية وغيرها من الأجهـزة أجمعت على أن الخبر غير صحيح . وانه لا توجد أى بادرة تدل على أن مصر سوف تهجم على اسرائيل ..

ومع مضى الأيام واستمرار حالة التعبئة فى اسرائيل ، رجح الرأى القائل « يترك اسرائيل تتصرف » . وطار ايبان مرة أخيرة الى أمريكا ليتأكد من أهم الأمور كما روى بنفسه فى مقابلة صحفية بعد سنوات من الحرب ، وهو « أنه اذا صدر من مجلس الامن قرار بوقف اطلاق النـــار لا يقترن بذلك النص التقليدى الآخـــر الذى يطلب من الأطراف المحاربة الانسحاب الى خطوطها السابقة على القتال » .

وكان هذا هو جوهر القضية كلها ..

والباقى معروف ..

لقد نفذت يوم ٥ يونيو الخطة العسكرية الموضوعة منذ ستة عشر سنة ...

تماما كما نفذت سنة ١٩٤٨ الخطة العسكرية التى وضعت قبل ١٢ سنة (فى حديث للجنرال يادين ، ثانى رئيس أركان حرب للجيش الاسرائيلى ، نشر فى جريدة معاريف يوم ٦ ــ ٥ ــ ١٩٧٣ بمناسبة مرور ٢٥ سنة على قيام دولة اسرائيل قال بالحرف الواحد « ان حرب ١٩٤٨ بدأت فعلا سنة ١٩٣٦ . ولولا الاستعدادات التى تمت وقتها لمـــا كان باستطاعة الجيش الاسرائيلى الوقوف أمام الجيوش العربية . وقد استكملت الخطة سنة ١٩٤٢ ، الا أنه لم يبـــدأ تنفيذها الا قبل اعلان الدولة بقليـــل ، وقد تم تنفيذها كاملة » .

« وهذا ، فى المرات الثلاثة ، فى وجه « لا خطة عربية » .

على ان القول بان حرب يونيو ١٩٦٧ كانت شركا منصوبا ، وان عناصر الاستدراج الاسرائيلى كانت واضحة فيه .. لا يجوز

أن يعنى بأى حال من الأحوال أن نعفى أنفسنا من المسئولية ونريح ضمائرنا بالتهرب منها ..

ان تعليق مسئولية اخطائنا على شماعات الآخرين عادة شائعة . وهى عادة ذميمة . وأسوأ ما فى هذه العادة الذهنية هى انها تضللنا عن معرفة نواقصنا . وبالتالى نضيع على أنفسنا فرصة علاجها .

ان الشعوب تتعلم من هزائمها أكثر مما تتعلم من انتصاراتها .

وقد جربنا ، مثلا ، منذ زمان طويل على القاء مسئولية كل عيب أو تخلف لدينا على عاتق الاستعمار . ولا شك أن أحد حقائق الحياة العربية الراهنة — بل وحياة العالم الثالث كله — تركة الاستعمار الثقيلة التى خلفها وراءه بعد قرون من السيطرة والاستغلال والتحكم فى تشكيل حياتنا . ولكن معظم بلادنا امتلكت زمام نفسها خلال ربع القرن الأخير ، وصار فى مقدورها اتخاذ القرارات التى تمس حياتها بملء ارادتها : فيما عدا القدر الذى يراعى فيه على سبيل اليقين علاقات القوى وبقايا النفوذ الخارجى . وهو وضع يشمل دول العالم كلها كبيرها وصغيرها . فعالم اليوم المتشابك لا يسمح بحرية عمل مطلقة لأى دولة . ولكن يبقى الكثير الكثير مما تستطيع الدول والمجتمعات أن تخططه وترسمه لنفسها ، وتختاره لحياتها ..

ان اقامة الشرك ، والتمهيد له ، والأعمال المدروسة التى يقدم عليها العدو لاستدعاء رد فعل معين منا ، كل هذا صحيح . ولكن الوقوع فى الشرك ، والانقياد له فى الزمان والمكان المحددين من العدو ، لا يمكن أن يتم الا بمساهمة منا ، والا كنتيجة لمحصلة حياتنا السياسية وتصرفاتنا فى شتى المجالات .

ولو شئنا بناء على ذلك أن نحلل أسباب هزيمة ١٩٦٧ ، لاحتاج الأمر منا أن نحصى كل ما هو سلبى فى حياتنا العربية المعاصرة . ولكن فضلا عن ان هذا قد يجنح بنا الى المبالغة ، والظن المدمر بأن مجتمعا ما ، لا يمكن أن يكسب الحرب الا اذا كان مجتمعا كاملا لا تشوبه شائبة ، فان هذا ليس موضوع الكتاب .

على أن هناك أسبابا وثيقة الصلة بما نحن بصـــدده ، بحيث لابد من تسجيل أبرزها ..

اولا — عدم فهم اسرائيل فهما عميقا . ان القارىء العربى اليوم قد يجد السوق مكتظا بالكتب والمؤلفات والمجـــلات عن اسرائيل . ولكن الغريب ان هذه ظاهرة جديدة صاحبت هزيمة ١٩٦٧ وكانت من نتائجها . قبل ذلك لم يكن يوجد الا القليل النادر من الكتب الموضوعية حول هذا الموضوع ، موضوع اسرائيل ، رغم انه أخطر ما يواجه مجتمعنا العربى من موضوعات .

ولا أضع فى الحساب هنا كتب الدعاية والمجادلات والمناظرات . أن هذا بند آخر له مهمة أخرى . ولكننى أقصد الدراسة المعمقة لاسرائيل من الداخل ، بكل مقوماتها وعناصرها والقوى والمبادىء التى تشكل محركاتها وتستمد منها اسرائيل ديناميكيتها الخاصة بهـــــا .

وليست هذه مؤلفات فكرية ولا ابحاث تقف قيمتها عند حدود العمل الاكاديمى ولكننى اقصد أثر ذلك على تكوين فكر القـــادة العرب انفسهم ، وكل الأجهزة المدنية والعسكرية التى تساهم فى صنع القرارات السياسية آخر الأمر .

لو كانت لدينا هذه المعرفة وبهذه الابعاد ، عن اسرائيل ، لكنا أدركنا الحقيقة الجوهرية وهى أن كلمة التوسع التى ننسبها الى

اسرائيل ليست مجرد وصف ذميم لهـا ولكنها كلمة تصف مجمل فكرها ، وعقيدتها ، وأساسها الاجتماعى والاقتصادى ، والعوامل المتحكمة فى سلوكها داخليا وخارجيا . ولادركنا أن سعى اسرائيل هو الى الحرب وليس الى السلام . وانها لكى تشن الحرب ، من منطلقاتها التى سبق ذكرها ، تعتمد أساليب محددة وظروفا لابد أن تهيئها .

أىبايجاز : لو كنا دارسين لها كما هى دراسة لنـا ، لعرفنا تفسير تصرفاتها وردود أفعالها ، كما تعرف هى تفسير تصرفاتنا ، وردود افعالنا ، ولعرفنا كيف ندير لعبـة الشطرنج الاستراتيية ضدها كما عرفت هى منذ قامت كحركة صهيونية تريد بناء دولة .

وليست محصلة هذا الفهم هى أن نعرف كمـا قد يتبادر الى ذهن البعض « كيف نتجنب المواجهة العسكرية مع اسرائيل » لأن هذا شبه مستحيل ازاء خصم يرى أنه لا مفـر له من التوسع ولا مفر من الحرب لتحقيق هذا التوسع ، ولكن محصلة هذا الفهم هى أن نعرف كيف ومتى ندخل فى المواجهة العسكرية مع اسرائيل .. لا أن نمنحها فرصة القتال فى أى وقت تشاءه هى ، بلا ترتيب ولا توقيت .

ان القتال محصلة جهـد واعداد ودراسـة وتهيئـة ظروف استراتيجية عليا واسعة ، يبدأ بعدها القتال . وليس الأسلوب ابدا هو أن يبدأ القتال ، ثم نبدأ فى البحث عن الترتيب والتنسيق ورسم الاستراتيجية العليا والمباشرة والاستعداد وتهيئة الظروف.

ومن يراجع الشريط السريع لاحداث أواخـر ١٩٦٦ وأوائل ١٩٦٧ يجد أننا كنا قد دخلنا بالفعل الى المنطقة التى لابد أن تنتهى بالقتال ، دون أن تكون كل هذه الشروط السابقة متوفرة لدينا بأى معنى من المعانى .

ثانيا — الاستهانة بالخصم ، وهذا جزء من الجهل بحقيقة هذا الخصم ، كما سبقت الاشارة الى ذلك . ولكن هذا فى نفس الوقت بعد آخر من أبعاد عدم المعرفة والدراسة .

البعــد الذى تحدثنا عنـــه فى بند أولا هو عـــدم معرفة كيف نواجهه ، اما هذا البعد ، أى الاستهانة به — فهو نوع من الكسل الذهنى والراحة المعنوية التى كنا نشتريها لانفسنا بالكلمات .

ان الجدل السياسى بين الخصوم يتسع لقاموس كبير . ونحن نستخدمه ضدهم وهم لديهم قاموســـهم الاعلامى أيضا ضدنا . ولكن هذا لا يجوز أن يصبح أساسا لمعلوماتنا وتفكيرنا .

حين نقول دولة العصابات وشذاذ الآفاق .. الى آخره ، هذا شىء ، ولكن حين نتجاهل ما يقيمونه ويفعلونه ، والجهد الضخم المبذول لا لاقامة دولة قوية متقدمة ، ولكن فى الدرجـــة الأولى لتحويل الخليط المتنافر من المهاجرين من شتى أنحاء الأرض الى قومية جديدة ، متعصبة ، يربونها على الشعور الدائم بالخطر ، وعلى أنه « لا هزيمة ولا مرة واحدة » وعلى « نقل المعركة دائما الى أرض العدو » ، وعلى أنهم « شعب الله المختار » هذا كله كان كفيلا أن يجعلنا نعرف عناصر قوة العدو : ابتداء من المـــال المتدفق عليه ، الى عون الصهيونية العالمية له سياسيا واقتصاديا الى تفاهم الدول الاستعمارية الكبرى ، فى مراحل تاريخية شتى ، الى درجة التقاء مصالح هذه الدول مع مصالح اسرائيل فى المنطقة ... الى آخره .

ان التقييم الحقيقى لقوة الخصم العسكرية والسياسية وعمق اتفاقاته ومحالفاته ، كل هذا يعتبر شرطا اســـاسيا فى التفكير الاستراتيجى لاى دولة كانت .

وهذا أمر يختلف تماماً عن ما كنا نراه من قول رئيس دولة عربية فى مؤتمر القمة كما سبق ذكره : أن القضاء على اسرائيل لا يستغرق سوى ثلاث ساعات .

وانقلاب الصورة من الاستهانة قبل ١٩٦٧ الى الاسطورة المبالغ فى قوتها بعد ١٩٦٧ ، ظاهرة من أهم الظواهر التى تستوقف النظر وتحتاج الى علاج ، كظاهرة نفسية وفكرية ..

البديل عن هذا وذاك هو التقييم الموضوعى ، والحساب الدقيق والفهم : ساعتها لا نقع فى مخدر الاستهانة ولا فى وهم الاسطورة المخيفة .

ثالثا — العلاقات العربية العامة . والحديث عن المرحلة التى تفصل بين حربى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، من زاوية العلاقات بين البلاد العربية ، وبين الاحزاب العربية ، وبين القوى والتيارات السياسية والعقائدية العربية ، حديث يطول . وهى فترة سوف تحظى باهتمام عدد كبير من المحللين والمؤرخين . ولا مجال هنا لبحثها .

ولكن يمكن القول من جهة ، ان هذه المرحلة التى وصل فيها الصراع بين القوى والنظم والتيارات العربية أحيانا الى درجة تشبه الحروب الأهلية ، كانت الى حد ما مفروضة علينا بحكم المرحلة .

فالبلاد العربية كلها خارجة من ليل استعمارى طويل ، وعلى كاهلها تركة تخلف ثقيلة ، ثم انها دول متفاوتة فى درجات نموها الاجتماعى والثقافى والحضارى ، وتعدد المستعمرين فيها شتت نظرتها ومزق عوامل الوحدة فيها . واختلاف المشاكل الاجتماعية من قطر الى قطر ، وبالتالى اختلاف النظرة والحلول الممكنة ،

اصطدم فى نفس الوقت برغبة عارمة فى التوحيد والتجميع تحت صور وأشكال شتى .

يضاف الى ذلك أن كل ثورات القرون الماضية هجمت علينا دفعة واحدة فالثورة الاجتماعية والثورة العلمية والتكنولوجية وثورة السلع الاستهلاكية والآمال الفردية ، كلها تدق الأبواب وتتزاحم على الدخول فى نفس الوقت .

وأخيرا فقد وقع هذا كله فى عالم تسوده الحرب الباردة وصراعات القوى والتنازع على مناطق النفوذ .

جزء كبير من مظاهر هذه المرحلة كان مفروضا علينا . كانت مرحلة مخاض اليم لأمة لها هذا الاتساع وهذا التنوع فى الظروف. مع الرغبة العارمة فى التوحد .

وسيبقى سؤال مستمر ، هل كان ممكنا فى خضم هذا كله رسم استراتيجية موحدة ازاء اسرائيل ام لا . ولكن المؤكد هو أن اسرائيل ، كانت ترى فى هذه الظروف سببا أدعى لكى تسرع فى مراحل « الحرب فالضم فالتوقف فالضم » ، قبل أن تتغير الصورة العربية كما لابد سوف تتغير ذات يوم .

على أن الشيء الذى لا يمكن أن يغفر ابدا ، اذا أمكن أن نفهم هذه الظروف كلها وما ساقت اليه من صراعات هو أن تكون اسرائيل والقضية الفلسطينية ورقة للمزايدة : أو للايقاع ببعضنا البعض .

ولكن هذا ما حدث . لم يكن هناك فقط الشقاق الذى دام ربع قرن فى صور شتى « الوحدة أولا ثم اسرائيل أم العكس » و « التقدم العربى أولا ثم اسرائيل أو العكس » ... الى آخر

هذه الموضوعات التى ظلت محل مناظرات مستمرة ... ولكن كان الأسوأ من ذلك أن تكون اسرائيل مجرد بند فى كل وثيقة اتهام من حكم الى حكم ومن حزب الى حزب وأن تكون ورقة فى يد كل انقلاب يجيء بعد انقلاب ... أو موضوعا لمناورة من دولة ضد دولة لاثبات أيهما أكثر وفاء للقضية الفلسطينية .

لقد أدى هذا الوضع المحموم الى خلق ضباب كامل فى الذهن العربى يحجب اى أسلوب لمعالجة القضية . وكما أنه أتاح الفرصة لكى يتنصل المتنصلون ، ويزايد المناقصون فانه قد أربك حتى المخلصين فى اتخاذ قراراتهم .

رابعا — ان انعكاس هذا على الأوضاع الداخلية لكل قطر عربى فى حد ذاته أمر معروف وشائع .

واذا نظرنا فقط الى زاوية واحدة من زوايا هذه الانعكاسات، زاوية بناء الجيوش كقوات محاربة ، فسوف نجد المقارنة فاحشة.

فقد أدت الانقلابات العسكرية المتوالية وانصراف عدد من قادة الجيوش من العسكرية المحرفية الى القيام بادوار سياسية ، والى شغل هذه الجيوش عن مهمتها الاساسية . كما انها أدت الى تسريحات متوالية فى العناصر العسكرية ، التى انفقت بلادها عليها الملايين من الأموال والسنوات الطويلة من الوقت لكى تكتسب الكفاءة والخبرة والممارسة اللازمة .

هذا بينما نجد أن اسرائيل ، بالمقابل ، رغم تشابك المؤسسة العسكرية بجهاز الدولة فىصورة خاصة بها ، الا أن «الاستمرارية» المطلوبة فى الجهاز العسكرى كانت متوفرة الى أقصى حد . فمعظم قادة الجيش الاسرائيلى ووحداته فى المستويات العليا والمتوسطة هم أنفسهم الذين حاربوا جنودا فى فرق الهاجاناه قبلقيامالدولة،

ثم فى الجيش الانجليزى أثناء الحرب العالمية الثانية ، ثم فى حروبه ٤٨ و ٦٧ ، ١٩٧٣ . ونظـــام الاحتياطى هنـــاك مرتب بطريقة تسترجع الى صفوف الجيش ساعة القتال كلّ قياداته حتى التى تركته الى الحياة المدنية ، ولانها تجعلهم حتى وهم فى الاحتياطى لهم مناصب ساعة القتال ولهم شهور تدريبية كل ســـنة ، ولهم دراية بالخطط الموضوعة وبتطويرها المستمر بناء على المعطيات الجديدة أو الأسلحة الحديثة .. وخطة للحرب عمرها ١٦ سنة ، وتطويرها باستمرار لم يكن ممكنا بغير هذا الاستمرار .

هذا بينما كان الضباط العرب المسرحون بالآلاف ، والمئات منهم على مقاهى بيروت وأوروبا ..

كذلك فان اعتماد عنصر « الامن الداخلى » والصداقات وابناء الدفعة الواحدة » وغير ذلك من العلاقات المتخلفة فى مجتمع آخذ فى التطور ، لم يكن دائما يعطى المنصب للكفاءة وحدها . الأمر الذى تكون له عادة انعكاسات خطيرة ليس على كفاءة القوات المسلحة وحدها ، ولكن على روحها المعنوية بوجه عام .

خامسا — ولعلى أبقيت هذا العنصر حتى النهاية ، رغم أنه كان يستحق أن يكون فى البداية لاهميته .

هذا العنصر هو : عدم وجود تصور عربى مدروس أو متكامل او حتى شـــبه متكامل لاستراتيجية عامـــة فى مواجهة المشكلة الفلسطينية ، وبالتالى فى مواجهة اسرائيل ..

ان الحرب — كما قال الخبراء مرات كثيرة — هى استمرار للسياسة ولكن بوسائل أخرى .

أى أنه لاتوجد حرب مجردة . لا توجد حرب للحرب . ولكن الحرب الناجحة تنطلق دائما من اطار استراتيجية سياسية عليا، تجد أن انجاز هدف لها فى مرحلة معينة ، أو افساد هدف للعدو ، لا وسيلة له سوى الحرب . وبعد ذلك : كل حرب لابد أن تنتهى، عند هدفها المحدد أو أكثر أو أقل ، لكن المهم ، مع الحرب ، أن يكون جاهزا فى ذهن القيادة السياسية العليا : ماذا بعد الحرب ؟.

اسرائيل لديها استراتيجية سياسية عليا بما فيها سلاح الحرب، .. كما ذكرنا من قبل . هدفها الأعلى هو التوسع . والتوسع بانتهاز الفرصة ، وتهيئة الظروف ، ثم شن ضربة سريعة تضم بها أرضا جديدة . وهذا يقتضى منها استعدادا عسكريا دائما أولا لتكون جاهزة لانتهاز الفرصة الهجومية اذا سنحت فى أقصر وقت. وثانيا أن تكون جاهزة اذا تعرضت هى للهجوم بالرد السريع ونقل القتال فورا الى أرض العدو ، نظرا لأرضها المحدودة ..

فماذا كان هدف السياسة العربية الاستراتيجية ازاء اسرائيل فى ربع القرن المـــاضى ؟

● لو كان الهـــدف ازالة اسرائيل حقـــا ، لوجدنا ترتيبـــات واعدادات وأولويات سياسية وعسكرية غير ما رأينا .

● ولو كان الهدف ردع اسرائيل عن العدوان فقط ، حتى تتحول الصورة الدولية ، وتقوى الصورة العربية ، فقد كان هذا يستلزم اجراءات سياسية وعسكرية من نوع آخر ...

● ولو كان الهدف فى حالة الحرب انتهـــاز الفرصـــة والحاق هزيمة محدودة باسرائيل هى كل ما تســـمح به ظروف علاقات القوى المحلية والعالمية:كتدمير الجيش الاسرائيلى والحاق خسائر فادحة به فحسب ، أو كدفع حدود اسرائيل الى خطوط تقسيم

سنة ١٩٤٨ ، مع كل انعكاسات هذا أو ذاك على كيان اسرائيل وفلسفتها ، وعقيدة تفوقها ، وتوسعها ، وتدفق المهاجرين عليها، الى آخره : لو كان هذا هو الهدف ، لكان يستلزم سياسة عسكرية وسياسية من نوع ثالث ..

ولكن يمكن القول باطمئنان ، انه على المستوى العربى فى عمومه ، لم تكن هناك اى استراتيجية محددة متفق عليها من هذا النوع .

وبالتالى لم يكن هناك اى تصور لكيفية تطوير قضية الشعب الفلسطينى ، بوصفها حجر الأساس فى اى استراتيجية من هذا النـــــوع ...

وكل العوامل السلبية التى ذكرناها سابقا من الموقف العربى العام بين سنتى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، ادت الى الفقدان التام لمثل هذه الاستراتيجية الموحدة ولو فى خطوطها العريضة ..

ولقد كنت اتساءل ، ساعة أن تنادى العرب بارسال قواتهم على عجل الى الجبهات المختلفة . حين اصبح القتال وشيكا : ترى هل لدى هذه القــوات المختلفة تعليمات واضحة تنبع من استراتيجية عليـــا ؟

اذا انتصرت .... ماذا ستنوى فعله بهذا النصر ، وكيف تتصرف به ؟

لا اظن أنه كان هناك شىء من ذلك . لقـــد تحـــرك العرب ساعة الخطر بغريزة درء الخطر وبكوامن الوحدة فيهم ، ولكن ليس بالخطة المسبقة والحساب .

هكذا سيرت جيوشنا الى ساحة القتال سنة ١٩٦٧ ..

● ليس هناك ادراك كامل بابعاد رد الفعل الاسرائيلى ، فمن بعد أن تأكد أن الحرب واقعة ، ظلت معظم تقديرات الأجهزة العربية تعتقد ان اسرائيل ستشن حربا بقصد فتح خليج العقبة : اما بالاستيلاء على المضايق وعدم الانسحاب الا بعد ضمان فتحها، واما الاستيلاء على قطاع غزة ثم المساومة على الانسحاب منه بفتح المضايق وربما بالاعتراف أو بأى كسب سياسى آخر .

● ليس هناك استعداد عسكرى كاف بخطط سياسية عسكرية منوعة على جبهة من الجبهات .

● مشاعر متناقضة من التخوف والتحسب فى جهات ، الى الظن بانها نزهة عسكرية فى جهات أخرى .

● صياح من كل مكان ، ومطالبات شتى ، الكثير منها ينطلق من دوافع واعتبارات لا صلة بينها وبين قضية فلسطين كنواة ، أو قضية المواجهة العربية الاسرائيلية كاطار شامل .

وكان الذى ظلم هو الضـــابط المصرى والجنـــدى المصرى ـ والضابط العربى والجندى العربى .

فالحروب اليوم ، ومنذ قرون ، ليست حروب قبائل ، سلاحها الأول هو الشجاعة والبطولة والتضحية . ولكنها حرب معقدة سلاحها التنظيم ، والاعداد الطويل ، على الساحتين السياسية والعسكرية معا .

ولقد يقول قائل : ولكن هذه كلهـــا ظروف تسبق الاشـــتباك القتالى ذاته ، والذى يفترض فيه ان القوات المسلحة ، مهما كانت الظروف التى ساقتها الى القتال تظـــل قادرة على خوض معركة قتالية أقل مايقال فيها انها تختلف عن الانهيار الشامل الذى حدث فى يونية ١٩٦٧ .

وهو قول فى محله ..

ولكن مجموع الظروف السابقة ، والتى تحسم فى الحقيقة نتيجة المعركة قبل بدايتها ادت الى الأحداث التى باتت معروفة ، ولم تعد سرا على أحـــد ...

● فالسرعة التى تمت بها تعبئـــة القوات فى سيناء ، لخوض معركة مصيرية ، ادت الى وضـــع القوات المســلحة فى أدنى استعدادها وليس فى اعلاه ، كما يفترض . كانت نسبة الاحتياطى غير المدرب عالية جدا ، للرغبة فى التاثير على العدو .. « بحجم القوات » فى حين انه لم يكن ممكنا خداع العدو بهذا الأسلوب .

● وكانت خطط الدفاع المرسومة من قبل سنوات قد أهملت تماما ، اقتناعا من القيادة انها معركة سياسية وليست عسكرية، وبالتالى فالطابع الاستعراضى و « اظهار ما لدينا » غلب على طابع الحرب الحقيقى الذى يلزمه التربص ، والتخفى ، والخداع.

● والقوات النظامية كانت موزعة بين اليمن ومصر ، وكان بعضها يصل بالسفن بعد رحلة بطول البحر الأحمر ويتجه فورا الى مواقع له فى سيناء .

● والبلبلة فى تقارير المعــلومات عن احتشـــادات العـــدو ، والتقدير الســـياسى أنها على الأغلب ســـتكون حربا محدودة ، جعل هذه الحشود من القوات تصدر لها أوامر متوالية ومتناقضة، بالتركيز على الجنوب حيث سينزل الاسرائيليون فى شرم الشيخ، أو ـــ بالاتجاه شمالا حيث سيهاجمون قطاع غزة . الامر الذى أرهق القوات المدرعة بالذات واستنفذ طاقة عجلاتها التى لهـــا أميال معينة لا يجوز أن تقطعها قبل القتال ، وطاقة الوقود الذى

تسير به ، واربك الامدادات فى كل شىء من الذخيرة الى الطعام لهثا وراء قوات تتحرك باستمرار وأحيانا غير معروف مكانها .

● ثم الغلطتان التاريخيتان اللتان لا يكاد المرء يجد تفسيرا لهما :

الأولى — منع التصدى لأى طائرة فى الجو فى صباح يوم ٥ يونيو بالذات ، لان قائد عام القوات المسلحة ومعظم أفراد قيادته كانوا ذاهبين الى مطار متقدم فى سيناء ، وكانت تلك الساعة هى التى وصلت فيها الموجات الأولى من الطيران الاسرائيلى الى معظم المطارات المصرية ودمرتها ..

والثانية — صدور أمر الانسحاب بعد أقل من ٢٤ ساعة من بدء القتال . وقد صدر امر الانسحاب شاملا لكافة القوات بأن تعود الى غرب القناة وصدر رأسا الى القوات فى مواقعها ، دون حتى ابلاغ قيادات الميدان المسئولة . الأمر الذى يكفى لبعث الفوضى واليأس والاضطراب فى صفوف أحسن الجيوش وهى فى غبار المعركة فى غيبة عن معرفة الصورة كاملة .

وليس أدل على جو عدم الاستعداد للقتال فى السنوات السابقة ، وعدم أخذ نوايا اسرائيل العدوانية التوسعية مأخذ الجد ، مما أعلن رسميا بعد ذلك ، من أنه لم يكن لدينا يوم القتال اكثر من ١٢٥ طيارا مستعدا للقتال فورا ، فى الوقت الذى كان معروفا فيه تركيز اسرائيل الشديد على سلاح الطيران ، وبعد تجربة دور الطيران الحاسم فى حرب ١٩٥٦ ، وما هومعروف من قدرة اسرائيل على حشد عدد من الطيارين أكثر ما لديها من طائرات ، مما يضاعف عدد الطائرات الموجودة فى سماء المعركة .

● ولانه لم يكن المعيار الوحيد فى اختيار القيادات هو الخبرة العسكرية والكفاءة — والاحتراف العسكرى ، وتوهم أن الأمر مظاهرة سياسية أو نزهة عسكرية ، تولى بعض القيادات فى آخر لحظة عدد من الضباط الذين تنحصر صفاتهم فى أنهم «من المقربين» ، ربما انتظارا لساعة توزيع الأوسمة والنياشين ..

ولكن هذا كله لم يمنع الضباط والجنود — كلمـا أتيحت لهم الفرصة من التعليمات الثابتة والقيادة السليمة والعتاد والذخيرة، من أن يقاتلوا قتالا باسـلا ، ولم يمنع من أن يخترق لواء مدرع حدود اسرائيل ذاتها ثم يعود طبقا لأمر الانسحاب غير المفهـوم الذى صدر اليه ، ولم يمنع أن قادة الوية ووحدات وكتائب فضلوا الاستشهاد فى مواقعهم تأمينا لانسحاب جنودهم .

ولعله قد آن الأوان ، وقد فات ما فات ، أن ينشر سجل هذه الأعمال البطولية ، وتسجل أسماء أبطالها ، فليس أهم لاى قوات مسلحة من تراث تفخر به من الأسماء التى ضحت والمواقف التى يجب أن تظل نموذجا ومثالا لمن يجيئون بعدها ..

عناصر الأسطورة

كان الانسان دائما عبر تاريخه يخاف المجهول . المجهول الذى لا تفسير له . وبالتالى ينسج حوله الأساطير ..

كان الانسان الأول مثلا يخاف الزلازل والبراكين والأمطار . ويعبد الشمس . ذلك انه لم يكن يعرف تفسير هذه الظواهر ، فحولها الى مظاهر من غضب الآلهة أو رضا الأرباب .

وقد حاولت اسرائيل أن تجعل من نفسها أسطورة معاصرة . بهذا يحبها الناس أو يكرهونها ولكنهم فى كل الحالات يخافونها . يظنون أنها دولة خارقة بين الدول . ومجتمع لا سـابق له بين المجتمعات وانها فى نهاية الأمر لا تقهر .

وكانت هذه من ناحيتهـا خطة نفسية مقصـودة ، فتكون من ناحية محل اعجاب وتأييد تلقائى ومطلق من مجتمعات كثيرة فى العالم ، بوصفها الدولة الحلم ، الدولة المعجزة . ولتـكون من ناحية أخرى شـيئا مخيفا بالنسبة لأعدائهـا ، انها كيان لايغفو ولا يقهر ، ولا يمكن اللحاق به .

ولم يكن هذا الاختيار غريبا على شعب اختار لنفسه أن يقوم كيانه وتبنى عقيدته على أساس أسطورة أخرى قديمة وهى أنه « شعب الله المختار » .

وقد ساعد الكثيرون منا على تجسيد هذه الصور الأسطورية

سواء بالاحتماء وراء الجهل باسرائيل ، والجهل هو أكبر مولد للأساطير ، أو بعدم التدقيق فيما تقدم اسرائيل من أعمال أو معلومات ، أوبالفرار الى الغيبيات فىتفسير هزائمنا وانتصاراتها، فرارا من مشقة البحث العلمى للموضوع ، الذى اذا عرف سبب هطول المطر توقف عن الخوف منه ، وبحث فى وسيلة لاتقائه ومواجهته او لاستخدامه .

ولذلك ، فنحن حين نحاول أن نحلل عناصر الأسطورة ، نحاول شيئا آخر تماما غير مجرد الحاق كل النقائص والعيوب بالخصم. لان هذا أيضا ضد التأمل العلمى والموضوعي . ولأن الاستهانة المطلقة بالخصم والتى شاعت على أقلام والسنة كثيرة ، كانت سببا ، عندما فوجئنا بصدمة ١٩٦٧ الهائلة ، فى تغذية هذه الأسطورة ورد ما حدث لأسباب غيبية ، اذ بدا انتصار دولة صغيرة صورناها على انها ممزقة مهلهلة ضعيفة شيئا يعلو على التفسير ، شيئا كأنه من ظواهر الطبيعة التى لم يكشف العلم عن أسرارها بعد .

دحض عناصر الأسطورة اذن ليس معركة اعلامية هدفها الاستهانة بالعدو ، ولكن معناه استخدام سلاح الفهم والتحليل فى فهم عناصر هذه الأسطورة . ساعتها يزول عنها السحر ، ونعرف الوهم من الحقيقة ، ونستطيع أن نتعامل مع هذه الحقيقة ونجد الاسلوب لمواجهتها ، مهما بلغ من جبروتها ..

انها مثل ذلك الساتر الرملى الذى أقامته إسرائيل على حافة قناة السويس مباشرة وحاولت أن تقول انه حاجز لايمكن اختراقه، ولغز لايمكن تفسيره . ولكن الذى حدث أن العسكرية المصرية، بأجهزتها الفنية والعلمية عكفت علىالتحليل والتجربة والتفكير ،

حتى وجدت الحل لاختراقه : الحـــل الذى بدا بالنسبة لاسرائيل لغزا غريبا ..

اننا لا يجب أن نقلل من شأن العدو . بمعنى أننا لايجب أن نستهين بالعناصر الديناميكية التى تحركه ، وتدفعه الى العمل ، وبذل الجهد ، والتماسك المطلق ســـاعة الخطر ، والاستماتة فى الدفاع عن البقاء ..

فمنذ يولد الطفل فى اسرائيل ، ومنذ يبدأ فى الذهاب الى المدرسة ، وفى قراءة كتب الأطفال ، يوضع فى طقس نفسى معين حتى يخرج فى القالب الذى أرادته له قيادته ...

انه منذ الطفولة يربى — دينيا — على أسطورة أنه شعب الله المختـــار ، وأن الله قد ميزهم عن ســـائر الشعوب فى الصفات والمواهب وفى الحقـــوق ، وفى مقدمتهـــا حقهم فى الأراضى التى يسمونها أرض اسرائيل التاريخية ، والتى لو ترك لهم العنـــان لضموا اليها كل أرض سارت فوقها قبيلة عبرانية فى المنطقة منذ ألفى سنة الى الآن ..

ويربى هذا الطفل على انه صاحب رسالة فذة ، ولذلك فهو كشعب كان محل اضـــطهاد دائم من كل الدول والشعوب عبر القرون ، وأن هناك نبوءة دينية تاريخية ببعثهم ، وعودتهم الى السيطرة من جديد .

ويربى الطفل على أن اليهودى له طقوس وعادات ، ولايعترف بيهوديته الا من كانت أمه يهودية ، ضمانا لنقاء الدم وبالتالى فهم « قبيلة واحدة » وسلالة واحدة سواء كانوا فى جبـــال اليمن أو سهول أوكرانيا .

ولأنه من شعب مختـــار ، كتب عليه أن يكون قليـــل العدد ، محسودا فى أحسن الأحوال ومضطهدا فى أســـوئها من الآخرين ، فكل الآخرين ، كل الآخرين ، بالنسبة له أغراب . وعليه بالتالى أن يسعى للتفوق دائما على الآخرين : أن يكون الأغنى أو الأدهى أو الأذكى أو الأقوى .

ثم انهم يعززون هذا كله بالانجـــاز الفذ الذى حققته الحركة الصهيونية . فمن شتات فى أنحـــاء العالم ، ومن خـــلال ظروف دولية شتى ، ومن خلال نضال دام سبعين عاما ، تحول الحلم الذى كان اسطورة وهو قيام دولة لاسرائيل فى أرض الميعاد الى حقيقة ، فلماذا اذن لاتصح سائر الأساطير ، ولمـــاذا لايضعون زعماءهم فى تلك الحقبة فى مصاف أنبياء العهد القديم .

الا يعنى هذا ، فى لغة ما ، ان ثمة ما يشبه القوة المنظورة، والقدر الذى لاراد له ، يساعدهم فى مشروعهم ، بالاضافة الى كل ما يبذلون من جهود؟ أو يعنى ، فى لغة أخرى ، ان حركة التاريخ فى اتجاه حركتهم ، وان الفكرة الصهيونية صحيحة فى اطار منطق التاريخ الراهن ولذلك فهى تتحقق ؟ أو فى القليل انهم فعلا لديهم كفاءات ليست لغيرهم وقدرات ومواهب اعلى من سواهم ؟ ..

وفوق هذا الأساس ، تنبنى كل تفاصيل الأسطورة ، وتمتد فروعها . حتى تصبح غابة كثيفة من الأساطير ؟ ..

على أننا ونحن لسنا بصدد تحليل الحركة الصهيونية أو دولة اسرائيل ، لابد لنا من أن نقف ولو بسرعة عند الوجوه الثلاثة المعاصرة للأسطورة ، الوجه السياسى ، والوجه التعميرى ، والوجه العســـكرى . وذلك فى ايجاز شديد يقف عند مجرد ذكر « جذور » القضية ، دون التطرق الى فروعها ..

● بالنسبة للوجه السياسى فان جوهر النجاح الاسرائيلى كان فى أن الحركة الصهيونية وجدت منذ البداية أن هناك عالما عربيا مختفا فى أواخر الظلام العثمانى الذى ســاد قرونا طويلة وأن أوروبا القوية النامية الاستعمارية فىمرحلة امتدادها الاستعمارى، هى التى ستكون الوارثة الحقيقية لهــذه الامبراطورية العثمانية العجوز ..

وفى نفس الوقت كانت مشكلة اضطهاد اليهود فى أوروبا قد ألقى عليهاالضوء اكثر واكثر لسببين ، الأول تزايد هذا الاضطهاد فى شرق أوروبا ، والثانى انتشار حركة التنوير فى غرب أوروبا وانحسار عهد التفرقة والتعصب الدينى بالتدريج ..

وكان أمام اليهود اما حــل الاندماج فى مجتمعاتهم واما حل الهجرة وتأسيس كيان خاص بهم يصبح مع الزمن دولة ..

ونلاحظ أنهم حتى الآن ما زالوا موزعين بين الحلين ، أو بالأحرى يحاولون الجمع بين الحلين : فالأغلبيةمن اليهود اختارت البقاء فى الخارج والاستفادة من مزايا مجتمعاتها ، ولكنها فىنفس الوقت تشجع قيام دولة لها فى مكان ما تكون سندا لليهود كيثما كانوا ..

ولكن المهم أن الحركة الصهيونية ، التى نشأت فى رحم أوروبا، مستفيدة من التقدم الأوروبى ، قدمت حل الوطن القومى لأوروبا وهو حل مريح لها ، ورسمت سياستها من البداية على التمسك بذيل الدولة الاستعمارية القوية التى ستكون لها السيطرة على تلك المنــاطق المتأخرة ، أى على أن تركب قطــار هــذه الدول الاستعمارية فى رحلتها الى حيث تريد .

هكذا ، لم تكن الحركة الصــهيونية من البداية وحدها ضــد

العرب ، ولكنها كانت مع أوروبا وانجلترا بالذات ضد العرب ، ثم مع أمريكا ضد العرب .

وكان طبيعا أن يكون العالم القوى الاستعمارى معها ضد العرب ، وهى أولا تعرض خدماتها عليه ، وتقنعه بأنها ستكون القلعة التى تؤمن مصالحه فى المنطقة ، فى حين كان العرب وقتها أشبه بقبائل وعائلات تابعة لامبراطورية متآكلة ، وأبناء تراث بدا وكأنه يندثر ، ومع ذلك فان يقظتهم معناها قيام وجود قوى منافس للقوى الأخرى وقادر على الإستقلال عنها ، فى حين أن اسرائيل مهما نمت فستظل غير قادرة على هذا الاستقلال الخطر على الدول الاستعمارية الكبرى .

صحيح أن الحركة الصهيونية ناضلت فى فلسطين منذ سبعين سنة ، وانها أقامت المستعمرات وعمدت الى سياسة خلق الحقائق الانتاجية والسكانية الجديدة ، ولكن هذا كان بقرارات صدرت فى لندن وباريس وواشنطن ونيويورك . لقد قام وايزمان وبن جوريون بأدوارهم ولكن الذين أقاموا الدولة هم لويد جورج وتشرشل وروتشيلد وترومان وغيرهم .

ليس فى الأمر اذن أسطورة . ولكن فيه معنى المرحلة التاريخية التى كانت فيها الغلبة مطلقة للدول الاستعمارية ضد العالم العربى . .

وحين أخذ العالم العربى يستقل بالتدريج ، ويقوى بالتدريج ، وأخذت العلاقات الاستعمارية تنسحب فى العالم بوجه عام ، بدأ العرب يجدون لأول مرة أصدقاء لهم فى العالم وحلفاء .

فالمرحلة التاريخية التى كان فيها قدر المنطقة يرسم كله فى عواصم أخرى ، تلك المرحلة التى أقامت اسرائيل ، قد انتهت وبدأت مرحلة

تمرد ، صار فيهـا دور الغرب في رسم مستقبلهم يزداد تدريجيا بالنسبة الى دور هذه القوى الخارجية . وبالتالى لابد أن يكون لهذا انعكاسه في مستقبل المواجهة العربية الاسرائيلية .

● وبالنسبة للوجــه الخاص بالتعمير والبناء والتنمية واقامة الدولة . . .

لقد خلقت اسرائيل فى هذا المجال أسطورة أخرى . فكأنهمنوع آخر من البشر يلمس التراب فيتحول الى تبر . والكتب والأفلام والمقالات والدراسات الاسرائيلية لا آخر لهــا عن الأرض الخراب التى تحولتالى مدن .والمستنقعات الملوءة بالأوبئة التى تحولت الى مزارع خضراء . ومعدلات النمو الهائلة . والتكنولوجيا التى وصلت الى صناعة الأسلحة والطائرات والألكترونيات المعقدة .

لاشك أن اسرائيل قد حققت نتائج ضخمة فى مجالات التقــدم كلها . ولكن العناصر المساعدة التى مكنتها من ذلك لم تتوفر لأى قطر آخر على الأرض . . .

وهى لم تبدأ من حيث بدأت الدول النامية ، كمــا تحاول أن تزعم حين تجعل نفسها مثلا فذا لم تحققه أى دولة نامية .

انها لمترث تركة ضخمة منالأمية والتخلف ، لأنها قد استوردت شعبا بكامله من المناطق المتقدمة نسبيا من العالم .

ثم انها لم تغتصب أرضا خرابا ولكنها اغتصبت أغنى منــاطق فلسطين الزراعية المشهورة بزيتونها وحمضياتها وسائر زراعاتها، ومع ذلك فهى بعد سبعين ســنة من الاستيطان ، وربع قرن من قيام الدولة ، ما زال أهم بند فى صادراتها هو الحمضيات وسائر المواد الزراعية .

واذا كانت التنمية وقودها رأس المـــال ، فقـــد تدفقت على اسرائيل من الخارج أموال لم يتدفق مثلها قط على أى بلد فى مرحلة البناء والتنمية : آلاف ملايين الدولارات من اليهودية العالمية . آلاف الملايين الأخرى من التعويضات الألمانية ، آلاف ملايين من المساعدات الأمريكية وغير الأمريكية فى صور شتى مباشرة وغير مباشرة . فحظ الفرد الاسرائيلى من المال الآتى من الخارج لايقل عن عشرة أمثال حظ أى فرد فى أى بلد فى مرحلة التنمية .

ولم يكن لدى العرب ، قبل البترول ، وفى الســـنوات الأخيرة بالذات ما يمكن أن يكون «مالا » وعملات صعبة توازى مـا يتـــدفق على اسرائيل بأى معيار خصوصا اذا أخذنا فى الحساب عـــدد السكان العرب المحتاجين الى عمل ، وتعليم ، وخدمات ، ومرافق، وغـــيرها .

لاتقاس معجزة التقدم الزراعى الاسرائيلى ازاء المال والآلات والخبرات المتدفقة عليه بمعجزة الفلاح الفلسطينى الذى طرد من الأراضى الزراعية الخصبة فى فلسطين ســـنة ١٩٤٨ الى المناطق الرملية والصخرية،فدفعته حاجة الحياة الى أن يستصلحها بأظافره ويحولها الى مزارع زيتون وبيارات برتقال وحدائق فاكهة جديدة.

وكما نجحت اسرائيل سياســـيا فى أن تمســـك بذراع الدول الأقوى سياسيا ، فكذلك فعلت منذ نشأتها فى المجال العلمى . وساعدها على ذلك الى حد كبير وجود الخبرات اليهودية من ذوى الولاء المزدوج فى كل مجالات التخصص العلمى المتقدم فى الخارج.

وعندما نراجع الأبحاث العلمية المشتركة التى تجريها أمريكا بأموالها وخبراتها فى العالم الخارجى ، خصوصا فى المجالات ذات الصلة بالجانب العسكرى ، نجد أن اسرائيل تأتى بعد انجلترا

مباشرة فى عدد المشروعات العلمية الأمريكية التى تجرى بالاشتراك مع دول أجنبية .

ومن يراجع ميزانية اسرائيل ، وعجز ميزانها التجارى ،ونسبة ديونها ، يكاد لايجد لها مثيلا بالنسبة لأى دولة أخرى فى العالم : ذلك أن الاعتماد الأكبر حتى الآن ما زال على المال الخارجى والتبرعات الأجنبية يهودية وغير يهودية . وذلك بعد أكثر من ربع قرن من قيام الدولة .

بل ان اسرائيل قبيل حرب ١٩٦٧ كانت على أبواب كارثة اقتصادية بكل ابعادها ، من بطالة وهبوط فى معدل التنمية وعجز وديون وهبوط فى الهجرة اليها وتصاعد فى الهجرة منها ، لسبب رئيسى هو ان عشر سنوات من السكوت قللت من الحماس الخارجى لها ، ومن نزعة الخوف على مصيرها المهدد ، وحين تقابل ذلك بمعدل نموها بعد الحرب ، نجد الى أى حد هى تستفيد من الحرب واستمرار التوتر ، ونفهم معنى كلمة بن جوريون أن اسرائيل محتاجة الى خمسين سنة من التوتر حتى تتمكن من البقاء . . .

● اما عن الأسطورة العسكرية ، فقد كانت اخطر هذه الأساطير جميعا ، واكثرها فاعلية فى تدمير النفس العربية فى بعض الظروف واشد أسلحة الحرب الاسرائيلية النفسية فتكا . . .

وفى البداية يجب أن نسجل أن التفوق العسكرى ليس معناه بالضرورة التفوق الشامل فى كل شىء ، وان كان أثره كبيرا ،لأن الصدام العسكرى بطبيعته دراما انسانية كبرى تستنفد كل مواهب الأمة وطاقاتها وتجعلها تجتاز أقسى امتحاناتها ، وتتقرر فيها أمور الحياة وأعدت ، البقاء والفناء وما تحدثه الحرب فى أيام تتأثر به سائر العناصر من سياسة واقتصاد واجتماع لعشرات السنين . .

ولكن يحدث أحيانا أن تبدو المقابلة بين مجتمعين فى غير حجمها الطبيعى ، خلال فترة معينة لأسباب خاصة ..

فحين يركز مجتمـــع اكبر قدر من قواه واستعداداته وموارده وتنظيم حياته لحرب معينة يفاجىء بها مجتمعا آخر لم يرتب نفسه على نفس النمط فان المجتمع الأول يتمكن من احراز نصر عسكرى باهـــر ..

فعلت هذا المانيا الهتلرية مثلا . فمنذ تولى هتلر السلطة وقرار المانيا الحقيقى هو الحرب ضد الأعداء الأوروبيين . وبالتالى دارت كل عجلة فى المانيا فى هذا الاتجاه : نظام الدولة السياسى ، طرق مواصلاتها ، نوع صناعاتها ، مجالات البحث العلمى فيها ، تدريب الأفراد وتهيئتهم ، التعبئة النفسية والفكرية والتعليم فى المدارس ...كله كان يصب فى نهر واحد هو الحرب . هذا فى الوقت الذى كانت فيه سائر دول أوروبا مشغولة بخطر الحرب ربما ، ولكن انشغال من يظن أن هذا الخطر قد يأتى وقد لايأتى ، وبالتالى كان انشغالها اكبر ممارسة شتى وجوه حياتها ، بأولويات مختلفـــة تماما ..

ونتيجة لهذه المقابلة تمكنت المانيا من سحق كل خصومها من الدول الكبرى فى سنوات قليلة .

ولكن هذا لم يكن يعكس كل علاقات القوى الكامنة فى المعسكرين انعكاسا حقيقيا فى حجمه الحقيقى .

فالقـــوى الصـــناعية والبشرية والعلمية والجغـــرافية وغيرها الكامنة لدى الحلفاء ، كانت أكبر بكثير . ولكنهـــا لم تكن كلهـــا موجهة فى اتجاه واحد ، كقبضة اليد حين يضمها صاحبها ويوجه بها ضربة ، مستخرجا أقصى قوته .

ولذلك حين افاق الحلفاء من الصدمة ، وتمكنوا من استيعابها ثم بدأوا يستخدمون كل قواهم الكامنة ، لم يكن صعبا التنبؤ بالنتيجة وهى هزيمة المغامرة الألمانية .

اذن : فالعنصر العسكرى فى لحظة معينة أحيانا يكون ترجمة صحيحة لمجموع عوامل القوة والبقاء فى مجتمعين متقابلين ، فساعتها تكون لهذا النصر آثاره الباقية .. وأحيانا يكون ترجمة للحظة معينة ، لاتعبر عن حقيقة علاقة القوى فى مجملها بين الطرفين فلا تكون ترجمة صحيحة ويصبح من الممكن تغيير كافة الميزان التى اختلت .

وقد وجهت اسرائيل كل ضرباتها العسكرية للعرب فى مثل هذه الظروف :

مجتمع حرب بكل معانى الكلمة وأدقها بأى مقياس لأى مجتمع فى التاريخ ، يعاجل خصمه — وهو مجتمع غير مستجمع نفسه للحرب — بضربة يسبقها أعداد وإحكام وترتيب وتصميم ..

وقد كان هذا ممكنا لسببين (وهنا نسترجع بعض ما ذكرناه من قبل) أحدهما كل مشاكل النمو ومخاض التقدم والخروج من التخلف الذى مازال العرب خارجين منه ، وهو وقت يغرى اسرائيل بالاسراع فى توجيه ضرباتها ، كما تفاجىء النائم الذى يستيقظ ، وهو ما زال بين اليقظة والمنام ، فتنال منه مالا يمكن أن تناله حين يستكمل يقظته .

وثانيهما أن العرب رغم قناعتهم اللفظية ، لم يدركوا فى قرارة نفوسهم تماما أن جوهر السياسة الاسرائيلية لابد أن يكون قائما على أساس « حرب كل جيل ، أو كل فرصة » حتى تتم لها حدودها

التى تريدها ، وكيانها الذى تطمح اليه ، وحتى تتبدد مخاوفها التى تؤرقها من لحظة « تمام اليقظة العربية » التى تشعر انها آتية ذات يوم .

هكذا قال جنرالات اسرائيل انفسهم ان حرب ١٩٤٨ بدأ الاعداد لها من سنة١٩٣٦ .. وأن حرب ١٩٥٦ بدأت منذ زمن وبالتواطؤ مع فرنسا وانجلترا .. وان حرب ١٩٦٧ خطتها موضوعة قبل ١٦ سنة ولم تكن حرب ١٩٥٦ الا بروفة لها ..

وقد تحدثنا فى الفصل السابق عن بعض ما كان يستنفد طاقة العرب فى تلك السنوات ..

واذا كانت النكتة التى تقال عن اسرائيل انها ليست دولة لها جيش ولكنها جيش له دولة فالنكتة صحيحة بمعنى معين هو المعنى الكامل لمجتمع الحرب . او بالأصح **مجتمع الحرب المستمرة**.

لا تقام مستعمرة فى اسرائيل ، ولا يتقرر اختيار منطقة لاقامة قرية او مدينة ، ولا يشق طريق مواصلات ، ولا ينشأ مصنع الا ويخضع هذا لذلك التعبير ذا المحتوى العسكرى « اعتبارات الأمن » ولا ترسم خطة تنمية صناعية مثلا الا وعينها على الصناعات ذات المردود العام بالنسبة للحاجات العسكرية ايضا.

ونفس الشىء يقال عن نظام التعليم والعمالة والمنظمات والمؤسسات ، ولم يعد سرا ارتباط هذا كله بنظام فذ لاستدعاء الاحتياطى ، الأمر الذى يضع ١٠٪ من مجموع السكان تحت السلاح خلال ٤٨ ساعة .

ويرتبط بالقوات المسلحة فى اطار الهجوم او الردع او الأمن جهاز المخابرات ، الذى لعب دورا اساسيا فى حياة اسرائيل :

فكلما أن ضباطها بدأوا جنودا فى جيوش انجلترا منذ أواخر الحرب العالمية الأولى ثم الحـــرب العالمية الثانية ، فان أجهزة مخابراتها قد تربت فى أحضان أعرق أجهزة المخابرات فى العالم . ولضيق مساحة اسرائيل ، كانت تعتبران جواسيسها هم « أهم أجهزة الانذار المبكر » لديها ، أى الذين يحيطونها علما بالتحركات العربية قبل أجهزة الرادار والأقمار الصناعية وطائرات التجسس. واستفادت اسرائيل من تعدد الجنسيات التى ينتمى اليها اليهود الموالون لها من عرب وأوروبيين وأمريكيين وروس ..فاستطاعت أن تخترق مالا يمكن أن تخترقه غيرها من أجهزة المخابرات العادية، واسست عـــلاقات خاصة بينهـــا وبين كل جهـــاز مخابـــرات لديه ما يريد أن يعرفه عن العالم العربى . ونجاحات كبرى مثل جاسوسها « لوتز » الذى اشتغل بتوريد السلاح زمنـــا بالجيش المصرى . ومنير روفا الذى هرب من العـــراق بطائرة ميج قبيل حرب ١٩٦٧ وأيليا كوهين الذى وصل الى مركز ثقـــة رفيع فى سوريا وباعها كل أسرار تحصينات الجولان ... من الأمثلة التى تخطر مباشرة على البال ..

هذا المجتمع ، مجتمع الحرب المستمرة ، هو الذى أحرز انتصار ١٩٦٧ فى مواجهة مجتمع ليس مجتمع حرب كما سبق أن ذكرنا.

ولكن الدعاية الاسرائيلية التى تمثل سلاحا من أخطر أسلحتهم، حاولت أن تصور حجم هزيمة ١٩٦٧ بأنها الحجم الحقيقى للمسافة بين الاسرائيليين والعرب . وان تكرس من هذه اللحظة صـــورة لوضع دائم أو مستمر الى أجيال كثيرة على الأقل ...

صار كل جنرال اسرائيلى أسطورة عسكرية لم يسبق لهـــا مثيل . وكل جندى اسرائيلى بطل . وكل مواطن اسرائيلى جيمس بوند .. فالاسرائيلى هو « السوبرمان الجديد » فى كل مكان ..

والعربى هو الساذج المتخلف العاجز عن اللحاق بالعصر أو عن فهم تعقيداته .

وظهرت الكتب والأفلام والمقالات والروايات فى هـذا المجال بالمئات ، ونجحت هذه الحملة الهائلة فى اقناع أوسع القطاعات فى الراى العام العالمى بحقيقة الأسطورة التى لا تقهر ، وتسربت من هذا السم جرعات كثيرة الى النفسية العربية ذاتها ، وكانت هى المستهدفة بالذات .

وقد ساعدهم على ذلك نوع من أدب النكسـة التى ظهر فى بلادنا ، وبأقلام منـا ، فكما اظهرت النكسة أدب التحليل والفهم والدراسـة والمقاومة ، اظهرت ادب النكسـة المشرب بسموم الدعاية الاسرائيلية .

كان خط دفاع اسرائيل الذى اقامته امام خـط بارليف ، هو هذا الحاجز النفسى ، قبل الحاجز الترابى ، الذى صـار يوهم العرب بأن مقـارعتهم الاسرائيليين فى اى مجـال مسـتحيل فى السياسة او الاقتصاد ومن باب أولى وبالدرجة الأولى فى الحرب .

كان خط امنهم الأول ، أن ينمو شعور الهزيمة فى النفس العربية حتى يصبح حاجزا منيعا بينهم وبين محاولة خدش الأسطورة ..

ولم يخطر على بالهم أن هذه الأسطورة سوف تتحول بالنسبة لهم الى خمر تسكرهم ، وانهم حين يصدقونها هم أنفسهم سوف يصبحون يوما ما من ضحاياها ..

حرب الاستنزاف

أو الجولة الطويلة قبل العبور

تم لاسرائيل تدمير القوات المسلحة المصرية فى سيناء على نحو لم يكن يخطر على بالها ولا يطوف بأحلام قادتها . ولم تر اسرائيل فيما حدث شيئا غير طبيعى ، بل انها ، سكرى بخمر الأسطورة التى سجلت أكبر منجزاتها ، اعتقدت أن مهمتهـا ازاء مصر قد انتهت ...

لقـد دمرت كل الطيران المصرى تقريبـا وأكثر من ٨٥٪ من السلاح المصرى وتبعثرت القوات من الناحية البشرية تماما . وهاهو مجرى القناة الضيق لايوجد مايفصلها عن سائر مصر سواه. وها هى العاصمة الكبرى بملايينها الست لاتوجد مائة دبابة يمكن أن تقف فى الطريق اليها .

وكان طبيعيا أن تتوقع اسرائيل الاستسلام . حتى انهـا لم تفعل مايفعله غالبا المنتصرون من أن يرسلوا او يعلنوا شروطهم، بل قال موشى ديان انه — فقط — جالس بجوار تليفونه فى انتظار أول مكالمة من أول عاصمة عربية ...

اى ان المهزومون عليهم أيضا أن يطرقوا هم الباب سائلين عن شروط المنتصر .

وقد أخذتهم المفاجأة ساعة أعلن عبد الناصر استقالته الشهيرة، فهبت جماهير الأمة العربية فى القاهرة وكل عواصم العالم العربى

خارجة فى جوف الليل ترفض الهزيمة وتستنكر الاستسلام وتطلب الصمود والمقاومة .

وقال المتحدث الاسرائيلى انها ظاهرة عربية أخرى غير مفهومة ..

ولكنهم فهموها على أى حال على انهـا احـدى الانفجارات العربية العاطفية العابرة ، وانها الرقصة الأخيرة لطير مذبوح من الالم ، لا بد أن يفيق من بعدها الى واقعة الذى لاحل له ..

ولعلهم لم يدركوا أن هذا الرفض الشعبى الشامل كان نابعا من أعماق بعيدة فى وجدان الجماهير ، الا بعد أسبوعين تقريبا من وقف اطلاق النار ...

ففى اثناء اجتياح القوات الاسرائيلية لسيناء كلها ، لم يتجهوا لسبب أو لآخر عن اهمال أو عن احساس فى أغلب الظن بأن الأمر فى متناول يدهم اى وقت — لم يتجهوا شمالا فى الشريط الضيق الموازى لقناة السويس والمؤدى الى بور فؤاد ، النصـف المتمم لبور سعيد ، شرقى القناة ..

وكان طبيعيا ان يرسلوا طابورا مدرعا لأخذ هذا الجزء المتبقى غرب القناة فى نزهة تستغرق عدة ساعات ...

ولكنهم ، وكان ذلك يوم أول يوليو ١٩٦٧ ، فوجئوا بالطابور المدرع تنطلق عليه قذائف مدفعيـة مصرية من الضـفة الغربية وتشتبك معه فتمنع تقدمه .. ثم وجدوا أمامهم مباشرة على نفس اللسان الضيق فى الضفة الشرقية قوة من الصاعقة تسد الطريق بأسلحتها الخفيفة وأيضا بأجسادها وتصميمها الذى كان أكثر مما فى أيديها من سلاح ..

وأرسلوا الى طابورهم تعزيزات ، ولكن الساعات مضت وقد تحول « الاشتباك » الى معركة حقيقية . ولعلهم عندما وصلت خسائرهم الى ثلاث دبابات بأطقمها وست سيارات نصف جنزير وعربات زخيرة وقتلى وجرحى ، لم يكونوا يعرفون أن القوة التى تواجههم على اللسان لا تزيد على ثلاثين رجلا ، وأن المدفعية التى تضربهم من غرب القناة لم تكن لديهـا ذخيرة كثيرة ، أو أن بعض متطوعى المقاومة الشعبية اشتركوا فى القتـال المفاجىء . . . فانسحبوا ..

ثم جرب الاسرائيليون تجربة أخرى أمام عدو يرونه مطروحا على الأرض ، فحاولوا انزال قوارب آلية فى قناة السويس ، حتى ينقلوا خط وقف اطلاق النار الى منتصف مجرى القناة ، فتصدت لها المدفعية المصرية وأغرقتها .. فحاول الاسرائيليون مرة ثانية مستخدمين مدفعيتهم هذه المرة مع طيرانهم فى قصف مدن القناة. ولكن المدفعيـة المصرية مرة أخرى تمسكت بموقفها ، وأغرقت ثلاث لنشات بل ونزلت قواتنا الى المـاء فأسرت لنشير آخرين وأسرت أثنين من جنود العدو ..

وكأن الظروف شاءت — وقرار مجلس الأمن الشهير ٢٤٢ فى نوفمبر ٦٧ لم يصدر بعد ، والمناقشـات محتدمة فى مبنى الأمم المتحدة — لعل الظروف شاءت ان تثبت كل الأسلحة وجودها .

فقد جاء يوم ١٤ يوليو ١٩٦٧ ، وهو يوم عيد القوات الجوية ، ولما يمر على وقف اطلاق النار شهر .. وقررت القوات الجوية — أو ما تبقى منها ، أن تتعرض للخطر ، لكى تثبت جدية الوقفة .. فقامت باعدادها القليلة ، وبطائرات ميج ١٧ بهجمات انتحارية على مراكز تجمع دبابات العدو وسياراته المصـفحة فى سيناء وتصدت لها طائرات الميراج الاسرائيلية وخاضت معها معركة جوية.

لكأن طيارينا بالقليل القليل الذى لديهم ارادوا فى عيدهم أن يسقطوا قنابلهم على أرض سيناء مشيرين بذلك الى رمز كبير : أن هذه أرض مصرية . وان مصر ليس فى نيتها وهى فى أشد حالات تجردها من السلاح أن تتخلى عنها ...

ثم جاء حادث المدمرة ايلات لكى تسمع قواتنا البحرية صوتها للعـــالم .

اذا كانت المدمرة ايلات احدى مدمرتين يزهو بهما السلاح البحرى الاسرائيلى ، وكانت — مرة أخرى تحت الاحساس بعدم وجود السلاح المقابل — تحاول أن تحك ألوف المصريين بالاقتراب والتجول فى المياه الاقليمية خارج مناطق احتلالها لسيناء .. ومياه بورسعيد بالذات ..

وفى مساء ٢١ أكتوبر ١٩٦٧ رسمت زوارق الطوربيد المصرية خطتها وتصدت للمدمرة بصواريخ بحـــر — بحـــر ، لم تلبث أن اغرقتها ومعها عشرات من الضباط والجنود الاسرائيليين ، ظلت طائرات الهليكوبتر تبحث عنهم طول الليل ونهار اليوم التالى ، وكانت هذه أول مرة فى تاريخ الحروب تصاب فيها مدمرة بهذا النوع من السلاح اصابة قاتلة ...

وفى غمرة جنونهم من هذا التطاول من الطرف المهزوم ، حشدوا مدفعيتهم تصب نيرانها على المرافق الصناعية الواقعة على حافة القناة وخصوصا مصـــفاة البترول فى السويس ، وعلى الأهالى المدنيين فى مدن القناة .

ولست أنسى هذا المشهد الذى رأيته بعينى بين الاسماعيلية والسويس .. وكنا قد توقعنا بعـــد اغراق ايلات عملا انتقاميا اسرائيليا من حجمه . وفى الطريق من القاهرة مررنا بمقر القيادة

المصرية وكانت مشغولة باصدار الأوامر باخلاء ميناء السويس من السفن والناقلات متوقعين أن يكون الرد الاسرائيلى هناك ..

وهذا ما حدث بالفعل . فقبل الفجر انهمرت قنابل الغيظ « والعقاب » على السويس ..

ولعل الاسرائيليون فى ذلك الوقت ادخلوا هذا كله فى بند محاولات يائسة لأثبات الوجود خلال المناورات والضغوط السياسية والدولية العنيفة قبل صدور قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ . ولكن شيئا آخر أدهشهم ، رغم أنه لم يكن ينطوى على قتال ، ولكن دلالته كانت بالغة الأهمية .

لقد صدر قرار باخلاء منطقة القناة من سكانها ...

قرار اليم . باهظ التكاليف . ولكن معناه كان واضحا لوم .

اولا : أن وجود الاهالى مكدسين فى المدن بالذات كان يقلل حرية قواتنا فى الاشتباك ، اذ كان الرد الاسرائيلى يستسهل ضرب المدنيين . وثانيا أن هذا معناه أننا قررنا أن لا نبقى أهالينا رهائن فى ايديهم تحت رحمة مدفعيتهم واننا قد حولنا هذه المنطقة العزيزة الى ساحة قتال وأن أمتنا وقواتنا قد فقدت أسلحتها ولكنها لم تفقد روحها وأعصابها .

وفى اغلب الظن أن اسرائيل بعد هذه الشهور القليلة من الهزيمة، ومصر بالذات ثم سائر البلاد العربية ، تمر باحرج أوقات حياتها ، قد بدأت تدرك لأول مرة جدية الشعار الذى طرح فى مصر تحت عنوان : مرحلة الصمود ....

فرغم صدور قرار مجلس الأمن ٢٤٢ الا أن كل دارس يعرف ان القرارات الدولية هى قصاصات ورق لا تنفذ طالما شعر أحد الجانبين بقدرته على عـــدم تنفيذه وكان من مصلحته تجاهـــله ، كما أنه لا يفسر ــ كأى نص على الورق ــ الا طبقا للتفسير الذى تعكسه علاقات القوة الحقيقية على الطبيعة .

كانت مرحلة الصمود غايتها كسب فترة من الهدوء على الجبهة وكانت الأحداث التى سبقت تثبت أنه ليس الصمود الخانع ، ولكنه كان هدوءا مطلوبا لثلاثة أسباب :

أولا ــ التقاط الأنفاس والخروج نفسيا ومعنويا بالأمة العربية كلها من ذهول الهزيمة ، من صـــورة اللحظة القريبة التى أراد العدو أن يجعلها صـــورة ثابتة للعـــلاقة العربية الاسرائيلية ، والرجوع تدريجيا الى صورة أكثر قربا من الطبيعة .

ثانيا ــ بناء خط دفاع مصرى قوى جديد فتكون البداية أن تصل العدو رسالة ، فحواها « لا خطوة الى الوراء » قبل أن يمكن الحديث جديا عن التحرك الى الأمام ، وبالتالى تتم حماية كافة الجسور العربية من الانهيار تحت وطأة الضـــغوط الســـياسية والمادية والمعنوية .

ثالثا ــ اعادة بناء القوات المسلحة ...

وهذه الجملة ذات الكلمات الأربع ليست بمثل هذه البساطة فى ترجمتها العملية ..

كان هناك جسر جوى وبحرى ضخم ممتد من الاتحاد السوفيتى يحاول تعويض السلاح الذى فقدناه بأسرع ما يمكن ، وكان السلاح ينزل فى الموانى والمطارات المصرية ويتخذ طريقه رأسا الى أيدى

الجنود فى خطوط القتال الجديدة(١) ولكن لم يكن هذا كل شىء ..

أن الجيش ليس مجموعة من الرجال وكميات من السـلاح فحسب ...

وقد سمعت الجنرال بوفر قائد الجيش الفرنسى فى حملة السويس يقول بحق فى تلخيص دقيق للقضية « فرق بين أن يكون لديك طائرات وطيارين وبين أن يكون لديك **سلاح طيران** .. وفرق أن يكون لديك دبابات وبين أن يكون لديك **سلاح مدرعات** » ..

لم تكن القضية اذن فى « اعادة بناء القوات المسلحة » حشد اكبر عدد من الرجال والمعدات . فليست هذه هى الحرب الحديثة، وقد كان هذا هو الدرس الأكبر من يونيو ١٩٦٧ .

ولكن القضية كانت اعادة بناء القوات المسلحة «بمفهوم جديد» للقوات المسلحة : بدءا من الروح المعنوية العامة وانتهاء بالتدريب، وكفاءة الجنود والضباط وتلاحمهم، ونوعيتهم، وتسلسل القيادات، والدراية بالمهمات القتالية المحددة بكافة ظروفها المحتملة ، أى خلق « أداة حرب عصرية » بكل ما تحمله هذه الكلمة من محتوى ، معقد بدرجة تعقيد أسلحة الحرب الحديثة وأحجام الجيوش الكبيرة وتكامل الأسلحة المختلفة ، ووسائل الاتصال والتشويش الدقيقة.

ولم يكن هذا كله يجرى على مهل أو فى حالة سلام،انما كان يجب

---

(١) يوم أول يوليو قال الجنرال حاييم هيرتزوج المعلق العسكرى الاسرائيلى وأول حاكم عسكرى للضفة الغربية تعليقا على تسليح الجيش المصرى ان الصواريخ السوفيتية الجديدة « مجرد وسيلة أخرى لنقل المتفجرات من مكان الى آخر وتسييرها أمتد على المصريين من استخدام الدبابات والطائرات وان هدف ارسال الاسلحة ليس أكثر من استخدامها فى الاستعراض العسكرى القادم يوم ٢٣ يوليو » .

أن يتم بسرعة وتحت سمع العدو وبصره واحتمالات مباغتاته . ومن خلال الاشتباكات التى لا مفر منها ، وبعد كل شيء : تحت سمع العالم كله وبصره ، العالم الذى ملأته الشكوك حول جوهرنا ومعدننا الحقيقى وقدرتنا على استيعاب درس الحياة الحديثة القاسى ، وأجهزته السياسية ــ العسكرية ــ الاقتصادية المعقدة ...

كان علينا أن نتحمل من الداخل تمزقاتنا النفسية القاسية ، ومن الخارج نظرات الاشفاق وكلمات الشك أو العزاء .. وقواتنا تخوض حربا صامتة لكى تسترد هيبتها ووجودها وسمعتها لدى الصديق والعدو على السواء ...

●

يمكن القول أن هذه المرحلة التى تميزت بالدفاع المحض وتقوية عود خط الدفاع المصرى كأول حاجز فى وجه الارادة الاسرائيلية التى كانت ترى فى الفراغ العسكرى فرصة لاملاء شروطها .. يمكن القول أن هذه المرحلة التى اصطلح على تسميتها « بمرحلة الصمود » قد انتهت فى أغسطس ١٩٦٨ ، اذ نجد أنه مع سبتمبر ١٩٦٨ بدأت مرحلة جديدة اصطلح على تسميتها باسم « مرحلة الردع » .

انها مرحلة من الدفاع النشيط أو الدفاع الايجابى . ومعناه التصدى لأى عدوان أو تحرش اسرائيلى بمثله أو بأكثر من مثله ، اثباتا لارادة التحدى ولزعزعة العدو فى محاولاته للاستقرار شرق القناة . اثباتا لارادة التحدى التى استطاعت أن تظهر نفسها بعد اكتساب درجة القوة والاستعداد اللازمة لها .

وتميزت هذه المرحلة بمعارك المدافع الكبيرة ، اذ كانت المدفعية

المصرية أحيانا تقصف مواقع العدو على طوال الجبهة ، تدمر مراكز تجمعاته وتشتت قواته . وكان طبيعيا أن تتحمل قواتنا عبء رد العدو عليها بنيران مدفعيته ودباباته وصواريخه وسلاحه الجوى الذى كانت ما تزال له سيطرة كاملة على الجو ....

كان على قواتنا أن تواجه هذا القتال الأكثر عنفا وتقدما ، فى نفس الوقت ، لكى لا ننسى ، الذى كان عليهـا فيه أن تتـدرب وتستوعب الأسلحة الجديدة ، وتزيد من بناء قوتها العسكرية ..

.. وأن تبدأ تجارب « عبور » على نطاق محدود ..

ففى ٢٧ أغسطس ١٩٦٨ صدر أول بيان اسرائيلى يشير الى عبور مقاتلين مصريين لقناة السويس ودخولهم سيناء :

« تل ابيب فى ٢٧ أغسطس — أعلن متحدث عسكرى إسرائيلى فى تل ابيب اليوم أن اثنين من الجنود الاسرائيليين قتلا واختطف ثالث فى كمين نصـب لسيارة عسكرية على الضـفة التى تحتلها اسرائيل لقناة السويس فى الليلة الماضية . ولم يحدد ما اذا كان الكمين يتألف من جنود مصريين نظاميين أو من رجال المقاومة . وقال أن سيارة الجيب مرت فوق لغمين زرعا فى طريق غير مرصوف تجاه الاسماعيلية وأضـاف المتحـدث أنه عندما انفجر اللغمان تعرضت سيارة الجيب لوابل من الرصاص من رجال منبطحين على جانبى الطريق .

«ومضى المتحدث العسكرى يقو ل ان جنديين قتلا وفقد ثالث ويبدو أنه سحب نحو الضفة الغربية للقناة .

« وقالت مصادر عسكرية أن هناك ادلة على أن فريق الكمين قد عبر القناة فى قوارب » .

« وقالت الوكالة الفرنسية من تل ابيب أن الجنرال موشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلى اجتمع اليوم بالجنرال أدوبول كبير المراقبين الدوليين وأبلغه الخطورة التى تعلقها اسرائيل على الحادث .

« وقد اجتمع ديان بالجنرال أدوبول ، ثم خرج من الاجتماع يقول أن زد مصر غير مرضى . وأن عدم اعترافها بالحادث غير مقنع . وأضاف أنه سيقدم تقريره الى مجلس الوزراء عن هذه « الغارة الجريئة » وقال ان اسرائيل تستخلص لنفسها النتائج بعد أن رفضت مصر أية مسئولية عن الحادث . وصرحت مصادر عسكرية اسرائيلية بأنها « تتوقع حدوث اى شىء فى أى وقت وأن نقطة الغليان قد زادت فجأة عند منطقة قناة السويس »(١) .

وفى يوم الأحد ٢٨ أكتوبر ١٩٦٨ صدرت الصحف العربية تحمل انباء هجوم شامل بالمدفعية على طول الجبهة .

قالت جريدة الأهرام :

« وجهت قواتنا المسلحة أمس ضربة قاصمة الى العدو دمرت فيها قواعد الصواريخ التى حشدها فى مواجهة مدينتى السويس والاسماعيلية . وكان العدو قد أخذ فى حشد هذه القواعد وتجميعها منذ معركة المدافع فى شهر سبتمبر الماضى حتى تكون المدينتان تحت رحمته . وقد بدأت المعركة بعد أن وجه العدو فى الساعة الرابعة وخمسين دقيقة قذائفه الى بورتوفيق فدمر بعض المنازل » .

---

(١) الاهرام ٢٨ أغسطس ١٩٦٨

وصدرت عن القيادة العامة للقوات المسلحة البلاغات التالية :

البيان رقم ١

قام العدو فى الساعة ٤ر٥٠ دقيقة بعد ظهر اليوم بتدمير عدة منازل فى مدينة بورتوفيق وقد استخدم العدو فى عدوانه اللاانسانى الصواريخ من الأرض للأرض من عيار ٢١٦ ملليمتر ، والتى أعدها من قبل فى مواجهة مدن القناة لهدم المنازل وقتل المواطنين الابرياء وعلى أثر ذلك كلفت التشكيلات الميدانية المتركزة فى منطقة القناة بالتعامل مع العدو الاسرائيلى وتدمير صواريخه .

البيان رقم ٢

فى تمام الساعة ٤ر٥٠ قامت جميع أسلحة الرمى الخفيفة والثقيلة من تشكيلاتنا الميدانية فى منطقة القناة بقصف مركز ونيران تدميريه ضد صواريخ العدو وعلى قواته المسلحة بقصد اسكاتها وتدميرها . ويحاول العدو الآن مواصلة اطلاق النيران ولكن نيران مدفعيتنا أعجزته عن اتمام ذلك ولا تزال الاشتباكات مستمرة .

البيان رقم ٣

فور قيام العدو باطلاق نيران الصواريخ على مدينة بور توفيق قامت قواتنا المسلحة بقصف تدميرى على جميع مواقع صواريخ العدو على طول الجبهة ثم تم تراشق فردى من بعض أسلحة ردا على نيراننا . وقد أوقفت النيران من الجانبين فى الساعة السادسة مساء اليوم .

البيان رقم ٤

خسائر العدو : تدمير ١٩ دبابة و ١٤ عربة مدرعة نصف جنزير

و ١٠ مواقع صواريخ و٢٨ دشمة مدفع ماكينة و١٦ نقطة ملاحظة أرضية و ٣ مراكز قيادة و ٦ مخازن وقود وذخيرة و ٣ مدافع عيار ١٠٦ ملليمترات ، كما تم اسكات الوحدات التالية :

٣ مواقع بطارية مدفعية متوسطة و ٧ مواقع بطارية ١٠٥ ملليمترات وموقعى مدفعية مضادة الطائرات وموقعى مدفعية هاون. كما تم احراق عدد ٦ مناطق شئون ادارية شوهدت والنيران مشتعلة فيها وتمت رؤية هذه الحرائق لسكان مدينتى السويس والاسماعيلية .

وقد كانت خسائر أفراد العدو عددا كبيرا من القتلى والجرحى واستخدم العدو عددا كبيرا من طائرات الهيلوكوبتر فى اخلاء هذه الخسائر من المواقع الخلفية له .

وكانت الحقيقة تنطوى على أكثر مما اكتفت البلاغات العسكرية بالاشارة اليــه ...

فقد قالت وكالة الاسوشيتدبريس من تل أبيب فى اليوم التالى ما نصه « ان قتالا دار فى داخل سيناء بين القوات المصرية مع القوات الاسرائيلية عند ما كان تبادل اطلاق نيران المدفعية عبر القناة فى ذروته » .

وقال يوسف تيكواه ممثل اسرائيل الدائم فى الأمم المتحدة فى خطاب الى رئيس مجلس الأمن « ان قوة مصرية عبرت قنــاة السويس الى سيناء حيث اشتبكت مع القوات الاسرائيلية قرب ممر ميتلا ، كما أن قوة مصرية أخرى حاولت عبور القناة » .

وكان لهذا التصعيد آثاره فى التهاب الشعور واحياء الأمل فى الأراضى المحتلة فقد قالت وكالات الانباء فى نفس اليوم من تل ابيب

« أعادت السلطات الاسرائيلية حظر التجول الشامل فى كل من الضفة الغربية وغزة بعد اندلاع المظاهرات فيهما من جديد كأعنف ما تكون ، فى أعقاب رفع حظر التجول اليوم لمدة قصيرة جدا ، وقالت وكالة الانباء الفرنسية أن معارك القناة الهبت الموقف فى كل الأراضى المحتلة » .

« وقد سارت اليوم الجماهير الغفيرة فى مسيرات كبيرة تأييد للمقاومة الفلسطينية وهى تهتف باسم مصر . وسارعت القوات الاسرائيلية الى اطلاق الرصاص فى بعض المدن وخاصة مدينة رام الله التى حاول آلاف من سكانها التجمع فى الميدان الرئيسى . وقد استهدف حظر التجول الكامل اليوم تفادى المظاهرات من ناحية ومحاولة وقف الهجمات المسلحة لرجال المقاومة من ناحية أخرى . فقد انزل رجال المقاومة خسائر كبيرة فى الاشتباكات التى جرت فى الأربعة وعشرين ساعة الأخيرة ، كما نسفوا خطا لسكة الحديد عند رفح . وأعلن متحدث عسكرى اسرائيلى عن قتل جنديين اسرائيليين ، وأصابة آخرين بجراح أثناء اشتباك وقع بين مجموعة من رجال المقاومة وقوة اسرائيلية على بعد كيلو متر من شمالى مستعمرة « دان » قرب خطوط لبنان .

وفى يوم الجمعة ٣١ أكتوبر قامت الطائرات الاسرائيلية بالتسلل الى العمق المصرى فى محاولة لضرب ثلاث أهداف مدنية : قناطر نجع حمادى والجسر الذى يوصل معبد دندره ، ومحطة المحولات الكهربائية التى تقع قرب المنطقة .

ومع عنف الردع المصرى وتصاعد خسائر الاسرائيليين انتهى أملهم فى أن تكون الجبهة التى أمامهم جبهة ساكنة مستسلمة وانتهى أملهم فى أن تكون الحرب قد انتهت ، لذلك عمدوا الى خطوتين جديدتين :

الخطوة الأولى . هى تحصين أنفسهم على الضفة الغربية ، ازاء قوة النيران المصرية المتزايدة ، ومن هنا ولدت فكرة بناء ما اصطلح بعد ذلك على تسميته بخط بارليف الأول : سلسلة تحصينات على طول خط المواجهة .

والخطوة الثانية ، القيام بعمليات جوية فى العمق المصرى ، أشهرها محاولتهم نسف خزان نجع حمادى ، اذ تسللت طائراتهم مرة وألقت قنابل من التى تسبح مع تيار النهر حتى تصطدم بالخزان وتنسفه ولكن المحاولة فشلت . وكان ملفتا يومها أن الطيارين الذين قاموا بالمهمة أبلغوا عن نجاحها دون التأكد من ذلك ،فأصدرت اسرائيل بيانات رسمية تعلن فيها غرق مساحات تبلغ مئات الآلاف من الافدنة فى الصعيد نتيجة لنسف الخزان ، ثم اضطرت اسرائيل الى سحب هذه البلاغات فى اليوم التالى وتبرير ذلك بخطأ فنى . ولكن هذا كان كاشفا عن هدفهم الحقيقى من الهجوم .

وكانت هذ المعارك بالمدفعية ، ولجوء الاسرائيليين الى تحصين مواقعهم بحيث تحمى جنودهم من القنابل ثم الى هذه الأعمال فى العمق المصرى ايذانا ببدء مرحلة جديدة ، كانت أخطر مراحل المواجهة بين يونيو ٦٧ وأكتوبر ٧٣ تلك المرحلة التى سميت : حرب الاستنزاف ..

●

.. ولو أن هذا الكتاب ليس موضوعه سائر جوانب الصراع العربى الاسرائيلى ، وبالتالى ليس موضوعه المقاومة الفلسطينية المسلحة الا أنه لا يمكن المرور على هذه المرحلة دون ذكر المقاومة الفلسطينية .

فكما أن أول ردود الفعــل الايجابية بعد الهزيمة كان رفض الجماهير العربية لها ، واتاحة الفرصة للجيش المصري والسوري بالذات فى اعادة البناء والاستعداد للمواجهة ، فقد كان رد الفعل الآخر البارز هو مولد المقاومة الفلسطينية المسلحة ، أو بالأحرى مولد الشخصية الفلسطينية .

فمنذ ١٩٤٨ كانت هذه الشخصية تائهة ، معرضة للانقراض..

وقبل الحرب بسنوات برزت فكرة منظمة التحرير كاطار للبدء فى استرجاع هذه الهوية ، ولكن هوية شعب ما وكيانه لا يولدا بقرارات ولو من كل الملوك والرؤساء العرب ، وارادته لا توجد بتعيين ممثلين لهذه الارادة .

وقد ولدت بذور المقاومة قبـــل الحرب . ولكن الهزيمة جعلت الجماهير الفلسطينية تعود الى نفسها ، وتحمل سلاحها وتبرز قياداتها ..

وكانت معركة الكرامة التى صمدت فيها المقاومة الفلسطينية ـــ مواجهة ـــ لهجوم اسرائيلى شامل عليها فى الأردن ، رغم الثمن الفادح الذى تحملته من خسائر فى الأروح ، كانت فوق كونها نصرا عسكريا ، نصرا ســـياسيا كبيرا .. اذ انها وضـــعت المقاومة الفلسطينية على الصفحات الأولى فى صحف العالم بأكمله ، وأنها دفعت افواجا من الفلسطينيين .. من الفلاح المعدم الى الشاب الذى ترك دراسته الجامعية ليحمل السلاح : وفى الشهور الاليمة لصمت المدافع العربية كانت اسلحة المقاومة البسيطة هى العزاء لكل عربى ، هى الخبر الذى يقرأه كل صباح ليشعره أن هذه الامة تنبض وأن الرفض العربى للغزو الاسرائيلى له شكل ايجابى غير الخطب والمذكرات .

وقد مرت المقاومة بطريق طويل محفوف بالمكاره . وتوالت البطولات والأخطار على حد سواء ، وتعرضت للتصفية الشاملة فى مذابح ايلول . ولكن حتى نكساتها العسكرية ، كانت انتصارات سياسية لها .. لأن هذا الثمن الفادح من الدم هو الذى وصل الى اقناع العالم بأن هناك شعب هو الشعب الفلسطينى وأن هذا الشعب له الحق فى تقرير مصيره كأى شعب آخر فى المنطقة أو فى العالم كله ...

ولم يكن نشاطا لمقاومة مقطوع الصلة بالقتال على الجبهات بين الجيوش النظامية ...

كان بدوره استنزافا لاسرائيل ..

وكانت العلاقة واضحة بين الجبهات النظامية والمقاومة : فحين كانت الجبهة المصرية مثلا تنشط كان أزر المقاومة يشتد ، فى الخارج والداخل ...

فقد قاومت غزة مقاومة بطولية كلفت اسرائيل الكثير ...

وقاومت الضفة الغربية ، خصوصا حين كان القتال يشتعل ضد الجيش الاسرائيلى فى جبهة القناة ...

ففى خلال مرحلة الردع كنا نجد مثل هذا النموذج من الأصوات فى الداخل .

القدس ١٩ اغسطس ٦٨ .

« عاشت مدينة القدس ليلة من الفوضى والاضطراب والذعر بعد الانفجارات المتوالية التى هزت المدينة لساعات بدأت من التاسعة مساء وامتدت الى ما بعد منتصف الليل .

وقالت الاسوشييتدبريس أن سلسلة من الانفجارات أحكم

تدبيرها فى ليلة القنابل أحدثت حالة من الفوضى لم تشهدها القدس طوال عشرين سنة ، سقط فيها الكثيرون جرحى عدد غير قليل منهم فى حالة خطيرة ، وأدت الى حدوث أعمال تخريب على نطاق واسع فى القدس العربية ، حيث قام مئات من الاسرائيليين بغزو قلب المدينة .

« وقد وضعت هذه القنابل فى مواقع متفرقة وحدات خاصة من قوات المقاومة العربية ردا على العدوان الاسرائيلى الجوى على المدنيين فى مدينة السلط منذ اسبوعين . وكانت قوات العاصفة — وهى الجناح العسكرى لمنظمة فتح قد أصــدرت بيانا عقب هذا العدوان أعلنت فيه انها ظلت حتى ذلك الوقت تقصر هجماتها ضد العدو على المواقع والأهداف العسكرية ولكن المنظمة بعد ضرب الطيران الاسرائيلى للمدنيين فى السلط بقنابل النابالم الحارقة وبعد ذلك العدوان الاستفزازى أصبحت فى حل من الانتقام من المدنيين فى اسرائيل » .

« وقد وقع الانفجار الأول فى الساعة التاسعة وعشر دقائق فى محطة اتوبيس مزدحمة عند تقاطع شارعى الملك جورج واللنبى (شارع يافا القديم) ، وقد سقط فى هذا الانفجار ما لا يقل عن عشرة أشخاص نقل ثلاثة منهم الى المستشفى فى حالة خطرة . وبعد ذلك بعشرين دقيقة اكتشفت قنبلتان عند سينما « رون » أحداهما فى مدخل السينما حيث يزدحم الناس حول شباك التذاكر والثانية على بعد ٣٠٠ متر فى دورة مياه بحديقة عامة . وعلى مدى اكثر من ساعتين بعد ذلك توالت انفجارات اخرى فى محطة بنزين بالقرب من محطة السكة الحديد وفى محطة اتوبيس بشارع رئيسى . وبينما الانفجارات تهز المدينة أذاعت وزارة الداخلية بيانا دعت فيه السكان الى ابقاء النوافذ مفتــوحة تخفيفا لنتائج

الانفجارات . وفى نفس الوقت سارعت قوات ضخمة من البوليس والجيش الى الشوارع حيث قامت بأوسع حملة اعتقالات بين السكان العرب وقالت الأنباء أن عدد المعتقلين يصل الى أكثر من ٦٠ عربيا . بينما قامت قوات أخرى باغلاق البوابات السبعة الكبرى بين القدس العربية والاسرائيلية لمنع أى عربى من العودة الى المدينة القديمة . ووقفت قوات البوليس المختصة بمقاومة المظاهرات عند مداخل المدينة العربية وقد لبسوا الخوذات وتسلحوا بالهراوات .

« وفى تلك الاثناء تدفق مئات من الشباب الاسرائيلى على شوارع المدينة العربية ، وساروا فى جماعات مسلحة بالعصى والهراوات وقطع الأحجار وأخذوا يدمرون ويحرقون كل ما هو عربى .. وقدر البوليس عدد السيارات العربية التى تحطمت بأكثر من ٥٠ سيارة احترق بعضها ، غير عشرات المتاجر التى تحطمت واجهاتها وسلبت بضائعها .

« وقامت جماعات أخرى بضرب العرب فى الشوارع . وقد سقط عدد كبير من العرب جرحى ..

« وقال المسئولون الاسرائيليون أن الانفجارات التى هزت المناطق الاسرائيلية من مدينة القدس ليلة أمس وضعت خطتها فى القسم العربى من المدينة وأن الفدائيين العرب الذين تحميهم السيدات فى القدس العربية هم المسئولون عن هذه الانفجارات . وأضاف المسئولون الاسرائيليون أن هناك أدلة متزايدة على أن السيدات العربيات يقدمن الحماية والمأوى لعدد غير قليل من رجال المقاومة » .

كانت حرب الاستنزاف تكاد تكون مرحلة قائمة بذاتها ، بدأت فى مارس ١٩٦٩ وانتهت بوقف اطلاق النار الذى كان جزءا من مشروع روجرز ٧ أغسطس ١٩٧٠ ..

صحيح انها كانت متصلة بمـــا سبقها من مرحلتى الصمود ثم الردع ، ولكن درجة التصعيد وصلت بها الى درجة من الفرق الكمى والكيفى عما سبقها بالنسبة للجانبيين : كانت ذروة المواجهة بينهما بين يونيو ١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٧٣ ..

كانت هذه الحرب مظهرا يدل على أن القوات المسلحة المصرية قد وصلت الى درجة من الثقة بنفسها تجعلها تشعر أنها قادرة أولا على الدفاع عن نفسها وعن الوطن . وثانيا على الحاق ضربات أكبر واوسع مدى بالعدو ، وثالثا على احتمال واستيعاب الضربات التى لا بد أن يوجهها العدو ضدها ...

ويمكن القول ان الأهداف التى كانت تريد مصر تحقيقها من حرب الاستنزاف هى :

١ ــ استنزاف العدو ماليا وعسكريا ومعنويا بتدمير قواته والحاق اكبر قدر من الخسائر البشرية به ، وبالتالى رفع الثمن الذى يتحمله طالما بقى احتلاله .

٢ ــ عدم ترك الفرصـــة للعـــدو لكى يثبت مواقعـــه ويعمق تحصيناته ، وقد بدأ فى اقامة ما يسمى بخط بارليف الثانى الذى كلفه مئات الملايين من الجنيهات ..

٣ ــ التدريب العملى للقوات المسلحة فى ساحة القتال الفعلية والقيام بعمليات عبور منوعة ، تزداد فى الحجم وفى القيمة استعدادا لساعة التحرير .

٤ ــ اقناع العالم واقناع العــدو ، والمناورات السياسية التأجيلية مستمرة فى الساحة الدولية ، أن مصر لا تنوى تحت أى ظرف من الظروف التخلى عن حقها فى استرداد سيناء وحق الأمة العربية فى تحرير أراضيها المحتلة .

ولذلك كان أسلوب مصر فى الاستنزاف يعتمد على عنصرين :

أولا ــ ضرب المدفعية لتدمير خط بارليف ومنعه من الاكتمال وفتح ثغرات فيه أمام قواتنا .

ثانيا ــ عمليات عبور تقوم به قوات أكبر حجما بتدمير أسلحة وأفراد العدو ، فى المواقع الحصينة التى لا تدمرها قذائف المدفعية الثقيلة .

وكان الاقدام على هذه الحرب التى تستهدف استنزاف العدو ، تحمل معها مخاطرة المواجهة بالحرب الشاملة . فانك حين تختار أسلوبا من القتال ، لا يترتب على ذلك أن يتقيد العــدو بنفس الأسلوب ، ولكنه يمــكن أن يرد بحرب من نوع آخر يرى أنها مناسبة له ....

ولكن العدو لم يختر ، كما كان يهــدد دائما ، القيام بهجوم عسكرى شــامل برى وجوى على الجبهة المصرية خلال حرب الاستنزاف ، انما فضل أن يرد على الاستنزاف باستنزاف مقابل .

الرد على المدفعية بالمدفعية .

استخدام تفوقه الجوى فى ضرب الجبهة المصرية الى أقصى ما يتمكن من قوة .

ثم ، لما لم تفلح هذه الردود فى ايقاف حرب الإستنزاف من

جانبنا ، صعد عملياته الجوية الى ضربه العمق المصرى ، الأهداف الحربية والاقتصادية والمدنية على السواء ..

لقد اختار العدو اذن مقابلة الاستنزاف . وفى مقابل أهدافنا كانت أهداكه هى :

اولا — محاولة احباط عمليات قواتنا بحيث يقنع قواتنا المسلحة بعدم جدوى أى محاولة كبرى لعبور القناة .

ثانيا — تدمير طاقتنا الدفاعية ومواقع استعدادنا غرب القناة حتى يبقى مطمئنا الى عدم قدرتها على العبور ، وتبديد أملها فى القيام بهجوم تقيم فيه رءوس كبارى شرقى القناة وتنقل قوات ثابتة الى ســـــيناء .

ثالثا — منع اقامة شبكة الصواريخ المضادة للطائرات التى كان يعرف انها لو اكتملت فستكون قيدا على حرية سلاحه الجوى وحماية لعمليات أرضية أوسع فى عمق سيناء .

رابعا — ضرب العمق المصرى لاهداف سياســـية ومعنوية فى الدرجة الاولى ، متوقعا أن تنكسر روح المقاومة والصـــمود لدى الشعب وان يضعف هيبة القيادة لدى المواطنين .

وهو اذا حقق هذا داخل مصر فكأنه قد حققه الى حد بعيد فى انحاء الوطن العربى كله ..

كان هذا منطق الطرفين فى حرب الاستنزاف المريرة والطويلة التى دامت سبعة عشر شهرا متواصلة .

ففى يوم ٨ مارس بدأت القوات المصرية أكبر عمليات القصـــف الشديد بالمدفعية على طول خط الجبهة بقوة كانت ايذانا ببدء مرحلة جديدة خطيرة ..

وكأن هذه المرحلة قد شــاء لها القدر أن تبدأ بداية تشــير الى استبسال ضباطنا وجنودنا الصابرين فى الجبهة ، اذ ذهب الفريق عبد المنعم رياض الى أكثر المواقع تقدما من العدو ليرى بنفسه آثار بدء هذه العملية فأصيب بقنبلة مباشرة وقضى شهيدا .

وكانت جنازة عبد المنعم رياض فى القاهرة مظاهرة جماهيرية شعبية من أكبر ما رأت شوارع القاهرة : طريقة عبرت بهاالجماهير من استعدادها للصــمود ولدفع ثمن المعركة وعن تقديرها للذين يبذلون أرواحهم فى هذا السبيل ..

ولم تمض أسابيع حتى أخذ هذا الاستنزاف حجم الحرب الكاملة، وصارت عناوين الصحف فى مصر والعالم تحمل يوميا أنباء القتال الدائر على ضفتى القناة ..

وقد كانت بعض العمليات فى البداية تنسب الى « منظمة سيناء العربية » التى كانت تقوم بعمليات داخل سيناء .

فى ٤ أبريل ١٩٦٩ مثلا :

« أعلنت منظمة سيناء العربية مسئوليتها عن ثلاث عمليات جريئة قام بها فدائيوها فى سيناء وهذه العمليات هى :

أولا ــ نسف محطة وقود بمنطقة أبو رديس العسكرية وقد أحدث الانفجار حريقا كبيرا كما أحدث ذعرا بين الاسرائيليين ، نظرا لقرب المحطة من مكتب الحاكم العسكرى ووجودها فى قلب مدينة أبو رديس .

ثانيا ــ نسف ثلاث عربات عسكرية اسرائيلية مما نتج عنه مقتل واصابة عدد كبير من الجنود الذين كانوا فيها ، وقد استخدم العدو الهيلوكوبتر فى نقل قتلاه وجرحاه .

ثالثا ــ قامت مجموعة من فدائى المنظمة بقصف منطقة شئون ادارية للعدو بالصواريخ الثقيلة . وتقع هذه المنطقة شرق « كرمة سلام » على بعد عشر كيلو مترات شرقى الدفرسوار .

وفى نفس اليوم نشبت معركة عنيفة بالمدافع الثقيلة بدأت كما قال البلاغ العسكرى « فى الساعة العاشرة والنصف صباحا » وقال المتحدث الاسرائيلى أن المدفعية المصرية ركزت نيرانها على القوات الاسرائيلية الموزعة فى منطقة متلا .

ويوم ٩ ابريل اذاعت رويتر من تل أبيب أن متحدثا عسكريا اسرائيليا أعلن عن نشوب قتال من أعنف ما رأته الجبهة منذ ٥ يونيو .وقال ان المصريين فتحوا نيرانهم فى الساعة الثامنةوالنصف صباحا فى منطقة بور توفيق بالجزء الجنوبى من قناة السويس وبعد حوالى ١٥ دقيقة امتدت نيران المدفعية المصرية شمالا حتى البحيرات المرة . وأضافت اليونايتدبريس ان هذا هو ثانى قتال بالمدفعية عبر القنال خلال ٤ أيام وانه فى أعقاب عدة معارك فى الشهر الماضى أطلق فيه الجانبان مايزيد على ٤٠٫٠٠٠ قذيفة من مدافع الميدان والهاون .

وفى الساعة ١٢ أعلن متحدث باسم الجيش الاسرائيلى فى تل أبيب انه فى الساعة العاشرة تقريبا اقترح مراقبو الامم المتحدة وقفا اطلاق النار فكفت القوات الاسرائيلية عن اطلاق النيران ولكن نيران المدفعية المصرية استمرت . ونظرا لان المصريين لم يوقفوا اطلاق النار فقد استأنفت القوات الاسرائيلية اطلاق النيران فى الساعة العاشرة والثلث تقريبا . وفى الساعة الواحدة والربع قالت اليونايتدبريس من القدس : ان مراقبى الامم المتحدة فشلوا حتى الآن فى ايقاف القتال ... وقالت ان ستار النيران هو استمرار فيما يبدو للعمليات التى بدأت يوم ٨ مارس الماضى .

وفى اليوم التالى قالت الإهرام « تجدد القتال على طول خط

المواجهة مع العدو في منطقة القناة من السويس الى القنطرة ، بعد اربعين ساعة من توقف آخر عملية حزبية في المنطقة . وقد بدأ القتال من الجانبين بالأسلحة الثقيلة من اول لحظة واستعملت فيه المدفعية البعيدة المدى والصواريخ وفي لحظات كانت الجبهة على امتداده ١٠٥ كيلو مترا مشتعلة في معركة بالغة العنف ، تكبد العدو فيها خسائر كبيرة واصيب فيها ٦٥ من جنوده وضباطه » ..

وفي اليوم التالي مباشرة أذيع ان القتال تجدد بصورة أكثر عنفا ، وقالت وكالات الأنباء من القدس « ان معركة المدفعية الثقيلة في جبهة قناة السويس أمس كانت من أعنف معارك الجبهة . وان المدفعية المصرية ظلت تهـدر بعنف عبر القناة وتقول الأنباء التي تلقتها دوائر المراسلين الأجانب في القدس ان عددا من قواد القطاعات الاسرائيلية في سيناء قد اصيبوا بجراح اثناء الضرب . وأضافت هذه الأنباء أن هؤلاء الضباط الكبار كانوا مجتمعين في أحد المواقع في الخطوط الامامية ساعة بدء القتال ثم فاجأتهم دفعات قوية ومركزة من نيران المدفعية المصرية » .

وبعد يوم ١١ ابريل ٦٩ اصـدر الجيش الاسرائيلي بيانا أعلن فيه انوحدة من الكوماندوز تسللت من الضفة الغربية لقناة السويس وهاجمت معسكرا اسرائيليا في شمال سيناء بقذائف البازوكا ووصفت وكالة الاسوشييتدبريس العمليـة بأن الكـوماندوز المصريين قد « انزلقوا »عبر المستنقعات المالحة والمعروفة باسم « ملاحات بور فؤاد » ربما بواسطة الزوارق وان هذه أول مرة تتعرض فيها قوات اسرائيل شمال سيناء للهجوم ، هذا في نفس الوقت الذي تجدد فيه القتال للمرة الثالثة في ثالث يوم على التوالي في منطقة طومسون والاسماعيلية .

واستمر القتال على هذا النحو حتى أمكن الجانب المصري أن

يعلن انه تم تدمير جزء كبير من تحصينات العدو « فى خطه التكتيكى الأول » .

وبعد أيام اتسع القتال وبدأ العدو يشترك فى المعركة بأعداد متزايدة من طيرانه ، وشمل الجبهة كلها من السويس الى بور سعيد وبدأت طائرات العدو تركز هجماتها على قواتنا على طول الجبهة وتسقط قواتنا عددا من طائرات العدو ...

وجاء يوم أربعين الشـــهيد عبد المنعم رياض — ١٧ أبريل — والمتحدث العسكرى المصرى يقول بأن « اشتباكا بالمدفعية والدبابات وأسلحة الضرب المباشر بدأ فى الســـاعة العاشرة على طول خط المواجهة من السويس الى البحيرات المرة وقد تم فى هذا الاشتباك تدمير معظم مواقع العدو الحصينة ومواقع صواريخه ومدفعيته كما تم تدمير جميع العـــربات التى كانت تحاول الوصـــول الى مواقع العدو » .

وفى ٢٠ أبريل بدأ القتال المصرى يتخذ بعدا جديدا : فبعد عمليات التدمير بالمدفعية وتسلل قوات الكوماندوز ، بدأت عمليات عبور لقوات مصرية لتؤدى مهمات جديدة .

« قالت الاهرام يوم ٢١ ابريل :

« شهدت جبهة القتال عملية عسكرية من نوع جديد ، عبرت فيها وحدة من القوات المصرية الخاصة قناة السويس واقتحمت أحد المواقع الحصينة للعدو واشتبكت مع افراده فى قتال مباشر . وقد سيطرت القوة المصرية على هذا الموقع سيطرة كاملة لمدة ساعتين ولم تتركه الا بعد أن نسفته وقتلت وأصابت كل من فيه من الضباط والجنود . وقد عادت القوة سالمة الى الخطوط المصرية وراء القناة ومعها علم الموقع وبعض الأسلحة الاسرائيلية الخفيفة » وقد ذكر

البلاغ المصرى الرسمى فوق ذلك أن القوة اشتبكت أثناء ذلك مع مجموعة من دبابات العدو حاولت أن تتدخل فى الموقع ونجحت قواتنا فى تدمير احدى الدبابات » .

كانت هذه نقطة تحول أخرى فى حرب الاستنزاف . وكانت أول مرة تنشر الصحف صور أسلحة وأعلام اسرائيلية حملها جنودنا من الضفة الشرقية بعد قتال ..

وشعرت اسرائيل بأن هذه المعركة قد تكون بداية مرحلة جديدة فى حرب الاستنزاف فقدم مندوبها فى الأمم المتحدة شكوى رسميةالى مجلس الأمن فى اليوم التالى لهذه العملية طالبا من مجلس الأمن الزام مصر باحترام وقف اطلاق النار .

وفى نفس اليوم نقلت وكالة الأنباء الفرنسية صورة من داخل اسرائيل : « .. صرحت المصادر العسكرية المطلعة بأن الغارات التى بدأت تشنها القوات المصرية على القوات الاسرائيلية عبر قناة السويس ، قد تدفع اسرائيل الى عمل مضاد قوى تستعيد به عنصر المبادرة . ويعتبر المسئولون الاسرائيليون الهجمات المصرية التى اتخذت أسلوبا جديدا عبر خطوط وقف اطلاق النار أكثر من مجرد انتهاك لاتفاق وقف اطلاق النار . ومضت هذه المصادر تقول ان المصريين لم يحاولوا حتى التستر على انتهاكاتهم لخطوط وقف اطلاق النار فى بياناتهم واذاعاتهم ، ومع أن هذه المصادر لم تشر الى الشكل الذى قد تتخذه أية محاولة قد تقوم بها اسرائيل لاستعادة عنصر المبادرة فى منطقة القناة ، الا أن المراقبين اعتبروا الهجوم الجوى الاسرائيلى على محطة الرادار المصرية فى الأردن جزءا من هـذا الاتجـاه » .

ومن القدس كتب فى نفس اليوم جيمس فيرون مراســل جريدة

نيويورك تايمز «احتفلت اسرائيل بذكرى مرور ٢١ عاما على انشاءها.
وقد بدأت هذه الاحتفالات مساء بالرقص والغناء ثم سيطرت عليها
حالة التوتر والوجوم التى تسود البلاد . وكانت اسرائيل عندما
احتفلت بهذه المناسبة ذاتها هى العام المـــاضى ، على غير هــذه
الحال . اذ كان يسودها شعور البهجة والانشراح . أما هذا العام
فان شعورا بخيبة الأمل قد خيم على الاحتفالات . وكان الناس الذين
خرجوا للاحتفال يتجمعون حول أجهزة الراديو للاستماع الى أنباء
خطوط القتال وما يذاع عن عدد القتلى والجرحى ، وهو عدد يتزايد
يوما بعد يوم مما يجعل لهذه الخسائر وقعا شديدا بين الناس .
وهناك الى جانب الخسائر فى الجنود مبعث آخر للقلق يتمثل فى
الموقف بالنســبة للامن عند خطوط وقف القتال وهو موقف يتفاقم
بصورة مستمرة من حيث عدد الحوادث وعنفها . ويقرأ الاسرائيليون
كل يوم عن الغارات التى تشنها القوات المصرية عبر قناة السويس.
والرأى السائد أن المصريين قد أصبحوا قادرين على أن يعبروا
القناة دون أن يتعرضوا لما كان العسكريون يصفونه « بالعقاب »فى
منطقة تحتلها القوات الاسرائيلية » .

وكان الرد الاسرائيلى هو أن يمتد الضرب الجوى المستمر من
الجبهة الى داخل العمق المصرى ، ولكن عدم وصول هذا الضرب فى
العمق المصرى الى تحقيق أى نتيجــة فى المعنــوية المصرية أو فى
استمرار القتال وتصاعد عمليات العبور على القناة جعلت مراسل
الاسوشيتدبريس فى اسرائيل يكتب يوم ٥ مايو ٦٨ « بعد أن فقدت
العمليات الاسرائيلية الانتقامية فعاليتها ــ مثل الهجوم على منطقة
نجع حمادى ــ وأصبح المصريون لايبالون بها ويمضون فى طريقهم
التى رسموها لأنفسهم ، بدأت اسرائيل تتحدث عن الحرب . ان
الذين كانوا منذ شهور يعتبرون أن نشوب حرب جديدة هو وهم
وخيال أصبحوا يتحدثون عن هذا الاحتمال الآن جديا . وقد قال

مصدر اسرائيلى مسئول : ان المصريين وصلوا الى نقطة يجدون معها ان مجرد الثأر لايفيد ولا ينزع أحدا ولا يوقف شيئا ، واعتقد أن حربا كبيرة ستقع من جديد » .

وفى ١٣ مايو القى موشى ديان خطابا هاما قال فيه « ان مشكلتنا الأولى الآن بعد أن وصلنا الى هذه المرحلة الحرجة هى أن نحصن أنفسنا على طول خط القناة وأن نصمد فى مواجهة عمليات الانهاك والاستنزاف المستمرة . ولكن ينبغى علينا أن نتساءل : هل فى وسعنا الاستمرار فى الصمود تحت ضغط الخسائر اليومية ؟ .

ان هذا وصف موجز للثلاثة شهور الأولى لحرب الاستنزاف .. وبعدها بدأت عمليات العبور ونسف تحصينات خط بارليف الأول من الداخل تصبح أحيانا يومية .. تلك الحرب التى استمرت بعد ذلك خمسة عشر شهرا اخرى ..

خمسةعشر شهرا أخرى تصاعدت فيها جهود العدو لردعنا فى صورة قصف جوى الممتد الى المدن والقرى وضواحى القاهرة ، بالاضافة الى القصف الجوى المركز على مواقع قواتنا غرب القناة أحيانا ٢٤ ساعة متوالية كل يوم :

ووصلت عمليات عبورنا الى العبور بقوات كبيرة فى وضح النهار وتدمير المزيد من خط بارليف حتى أعلنت مصر أن أكثر من ٦٠٪ منه قد تم تدميره فعلا ...

ووقعت معارك لسان بور توفيق والجزيرة الخضراء وشدوان ...

وقامت الضفادع البشرية المصرية بعمليتهــا الجريئة فى ميناء ايلات : حين اقتحمت مياه الميناء رغم الموانع والالغــام البحرية وهاجمت ودمرت قطعا بحرية اسرائيلية ومنشآت كثيرة فى الميناء نفســه ...

ولعل أخطر صراع بين الارادتين كان يدور حول تصميم مصر على اقامة شبكة الصواريخ المضادة للطائرات وبين تصميم العدو على منع ذلك بأى ثمن مستخدما سلاحه الجوى ليل نهار ...

وفى هذه المعركة اشترك الجنود والضباط والمهندسون والقطاعات المدنية مع العسكرية والعمال وأهـالى القرى رجـالا ونساء وأطفالا ...

كانوا مصممين على اقامة هذه الشبكة مهما كانت الخسائر فى الأرواح ، وتلك وحدها قصة تحتاج الى كتاب بمفرده ...

وكان النصر لارادتنا . وشعر العدو بذلك حين بدأت الصواريخ تعمل : وكان أكثر الأيام فى تلك الفترة سـوادا فى تاريخ الطيران الاسرائيلى يوم ٣٠ يونيو حين أسقط دفاعنا الجوى أربع طائرات للعدو فى يوم واحد : طائرتان فانتوم وطائرتان سـكاى هوك ، وسقط ثلاثة من طيارى العدو أسرى فى أيدينا .. ثم لم تلبث أن تصاعدت خسائر اسرائيل الى احدى عشرة طائرة فى أسبوع من واحد الى ٧ يوليه ١٩٧٠) .

ولم تعـد الفانتوم ذلك الشبح المخيف ، أو تلك الطائرة التى قالت عنها جيروزاليم بوست الاسرائيلية « انها طائرة محصنة ضد أحدث أجهزة الدفاع الأرضية » .

وكان سقوط الطائرات الاسرائيلية بهذا المعدل من اهم مراحل حرب الاستنزاف .. وصفتها اسرائيل « بانها خلقت موقفا جديدا تماما » وقالت وكالات الأنباء أن تل أبيب تلح على واشنطن من أجل الحصول على شحنات عاجلة من الفانتوم والسكاى هوك لأنه لابد أن يكون لديهم احتياطى من الطـائرات يسمح لهـم بالمخاطرة بعدد كاف منها فى الغارات على الخطوط المصرية .

وقال مصــدر اسرائيلى مســئول : ((اذا استمر تســاقط الطيران الاسرائيلى على الجبهة المصرية بالمستوى الذى حــدث خلال الأيام القليلة الماضية فان اسرائيل قد تطلب اسهاما أمريكيا ((أكثر نشــاطا)) .

وعقد الجنرال بارليف يوم ٧ يوليو مؤتمرا صــحفيا فى القدس اعترف فيه بأن بطاريات صواريخ سام ٢ ارض جو فى الجبهة يعمل عليها المصريون وحدهم ، ونشر رئيس الأركان الاسرائيلى على الصحفيين خريطة لمنطقة القناة حدد فيها ١٢ موقعا باللون الأحمر قال انهــا لبطاريات صواريخ ســام ٢ ، وقال ان هــدف المصريين من انشــاء هذه الشــبكة الجديدة هو تدمير التفوق الاسرائيلى الجوى فى الجبهة وبالتالى تمكين القوات المصرية من البدء بعمليات هجومية .

واعلنت امريكا عن تعويضها لــكل طائرات اسرائيــل التى تتساقط .

وقد ظلت تتساقط امام دفاعنا الجوى ، ثم امام طيراننا ، حتى اعلن قبول مبادرة روجرز ووقف اطلاق النار .

●

ان هذا لم يكن محاولة لحصر كل العمليات العسكرية التى قام بها الطرفان خلال حرب الاستنزاف ، كما أن الكثير ما زالت تحتفظ به القيادات لنفسها ، الا أننا ونحن نحاول فى هذا الكتاب أن نضع الأحداث فى اطارها التاريخى لا بد أن نتساءل ماذا حققت حرب الاستنزاف من وجهة نظر الطرفين ، قبل أن يتوقف اطلاق النار مرة أخرى فى ٧ اغسطس ١٩٧٠ .

وفى تقديرى أن التحليل الموضوعى يكشف أن حرب الاستنزاف

حققت من الأهداف التى توخاها الجانب المصرى أكثر مما حققت من أهداف الجانب الاسرائيلى ...

ان الذين قاسوا حرب الاستنزاف بأنها لم تؤد الي جلاء اسرائيل عن سيناء ، وبالتالى حكموا عليها بأنها لم تحقق غرضها ، انها أصدروا حكمهم هذا فى الواقع بناء على هدف لم يكن من أهدافها لأن معركة دفاعية محضة وعلى جبهة واحدة لا تخرج عدوا مثل اسرائيل من مواقعه ، خصوصا وأنها لا تطلب شروطا أقل من الاستيلاء على الأراضى بكاملها أو معظمها فى اقل تقدير .

« .. ولكن مصر نجحت من حيث انها جسدت قوتها الحربية الجديدة فى أعز صورها ، وأعطت العالم والعدو صورة عن قوتها الحربية النامية جعلت أمريكا تتحرك الى محاولة تدارك الموقف بطرح مشروع روجرز وجعلت مصر تقبل وقف اطلاق النار من مركز قوة لا من مركز ضعف(١) » .

« ففى سنة ١٩٧١ كانت تدور مناقشة حادة فى اسرائيل حول هذا الموضوع ، اذ أعلن الجنرال ما تيتياهو بيليد (الذى كان فى هيئة أركان الحرب الاسرائيلية فى حرب يونيو) علنا فى الصحافة العبرية أن سياسة الجنرال ديان قد أدت الى هزيمة اسرائيلية فى حرب الاستنزاف . وقد سجل زيف شيف محرر جريدة هاارتز العسكرى آراء الجنرال بيليد كالآتى :

« من الوجهة العسكرية ، فشل الجيش الاسرائيلى فى حرب الاستنزاف ، وبالتالى فقد كانت هذه أول مرة يهزم فيها الجيش

---

(١) دراسة احمد سامح الخالدى عن حرب الاستنزاف فى
Journal of Palestine Studies

الاسرائيلى فى الميدان منذ قيام دولة اسرائيل لدرجة أننا فى اسرائيل اسرعنا الى التشبث باول قشة القيت الينا . وهى وقف اطلاق النار .. لماذا ؟ . »

« واستطرد بيليد يعطى الأسباب التالية :

اولا — لأننا لم ننجح فى اسقاط النظام المصرى عن طريق الضرب بالطائرات فى العمق المصرى .

ثانيا — لأننا فقدنا سيطرتنا على الأجواء المصرية .

ثالثا — لأننا فشلنا فى منع الروس من زيادة التزامهم بتسليح مصر ومساعدتها فى الدفاع عن نفسها .

رابعا — لأننا فشلنا فى التوصل الى ايقاف اطلاق نار نهائى وحاسم « مشيرا بذلك الى مضى مصر فى اقامة شبكة الصواريخ المضادة للطائرات بكثافة بعد وقف اطلاق النار » ..

ورد زيف شيف على بيليد قائلا أن اسرائيل لم تخسر حرب الاستنزاف بهذه الدرجة لأن الهدف لم يكن السيطرة على الأجواء المصرية بل الاحتفاظ بالمواقع الاسرائيلية على خط القناة وهذا ماتم ساعة وقف اطلاق النار .

ولكنه اعترف بفشل سياسة ضرب مصر جوا فى العمق « ذلك أننا قمنا بهذه الغارات دون تحديد واضح للهدف منها وبالتالى دون اطار محدد لدرجة ومدى هذا الضرب ، كما فشلنا فى أن نواكب الضرب الجوى بالعمل السيكولوجى اللازم .

« وقد صار الكثيرون يستشهدون بمقال زيف شيف فى مجال

الدفاع عن سياسة القيادة الاسرائيلية(١) . لقـــد قال أن الهدف كان التمسك بخط القناة ولكنه معذلك اعترف بأن اسرائيل أخطأت فى ضرب العمق المصرى دون خطة متكاملة واعترف بأنها أخطأت فى طريقة الهجوم التى اتبعتها ضد الصواريخ المصرية وبالتالى لم تدمرها ، وفى أنها لم تحدد شروط وقف اطلاق النار بدقة . ثم قال أن المكسب الرئيسى من وقف اطلاق النار كان اختفاء قوائم القتلى الاسرائيليين من الصحف يوميا .

« والواقع أن زيف شيف لم يرد تماما على ملاحظات الجنرال بيليد . فهو كان يتجنب الرد المباشر حين فرق بين هدف السيطرة على الجو المصرى وهـــدف الاحتفاظ بخط القناة رغم أن الاثنين مرتبطان . ثم انه اعترف بعدم وضع خطة محددة للضرب فى الأعماق وهذا غير صحيح » فقد كان الهدف المحدد المعلن هو انهيار مصرى من الداخل عن طريق نقل الحرب الى كل مصرى ، الأمر الذى لم يتحقق . ثم انه يكشف نفسه حين يقول ان اسرائيل قبلت وقف اطلاق النار لأسباب أخرى ثم يسجل من هذه النتائج اختفاء قوائم القتلى الاسرائيليين من الصحف كل يوم » .

« ثم أن حرب الاستنزاف هى فى الدرجة الأولى حرب اعصاب. فهى ليست مواجهة شاملة تحشـــد لها كل الطاقات . وبالتالى ترتفع خلالها المشاعر الى أقصى حد . لقد تعودت اسرائيل على أن تحقق نتائج سريعة وحاسمة فى كل حرب مع العرب . فلمـــا واجهتها حرب من نوع آخر ظلت مستمرة يوما بعـــد يوم ، وكل بلاغ يسجل مكاسب وخسائر ولكن دون نتيجة واضحة ، كان الأثر التراكمى لهذا على الشعب الاسرائيلى واضحا .. » .

---

(١) المرجع السابق .

ولكننا اذا تركنا هذه المناقشات جانبا فاننا نسجل بالنسبة لآثار حرب الاستنزاف ما يلى :

أولا — لقد تم تدمير ما يقرب من ٦٠٪ من خط بارليف خلال هذه الحرب ورغم أن الوقت قد اتسع أمام اسرائيل بعد ذلك لاعادة بنائه وتدعيمه ، الا أن التجربة التى استفادتها القوات المصرية فى العبور والالتحام بالعدو ، لا تقدر بثمن ، بالنسبة لروح القوات ذاتها وبالنسبة للخطط التى تم وضعها بعد ذلك فى صمت لمهاجمة الخط كله واحتلاله سنة ١٩٧٣ .

ثانيا — لقد كان لهذه الحرب دور كبير فى تطوير قواتنا المسلحة أكثر وأكثر ، وتدعيم ترابطها وعملها المشترك .. كما أنه رفع سمعتها لدى نفسها ولدى مواطنيها .

ثالثا — ان هدف اسرائيل من تدمير روح الشعب المصرى من الداخل لم يتحقق بل أثبتت الدراسات عكسه تماما . وتأكدت قدرة الشعب المصرى على الاحتمال مع قواته المسلحة .

رابعا — ان الهدف العسكرى المباشر هوتدمير شبكة الصواريخ أو خلخلة مواقعنا الدفاعية والهجومية معا ، لم يتحقق بدليل أن صواريخنا أسقطت أربع طائرات فانتوم فى آخر يومين قبل وقف اطلاق النار ، وأن قواتنا استمرت فى اقامة شبكة الصواريخ وتكثيفها بعد وقف اطلاق النار دون خشية من استئناف الغارات الاسرائيلية التى لو أنها وجدت الأمر فى مصلحتها لاستمرت فيه .

خامسا — ان كل استفتاءات الرأى العام على مر السنين منذ سنة ١٩٦٧ كانت تثبت أن الصقور فى اسرائيل تزداد قوتهم حين تسكن الجبهات العربية ويصبح الاحتلال زهيد الثمن . فى حين كان دعاة الاعتدال يجدون تحولا واضحا نحوهم من الرأى العام

الاسرائيلى حين يبدأ الاسرائيليون فى الاحساس بوطأة القتـال وفداحة الثمن الذى يدفعونه من أفرادهم .

ولم ترتفع الأصوات بين ٦٧ وأكتوبر ٧٣ مطالبة بالبحث عن حل ، مثلما ارتفعت خلال حرب الاستنزاف .

ففى خلال حرب الاستنزاف كتبت جريدة دافار بعنوان « متى تأتى النهاية » تقول : « من الحماقة أن نضحى بالروح المعنوية العامة فى سبيل تكتيكات سياسية . فالى متى نستمر فى التمسك بأهداف لن تتحقق فى زمن بعيد ؟ لقد قال ديان انه اذا استمرت حرب الاستنزاف فستضطر اسرائيل الى انهائها عن طريق تحويلها الى حرب شاملة ، أليس الأحسن من ذلك بالنسبة لاسرائيل أن تعلن أنها مستعدة للتفاوض مع الفلسطينيين أنفسهم مباشرة ؟..

وكتب الجنرال عوزى ناركيس ، حاكم الضفة الغربية يقول :

« ان التغير فى اتجاه بندول معنوياتنا هو ولا شك أكبر كارثة حلت بنا منذ الأيام الستة . ولكن ليس هذا أخطر ما فى الأمر . فقد بدأ الناس يتهامسون متسائلين عما اذا كان لدينـا من القوة الكافية ما يمكننا من هزيمة العدو فى مواجهة أخرى . لقد وصل كثير من الناس الى درجة صاروا فيها محتاجين الى جرعات تقوى معنوياتهم وتحميها من انهيار مفاجىء فى ثقتها فى قواتنا المسلحة» .

وكتب يورى أفنيرى قائلا ان خسـائر اسرائيل بلغت أقصى درجاتها منذ الحرب . .وهاجم سياسة اسرائيل القائمة على أساس « لا سلام » لمجرد التهرب من مواجهة مشاكل داخلية قد يجلبها عليها مثل هذا السلام « الى أين يقودنا كل هـذا ؟ ان السؤال مشروع . فلا يوجد شعب يمكن أن يعيش فى حالة حرب مستمرة لاتنتهى . ان مثل هذه الحالة هى التى دمرت دولة الصليبيين من الداخل وهم ما زالوا يحاربون بالدرع والسيف » .

وبعض المعلقين قالوا ان مشروع روجــرز وما تلاه من وقف اطلاق النار قد أنقذهم « فقبيل وقف اطلاق النار ساد شعور بأنه لا يوجد أي مخرج وبدأ كثيرون يقولون » « اذا كنا سنضطر للقبول فلنقبل الآن قبل أن يرتفع الثمن من الخسائر والأرواح » .

ونشرت دافار مقالا بعنوان « لقد قاسينا من حرب الاستنزاف » قالت فيـــه « من الخطأ أن نـــدفن رءوسنا فى الرمال ولا نعترف بقسوة ما تحملناه ، وان كان هذا لم يظهر على سطح حياتنا . ان خسائرنا عالية جدا اذا قيست بنسبة عدد السكان الى خسائر أمريكا فى الحرب العالمية . أو حرب كوبا . أو حرب فيتنام » ..

٦ أكتوبر ١٩٧٣

يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٣ ، كان يوم الذكرى الثالثة لوفاة جمال عبد الناصر ، وكعادته ، وجه الرئيس أنور السادات حديثا الى الأمة . وقد تحدث عن أمور سياسية كثيرة داخلية وخارجية ولكنه ربما لأول مرة لم يتحدث عن الحرب . ففى ختام مقتضب لحديثه قال « أيها الأخوة والأخوات ، لعلكم لاحظتم أن هناك موضوعا لم أتعرض له . ولكننا نعرف هدفنا ونحن مصممون على تحقيقـــه . لن ندخر فى هذا السبيل جهدا أو نبخل بتضحية ولن أتحدث اليوم عن هذا طويلا . ولكننى فقط اقول ان تحرير الأرض كما قلت مرارا هو المهمة الأولى التى تواجهنا وسوف نحقق هذا الهدف باذن الله. انها ارادة هذا الشعب . بل انها ارادة الله » .

ولم يعرف أحد وقتها أن أنور السادات كان قد أعطى أمر المعركة بالفعل . وان الأداة الحربية الضخمة التى تستعد منذ سنوات قد وصلت فى استعداداتها الى الذروة ، وان الهجوم الكبير سيبدا بعد أسبوع ..

هل يمكن حقا أن تكون اسرائيل قد أخذت على غرة ، بمخابراتها التى جعلتها أسطورة لا تدب دابة على الأرض العربية الا بمعرفتها ، وبالمخابرات الأمريكية التى لا تكف عن مراقبـــة المنطقـــة وتبادل المعلومات معها .. ؟

ان قضية « المفاجأة » من أول واكبر القضايا التى تثيرها حرب اكتوبر ١٩٧٣ : هل كانت هناك حقا مفاجأة ؟ وما هو مدى هذه المفاجأة ؟

بالتأكيد كانت هناك مفاجأة . ولكن الى أى حـد كانت هذه المفاجأة ؟ هل لم يعرف الاسرائيليون بالهجوم — مثلا — الا ساعة اطلاق الطلقة الأولى . ؟ أم أنهم عرفوا قبل ذلك بأيام ؟ .

وأهمية هذه الوقفة الأولى عند أول قضايا المعركة وهى عنصر المفاجأة ، هام ، لسبب أراه جوهريا .

فالحرب الاعلامية الاسرائيلية بعد أن افاقت من صدمة اكتوبر، تحاول أن تعيد بناء الأسطورة من جديد وذلك بالتقليل من أسباب الانتصار المصرى وتصويره وكأنه نوع من « المصادفات البحتة ».

وهم فى هذا يستندون الى محورين اساسيين :

الدعوى الأولى أنه لولا المفاجأة وحدها لما حدث ما حدث .

والدعوى الثانيـة : انه لولا وقف اطـلاق النار لأجهزوا على القوات العربية كما فعلوا فى حروب سـابقة (وسيأتى أوان هذه القضية فيما بعد) .

وعندما نتأمل عنصر المفاجأة الذى نجحت فى توفـيره القيادة المصرية ، نجد أنه كان ناجحا بغير شك . ولكنمبالغة الاسرائيليين فيه أمر آخر .

ان المفاجأة عنصر من عناصر أى حرب . وخصوصـا فى أى هجوم . حتى فى غمار حرب مستمرة ، تنطوى اى مبادرة هجومية على قدر من التضليل والخداع والمفاجأة ..

وفى حالتنا كان توفير عنصر المفاجأة امرا صعبا ..

فنحن بلاد محتلة والمنطق يقول انه من التصـلب الاسرائيلى لابد من نشوب القتال ذات يوم .

وفى نفس الوقت كان هذا القتال لتحرير الأراضى المحتلة هو الهدف المعلن للدولة والذى يردده رئيس الجمهورية نفسه فى كل خطاب هام . وليس كمفاجأة ١٩٦٧ مثلا ، أو ١٩٥٦ ، حين نشبت الحرب دون اى مقدمات وبناء على خداع طويل .

ومع ذلك فقد تمكنت القوات المصرية من تحقيق المفاجأة ..

قال الفريق أول أحمد اسماعيل على قائد عام القوات المسلحة المصرية(١) :

ـ فى كل حرب هناك خطة العمليات وهناك خطة الخداع واعتقد أننا نجحنا . فلقد وضعنا خطة الخداع على المستوى التعبوى والاستراتيجى ووضعت لها جداول وتوقيتات سارت جنبا الى جنب مع خطة العمليات وتوقيتاتها بجداولها .. ولقد وصلنا فى الكتمان الى درجة أن يوم « ى » لم يكن معروفا بعد تحديده مبدئيا الا لاثنين : الرئيس وأنا .

« وحتى عندما بدأنا العد التنازلى من يوم « ى » بالناقص وكان ذلك قبل شهر من بدء العملية «ى» ناقص ٣٠ ، ى ناقص ٢٩ ، ى ناقص ٢٨ وهكذا فان السر ظل محصورا .

« وعندما بدأنا الحشد وأنا أعرف أن العدو يستطلع كل يوم فلقد كنت أدفع الى الميدان بلواء مثلا .. وأعود فى الليل بكتيبة ، لكى يشعر العدو أن القوات التى ذهبت كانت فى مهمة تدريبية أدتها وعادت منها .

ولقد أخرت ارسال معدات العبور الى أقصى حد ممكن ، فقد

---

(١) فى حديث مع محمد حسنين هيكل ، الاهرام ١٩٧٢/١١/١٨ .

كان مؤكدا أن خروج هذه المعدات من مخازنها كفيل بتنبيه العدو الى نوايانا ، وقد صنعنا لبعض هذه المعدات صناديق خاصة لا يشعر أحد أن اللوارى الضخمة التى تحملها لوارى مهندسين. ثم رتبنا لهذه المعدات حفرا على جانب القناة نزلت اليها فور وصولها ليلا .

« كانت الخطة خلال هذا كله بالطبع قد اكتملت الى آخر التفاصيل . بل الى تفاصيل التفاصيل ، وكان ذلك طول الوقت بالتنسيق مع سوريا .

وقبل أيام قليلة من يوم «ى» كانت تفاصيل الخطة تنزل من قادة الجيوش الى قادة الفرق ثم قادة الألوية ثم قادة الكتائب ..

« بعض الجنود من طلائع الهجوم عرفوا قبلها بثمان وأربعين ساعة وبعضهم عرفوا يومها فى الصباح » ..

« ولقد تتذكر أننا تعمدنا تسريب بعض الأنباء لصرف الأنظار تماما عن نوايانا : اذعنا مثلا أن وزير دفاع رومانيا قادم فى زيارة لى يوم ٨ أكتوبر . وطلبنا منكم فى الأهرام مثلا نشر خبر بأننى فتحت الباب لقبول طلبات الضباط والجنود الراغبين فى أداء العمرة » ..

والقيادة المصرية تحتفظ حتى الآن بكثير من أسرار عمليات الخداع ، التى وصلت الى ٦٥ بندا للخداع فى المعركة ، ووصلت هذه البنود الى أصغر التفاصيل حتى أن جنودا أمروا أن يسبحوا فى مياه القناة دون سلاح ، الساعة الواحدة ظهرا ، اى قبل ساعة الصفر بساعة واحدة كما تعودوا أن يفعلوا فى بعض الأيام ، حتى يقل شعور العدو بالاستعداد .. وقد قام هؤلاء بذلك وهم

يعرفون أن القتال سينشب بعد ساعة وأنهم فى وضعهم هذا قد يكونون من أول الضحايا ..

وفى هذا الجزء الذى ينصب على ردود فعل اسرائيل قبيل المعركة ، وشكوكها ومدى معرفتها سأرجع أساسا الى الصحف الأجنبية ، والكتاب الذين كانوا فى الجانب الاسرائيلى ، وما ظهر بعد الحرب من حقائق ..

انه يمكن القول بأن اسرائيل قد ضللت نفسها استراتيجيا ، حين أقنعت نفسها بأسطورتها التى لا تقهر ،وأقنعت نفسها بأن العرب قد اقتنعوا بهذه الأسطورة ، وبالتالى فانهم لن يحاربوا .

ومن هذا المنطلق النفسى لم تر اسرائيل فى التحركات السياسية العربية للرئيس السادات طوال السنة التى سبقت الهجوم شيئا جديدا أو لم تشأ أن ترى فيها شيئا جديدا ..

تقول جريدة الصنداى تايمز فى تحقيق شامل لها عن الحرب « كان أول أسباب هذا العمى الاسرائيلى عمليا . فخلال السنوات السابقة كانت المخابرات الاسرائيلية مشغولة الى أقصى حد بمطاردة المقاومة الفلسطينية ، خصوصا فى الخارج . ولما كانت الطاقة الاسرائيلية البشرية محدودة فقد اضطرت اسرائيل الى أن تسحب كثيرا من عملائها فى البلاد العربية — خصوصا سوريا ومصر — وكانت النتيجة كما وصفها دبلوماسى انجليزى بعد ذلك غلطة تقليدية للمخابرات — حتى تعرف « قدرات » العدو ولكن تعجز عن ادراك نواياه » ..

« هذا الانشغال الشديد بمطاردة الفلسطينيين قاد اسرائيل الى الغلطة الثانية: عجزها عن ادراك أن العرب يمكن أن يخوضوا حرب العصابات وحربا تقليدية عسكرية فى وقت واحد . **فقد ظل**

الجنرال ديان وزير الدفاع ، وكل رؤساء اركان الحرب المتوالين ، يرددون اقتناعهم بان العرب يمكن أن يمارسوا حرب العصابات ولكنهم لا يجسرون على مقابلة الاسرائيليين فى معركة حربية وجها لوجه . وهكذا عجزت اسرائيل عن معرفة أخبار تصاعد الاستعداد العربى العسكرى » .

ولعل السبب الأول — سحب المخابرات الاسرائيلية عملاءها من منطقة الى منطقة—هو العذر الذى تقوله المخابرات الاسرائيلية اليوم لرؤسائها ولكنه سبب واضح الهـزال والسخف . ولكن السبب الثانى هو الذى ساهم فعلا فى تضليلها استراتيجيا ، وهو ثقتها فى مناعتها المطلقة وفى عجز العرب المطلق .

هكذا لم تفهم اسرائيل اتصالات الرئيس أنور السادات المتوالية بأطراف عربية كثيرة . ولم تفهم اسرائيل تنويع العرب لمصـادر تسلحهم ، ومحاولاتهم الحصول فى السـوق العالمى على بعض ما ينقصهم . ولم تفهم مظاهر التنسيق العسكرى الواضح بين سوريا ومصر بالذات ، والزيارات العسكرية المتبادلة على أعلى المستويات ، ثم لم تفهم محاولة اصلاح الموقف بين سوريا ومصر من جهة والأردن من جهة أخرى قبل الحرب بشهور قليلة ..

ونعود الى الصنداى تايمز لنجد أنها تنقل عن الجانب الاسرئيلى أنه توقع حدوث الحرب اكثر من مرة قبـل أكتوبر ١٩٧٣ ولكن توقعاتهم لم تصح . ففى ٢ مايو اشتعل قتـال حاد بين المقاومة الفلسطينية وقوات الجيش اللبنانى فى بيروت . وكان عملا اسرائيليا هو الذى فجـر الصـدام . ففى ١٠ أبريل دخلت قـوات من الكوماندوز الاسرائيلية فى ثياب مدينة الى قلب بيروت ، واغتالت ثلاثة من أبرز زعماء المقاومة الفلسطينية فى بيوتهم (الشهداء كمال ناصر ويوسـف النجار وكمـال عدوان) . وسقطت الحكومة

اللبنانية وانفجرت الاشتباكات التى دامت تسعة أيام فيما يشبه الحرب الأهلية الصغيرة ..

« وتوقعت المخابرات الاسرائيلية أن يمتد الاشتباك الى خارج لبنان . وخوفا من خطابات الســادات التى كانت تهدد بالحرب خافت اسرائيل أن تكون سوريا على وشك القيام بتدخل عسكرى لصالح الفدائين . ومثل هذا لو حدث كان سيجر الى مضاعفات لابد أن تصــل الى اسرائيل . وكانت فى ســوريا حالة استعداد عسكرى . وأعلنت حالة الطوارئ بين القوات الاسرائيلية التى بدأت تقوم بمناورات ظاهرة فوق مرتفعات الجولان » .

« كان هذا انذارا كاذبا . ولكنه يلقى الضوء على المشاكل التى أربكت اسرائيل بعد أربعة شهور . ذلك أن الانذار الذى أعلن فى مايو ، كما قال الجنرال دافيد العازار رئيس أركان حرب الجيش الاسرائيلى ، كان بنــاء على معــلومات عن استعدادات عربية للحرب أكثر اقناعا من الظواهر التى لاحظها الاسرائيليون بعــد ذلك بشــهور . ويومها كلفت حالة التعبئة الجزئية (فى مايو) اسرائيل ما يقرب من خمسة ملايين جنيه استرلينى ، الأمر الذى لا تتحمله الخزانة الاسرائيلية مرة كل انذار ، والذى كان أحــد أسباب التردد حين جاءت بعض النذر فيما بعد » .

« وقد كان شهر مايو شهرا حرجا كذلك بالنسبة لحارسة اسرائيل النهائية ، أمريكا . والمخابرات الأمريكية تشمل عدة أجهزة مستقلة ، أعمالها تتداخل أحيــانا وتقع بينهــا منازعات كثيرة ، وان كانت أشهرها هى الــ CLA أو ادارة المخابرات المركزية . وأصــغر هذه الأجهزة هو مكتب المخابرات والأبحاث التابع لوزارة الخارجية الأمريكية : الذى له اتصال مباشر بسائر أجهزة المخابرات دون

أن يكون له عملاؤه الذين يعملون لحسابه مباشرة ، وبالتالى فمهمة هذا المكتب هى تحليل المعلومات التى يتلقاها من سائر الأجهزة».

« وحين راجع هذا المكتب أزمة مايو ، والنذر الخاصة بتسارع استراتيجية أنور السادات وجد المكتب أنه من المتوقع فعلا أن تقع الحرب ولكن فى الخريف .وأطلع وقتها جهاز المخابرات المركزية على هذا التقدير فوافق عليه ولكنه لم يوافق على تحديد موعد بهذه الدقة .

« أحد هذه العناصر فى تقديرات الأجهزة الأمريكية كانت حقيقة تراكم الأسلحة بكميات كبيرة لدى العرب التى بدأوا يتلقونها من روسيا مجددا . وكانت شحنات السفن الروسية من الدبابات الثقيلة ت — ٦٤ الى مصر وسوريا لم تقلق اسرائيل كثيرا . ولكن فى ٣ مايو قام الرئيس حافظ الأسد برحلة لمدة ٢٤ ساعة الى موسكو عاد منها بوعد من الاتحاد السوفييتى باقامة شبكة صواريخ سام و ٤٠ طائرة ميج ٢١ .

« وبينما كانت سوريا تتسلح كانت المفاوضات لتحقيق استراتيجية مصرية سورية موحدة تمضى فى طريقها . وفى اجتماع فى دمشق تم يوم ١٢ يونيو ، اتفق الرئيس الأسد على خطة السادات فى الحرب .

« وفى يوم ١٠ سبتمبر اجتمع فى القاهرة الملك حسين والرئيس الأسد مع الرئيس السادات . ولاشك أن امورا كثيرة قد سويت فى هذا الاجتماع . وان كان موعد الحرب قد ترك تقريره للرئيس السادات .

وتستطرد الصنداى تايمز فتقول « ولا أحد يعرف اذا كانت اسرائيل قد أرادت فى تلك اللحظة ان تثير حربا مع سوريا أم لا .

لقد رفض رئيس الأركان الاسرائيلى فيما بعد أن يعترف بأى نية من هذا النوع . ولكن ما الذى كانت تفعله أربع مقاتلات اسرائيلية بتحليقها فوق الشواطىء السورية شمالا عند البحر الأبيض ؟ يقول بعض الاسرائيليين انها دورية عادية ويقول آخرون انها حيلة جربها الاسرائيليون من قبل . على أى حال ، فقد حققت الحيلة غرضها ، فاستدرجت طائرات سورية الى الاشـــتباك معها . وما حدث بعد ذلك ، أيضا فيه قولان ، قول أن اسرائيل أسرعت بارسال قوات جوية كبيرة وقول آخر أن القوة الجوية الكبيرة كانت هناك فى الجو فعلا — فى فخ جوى . على أى حال فقد دارت معركة جوية سقطت فيها ثمانى طائرات سورية .

وتقول الجريدة ان هذا الحادث كان القشة التى عجلت بقرار الحرب — ولكن الأرجح أنه عزز قناعة انه لا مفر من القتال . ولكن قرار القتال نفسه أو تحديد موعده لايمكن أن يحدد بناء على هذا التحرش الاسرائيلى وحده — مهما كان استفزازيا .

وحين بدأت المدرعات المصرية تتجمع فى الأسبوع الأخير من سبتمبر لم ينزعج كثير من الاسرائيليين . فطوال العشر سنوات الماضية — باستثناء سنة ١٩٦٧ بالطبع — كان الجيش المصرى يجرى مناوراته فى نفس الموعد تقريبا . صحيح أن هذه المناورات خلال الثلاث سنوات السابقة كانت تزداد قربا من القناة ، وتتكرر عدة مرات فى السنة الواحدة ، ولكن القادة الاسرائيليين لم يهتموا بما رأوا — حتى بالتحصينات والمواقع الجديدة على حافة القناة اذ اعتقدوا أنها مجرد عمليات لشغل القوات .

« ولكن حوالى ٢٤ سبتمبر بدأت المخابرات الأمريكية قلقها من أن هذه أول مرة يجرى فيها المصريون مناورات بهـذا الحجم ، مستخدمين تشكيلات عسكرية فى مستوى الألوية والفرق . ثم انهم

كانوا يخزنون ذخيرة أكثر من المعتاد ، ويجمعون أكبر قــدر من المعدات المساعدة شوهد حتى ذلك الوقت . وأكثر اثارة للقلق من ذلك أنهم كانوا يقيمون شبكات ميدانية للاتصال أكثر ممــا تحتاجه المناورات فى العادة . وقد التقطت الاختبارات التى جرت لهذه الشبكات اللاسلكية بواسطة وكالة الأمن الوطنى فى أمريكا المختصة بالتجسس الألكترونى فى انحاء العالم والتى تتسمع على الشرق الأوسط من محطة سرية جدا فى جنوب ايران . وبمجرد أن التقطت أمريكا هذه الاشارات أرسل تنبه اسرائيل . وتقول مصادر المخابرات الأمريكية الآن أن اسرائيل فى الواقع قد سئلت فعلا وعلى أعلى المستويات عما اذا كانت لاترى فى هذا دلالة على قرب هجوم مصرى تتوقعه بعض الأجهزة الأمريكية منذ الربيــع ولكن اسرائيل رفضت هذه المخاوف .

« وتماما كما توقع مخططو المعركة فى مصر ، كانت اسرائيل مشغولة بأشياء أخرى ، كان الساســة فى اسرائيل مشغولين بالانتخابات التى بدأت معركتها فعلا . وفوق ذلك كانت الحكومة ذاتها مشغولة بقضايا محلية وخارجية : فى نيويورك بدأت دورة جديدة للأمم المتحدة . وكانت اسرائيل تشعر أن هنرى كيسنجر وزير خارجية أمريكا الجديد يريد أن يبدأ فى محاولة التوصل الى حل لمشكلة الشرق الأوسط . أهم من ذلك أن جاذبية اسرائيل كانت تقل وتخبو حتى بين يهود العالم الخارجى ، والهجرة اليهودية من الدول الغربية صارت صــفرا ، ولم يعد يصــلها مهاجرون « بيض » الا من الاتحــاد السوفييتى . بل ان حمــلات التبرع اليهودية السنوية بدأت تقصر عن الوصول الى الأرقام المحددة لها .

« ويبدو أن التحركات السورية أيضا بدأت حوالى ٢٤ سبتمبر . لم تكن هناك حركة كبيرة نحو الجبهة . ولكن فى هدوء وبترتيب،

كانت الدبابات والمدفعية تتجمع حول خطوط الدفاع الثلاثة التى أقامها السوريون بين الجولان ودمشق . وقد كان من أسباب هذا القلق والانتباه فى واشنطن ، ذلك التوافق الزمنى بين المناورات المصرية قرب القناة وما سمته المصادر الأمريكية « الطبيعة المريبة للحشود السورية فى نفس الوقت » .

« وبعد يومين كان موشى ديان أول من اعترف بقلقه . ففى يوم ٢٦ سبتمبر قام وزير الدفاع بجولة تفتيشية على قواته فى الجولان فى جولته الروتينية قبل يوم السنة اليهودية الجديدة . وقد عاد يقول « على طول الجبهة مع سوريا ، هناك مئات من الدبابات والمدفعية السورية تقف على مرمى خطوطنا ، فضلا عن شبكة دفاع جوى كثيفة شبيهة بتلك التى أقامها المصريون عند قناة السويس » ..

كان ديان قد بلغ قلقه الى درجة جعلته يقوم سرا بأمرين . ففى نفس اليوم اعلن حالة الطوارىء بين القوات الاسرائيلية على الجبهتين . وبعد أيام ، خلال أيام العطلة الثلاثة ، أمر بتقوية القوة المدرعة الاسرائيلية على الجولان بأن اضاف اليها اللواء السابع المدرع الذى يعد من خيرة القوات الاسرائيلية المدرعة ، وكان قد سبق سحبه الى مركز تجمع القوات المدرعة جنوبا عند مدينة بئر سبع . ولعل هذا كان من أهم قرارات الحرب . فلولا هذا اللواء المدرع السابع لخسرت اسرائيل الجولان كله فى الحرب ولكنه فعل هذا كله فى سرية تامة .

وحين تسربت أنباء هذه التحركات العسكرية بعد عطلة الأيام الثلاثة ، قال الرسميون « انها اجراءات عادية تتم فى فترات العطلة ، ورفضوا منع السواح من الذهاب الى الجولان » .

ولم يذكر أحد أنه فى يوم ٢٧ سبتمبر اى بعد زيارة ديان للجولان بيوم أطلق الأمريكيون من قاعدة فاندنبرج العسكرية فى

كاليفورنيا أحد أقمار التجسس الصناعية من طراز « ساموس » فى مدار فوق الشرق الأوسط . ولا شك أن السبب هو أن الأمريكيين شعروا أنه هناك فى المنطقة ما يستحق المراقبة واطلاق سفينة التجسس الفضائية خصيصا لهذا الغرض .

وفى اليوم التالى كانت خطبة السادات يوم ٢٨ سبتمبر ..

ولكن اليوم الثالث ، جاء باحداث جديدة : فقد هاجم بعض الفلسطينيين الذين قالوا انهم ينتمون الى منظمة نسور الثورة الفلسطينية قطارا على الحدود النمساوية يحمل عددا من المهاجرين اليهود قادمين من موسكو فى طريقهم الى اسرائيل . وأخذوا خمسة يهود وموظف جمارك نمسوى كرهائن ، وطالبوا النمسا بأن تغلق مركز تلقى المهاجرين اليهود فى فيينا المعروف باسم قلعةشوناو.وقبل رئيس جمهورية النمسا اليهودى بروفوكرايسكى الطلب وأطلق سراح الراهئن وقامت قيامة اسرائيل .

وليس من المبالغة القول أنه منذ ذلك اليوم حتى بدء الهجوم لم يكن لدى اسرائيل مصدر للهم والغيظ الا هذا الحادث . وقد غرقت فيه تماما الحكومة الاسرائيلية ورؤساء مخابراتها . وكان ذلك غريبا . ففى نفس هذا اليوم ، ٣٠ سبتمبر بدأ وزيرخارجية أمريكا نفسه هنرى كيسنجر يقلق من التقارير عن الاستعدادات العربية . ولكن المخابرات الأمريكية كانت قد تعودت أن تستمع آخر الأمر الى تقديرات المخابرات الاسرائيلية فى هذه الأمور .

قال كيسنجر فيما بعد « لقد سألنا مخابراتنا كما سألنا المخابرات الاسرائيلية ثلاث مرات منفصلة خلال الأسبوع الذى سبق نشوب القتال عن تقديرهم للموقف وما قد يحدث وكان ردهم جميعا أنه لايوجد أى احتمال قط لنشوب القتال » ولكن الحقيقة كانت أكثر تعقيدا من ذلك .

فمن الناحية الفنية كانت المعلومات ممتازة : فمن أجل تسجيل الاستعدادات المصرية يوجد لدى اسرائيل أجهزة استماع فى سيناء امريكية الصنع ويديرها امريكيون . واذا كانت شبكة صواريخ سام قد عرقلت قدرة الطيران الاسرائيلى على التصوير الجوى، فان القمر الصناعى « ساموس » الأمريكى كان يقوم بسد الثغرة حتى نهاية سبتمبر . وقد اعترف كيسنجر بأنه من حيث المعلومات فى حد ذاتها لم يكن هناك اى خطأ . ولكن معرفة المعلومات عادة أسهل من معرفة « النوايا » . كان خطأ اسرائيل فى أن « يتوقعوا هذه الاستراتيجية العربية . وهناك من ينكرون ذلك».

فقد قال الجنرال حاييم بارليف رئيس الأركان الاسرائيلى السابق والذى سمى باسمه خط بارليف « لم يكن هناك نقص فيما يعلن بمعرفة نوايا العرب ولكن ضابط مخابرات اسرائيلى آخر قال « كل ما توصلنا اليه وتوقعناه هو أن العرب سيشنون الحرب ذات يوم قريب » . ولكننا أخذنا فى الموعد على غرة » .

وفى المعلومات الخاصة التى كان الاسرائيليون يعطونها للصحفيين الأجانب ، طوال العشرة أيام السابقة على القتال كان الزعماء السياسيون يؤكدون أن اعرب غير مستعدين للمعركة وأن العرب « ربما يسيئون التقدير » ويشنون هجوما . ولكنهم لو فعلوا فسوف يهزمون فورا . وقال زعيم اسرائيلى فى ثقة « اسرائيل ليست مهتمة بالحرب ـ ولذلك ليس على العرب أن يهتموا بذلك » ..

ويبدو أن المخابرات الأمريكية وصلت رغم معلوماتها الى نفس الاستنتاج ، ففى يوم ٣٠ سبتمبر وبناء على طلب من هنرى كيسنجر أرسلت كل من المخابرات المركزية ومكتب مخابرات وزارة الخارجية تقديرا للموقف بعد هذه الحشود العربية واتفق

الاثنان على أنه رغم كل شيء « فمن المشــكوك فيه » أن يبدأ العرب بأى هجوم .

قال رجال المخابرات الأمريكيين « كانت غلطتنا أننا اعتمدنا تقدير الاسرائيليين فى النهاية » . ولكن المخابرات الأمريكية كانت عينها أيضا فى قبول هذا التقدير السياسى ، على مايدور فى أمريكا ذاتها : وعلى الدورة الجديدة للامم المتحدة فى نيويورك بالذات، وكان كيسنجر نفسه متأثرا فى حكمه بما يدور أمامه فى نيويورك .

فقد قابل كيسنجر وزراء خارجية الدول العربية ووزير خارجية اسرائيل ، وأعلن للجميع من موقف الرجل الذى سيتسلم جائزة نوبل للسلام « ان أمريكا مستعدة للبدء فى عمل ايجابى لتحقيق تسوية سليمة فى الشرق الأوســط . وكان الغداء الذى أقامه للوزارء العرب يوم ٢٥ سبتمبر خطوته الاولى فى هــذا الاتجــاه (وكان قد تحدث فى الواقع مع الاسرائيليين قبل ذلك . وظن كيسنجر أنه أحرز تقدما . قال موظف أمريكى كبير « لقد بدا الوزراء العرب أكثر راحة وثقة فى النفس » . واتفق سرا على أنه يمكن أن تتم لقاءات بعد نوفمبر أى بعد الانتخابات الاسرائيلية للبحث الجدى عن طريق نحو هذه التسوية .

هكذا خدع محللو المعلومات « كان اهتمام العــرب بالجانب الدبلوماسى كبيرا لدرجة قللت من حسابنا لقيمة الحشود العسكرية. كانت لدينا المعلومات ولكننا أخطأنا فهم أولوياتهم » . كذلك ظن كيسنجر أن العرب سيعطون دبلوماسيته الخاصة فرصة أكبر.

فى نفس ذلك اليوم ، ٣٠ سبتمبر الذى وصلت فيه المخابرات الأمريكية الى اقتناع قلق بأن الحرب لن تقع كان الفريق أحمد اسماعيل يرسل أول تعليماته الى القيادة السورية التابعة له.

انه لم يحدد لهم بعد ساعة الصفر . ولكنه أخطرهم أن الهجوم يمكن أن يبدأ فى أى لحظة وان « العد التنازلى » سيبدأ بمجرد اعطاء الاسم السرى للعملية « بدر » .

وفى الصـــباح الباكر ليوم الاثنين أول اكتوبر بدأت الدبابات والمدفعية الثقيلة السورية تتحرك من مواقعها الخلفية الى مواجهة المواقع الاسرائيلية ، وهناك ، لحمايتهم ، كانت شـــبكة الصواريخ التى حذر منها ديان والتى صارت الآن متراصة فى نظام محكم على طول الجبهـــة .

وفى سيناء لاحظ المراقبون الاسرائيليون الموجودون فى حصون خط بارليف نشاطا متزايدا خلف الســـاتر الرملى على الشاطىء الغربى للقناة . وفى يوم ١٠ أكتوبر ذاته شوهدت بطارية صواريخ تدخل مدينة الاسماعيلية . وأحيانا كان يمكن سماع صوت طوابير من الدبابات المصرية تتحرك . كما كان الضباط المصريون يشاهدون فوق حافة القناة وكأنهم يفحصون ويناقشون .وبعد أيام وصلت مجموعات مصرية تجر معابر الى حافة القناة ، وجرافات تمهد لها الأرض ، ولكن لاشىء من هذا كله أثار أى دهشة .. ففى كل مكان على القناة كان المصريون حريصين على أن تكون تصرفاتهم عادية تماما . كان ثمة جنود يجلسون على حافة الماء ، وأقدامهم فى المياه بلا سلاح والجرارات ظلت تمارس نشاطا يبدو دفاعيا لتعزيز الحواجز وعمال الحدائق ظلوا يعتنون بحدائق البيوت المهجورة على شاطىء مدينة الاسماعيلية . ولم يكن باقيا على ساعة الصفر سوى خمسة أيام.

كذلك بالنسبة للمراقبين الاسرائيليين فوق مرتفعات الجولان . لقد تصرف السوريون بذكاء فحشدوا دباباتهم فى تشكيلات دفاعية، داخل الحفر ومدافعها منكسة ومدفعيتهم فى الخلف وكأنها للدفاع عن سوريا وليس للهجوم . حتى حين سحب السوريون بعض قواتهم

من حدود الأردن وأحضروها الى مواجهة الجولان ظن الاسرائيليون أن هذه حركة مصالحة نحو الملك حسين بعد اجتماع القاهرة واعادة العــلاقات .

وفى اليوم التالى ٢ اكتوبر ، استدعت سوريا الاحتياطى . ورأى مراقبو الامم المتحدة الضباط المصريين على طول القناة يعطون جنودهم تعليمات . لقد أبلغت التعليمات للجميع وكان اليوم يوم ٣ أكتوبر .. بناقص ثلاثة أيام ..

فى نفس هــذا اليوم ، الأربعاء ٣ اكتوبر اجتمع مجلس الوزراء الاسرائيلى فى القدس فى اجتماعه الأخير قبل أجازة عيد يوم التكفير . وخصص الاجتماع لدراسة حادث الفدائيين فى النمسا واغلاق معسكر شوناو . كانت جولدا مايير عائدة لتوها من ستراسبورج حيث مزقت خطبتها التى أعدتها عن الصراع العربى الاسرائيلى لتلقيها أمام المجلس الأوربى والقت بدلها خطابا عن حادث النمسا . وقد عادت الآن الى اسرائيل عن طريق فيينا حيث قابلت المستشار كرايسكى فى محاولة لاقناعه بالعدول عن قراره . وكان على مجلس الوزراء الاسرائيلى أن يتناقش حول ما الذى يمكن عمله بشأن هذه المشكلة . ولم يأت قط ذكر للحشود العربية . كان الأمر معروفا فقط لتلك المجموعة الخاصــة من الوزراء التى تضم أولئك الذين تثق فيهم جولدا مايير .

والى جانب عمليات التضليل العسكرية البارعة التى قام بهــا المصريون (سيأتى ذكرها فيما بعد) فقد ألقى المصريون ورقة خداع أخيرة : اذ سربوا الى الدبلوماسيين الأجانب معلومات تقول ان مصر تستعد لمواجهة هجوم يفكر الاسرائيليون فى القيام به ، انتقاما لحادث النمسا . وقد بدا هذا معقولا . بل انه يــكاد يكون صــحيحا . فالمعلومات المتوفرة تقول ان الجنرال العازار اقترح بالفعل شيئا من هذا القبيل .

وفى يوم الخميس — ٤ أكتوبر — كان لدى المخابرات الأمريكية فرصتها الأخيرة . فقد اجتمع ممثلوا الأجهزة المختلفة فى مقر المخابرات المركزية فى « لانجلى » بولاية فرجينيا ليناقشوا سؤالا واحدا : هل هناك حرب ستقع ؟ فمنذ تقارير ٣٠ سبتمبر وكيسنجر يسأل يوميا عن الأخبار والمعلومات وفى هذا اليوم ، الخميس ، طلب كيسنجر تقريرا آخر .

ولكن بينما ساد هذا الاجتماع الأمريكى بالذات جو من القلق ، ظلت اسرائيل على اقتناعها بأن العرب لن يحاربوا .

كان الحشد العسكرى العربى هو القضية الأولى ولكن أقرب اجهزة المخابرات تعاونا الى اسرائيل — المخابرات العسكرية الأمريكية — ظلت تنازع فى جدية الحشود (وقد تم بعد الحرب نقل المسئولين الثلاثة عن الشرق الأوسط فى هذا الجهاز) . وفى نهاية اليوم أرسلت الأجهزة المختلفة خلاصة رأيها : لاحرب . .

واذا أخذنا فى الاعتبار فرق التوقيت بين مصر وأمريكا — ست ساعات ، فمعنى ذلك أن هذا التقرير وصل الى كيسنجر مساء الخميس ، حيث كان الوقت فى مصر فجر يوم الجمعة وبالتالى كانت النذر قد زادت : اذ بدأ هذا الصباح اجلاء عائلات الخبراء الروس من مصر وسوريا وبدا أن القوات السورية تغير مراكزها الدفاعية الى اتخاذ مراكز هجومية . كان هذا صباح يوم ٥ — ناقص يوم .

لقد بقيت ثلاثون ساعة حاسمة على بدء الهجوم . ومع ذلك فالغموض حول هذه الساعات مازال قائما .

هذا الصباح — الجمعة — حاولت القوات الاسرائيلية أن تستعد . كانوا فى حالة تأهب على الجولان منذ تسعة أيام . أى منذ اصدر

ديان أمره بذلك . اليوم . الجمعة ، الساعة الحادية عشرة صباحا أصدر الجنرال العازار رئيس الأركان أمرا بحالة التأهب القصوى والغى كل الأجازات وبدأ يجهز اجراءات استدعاء الاحتياطى .

وأخطر بالأمر بعض البارزين من قواد الاحتياطى . فاستدعى الجنرال أريل شارون من مزرعته فى بئر السبع الى قيادة الجبهة الجنوبية فى الساعة الحادية عشرة والنصف . وكان شارون قائدا للجبهة الجنوبية فى سيناء حتى الصيف ، فلما عين العازار رئيسا للاركان بدلا منه ، قدم استقالته ، ولكنه طبقا للنظام الاسرائيلى بقى — فى حالة نشوب الحرب — قائد القوات من الاحتياطى فلما رأى الصور الجوية للحشود المصرية ومعدات العبور قال « ستقع الحرب فى يوم أو اثنين » ..

على أى حال ، كان الجيش الاسرائيلى قد بدأ يستعد فعلا ، فماذا كانت الحكومة تفعل ؟ ..

لا أحد يعرف ماذا كانت تفعل حكومة مائير حتى مساء الجمعة .. وحتى فى مساء الجمعة رفضت الحكومة قرارا باستدعاء الاحتياطى .

ان مجلس الوزراء لم يجتمع . ولكن مجموعة الوزراء الاقوياء — كالحال فى أى مجلس وزراء — اجتمعوا صباحا على الأغلب وكانوا هم الذين أعطوا الأذن باتخاذ هذه الاجراءات . وفى الساعة الخامسة والنصف اى مع الغروب وبدء عيد يوم التكفير اجتمعت جولدا مايير فى مقر الحكومة بتل أبيب مع أربعة : نائبها ايجال آلون ، وزير الدفاع موشى ديان ، الوزير القوى بلا وزارة اسرائيل جاليلى ، والرابع مازال غير معروف ولكنه من أهم الشخصيات المؤثرة فى اسرائيل ، ثم انضم اليهم وزير التجارة ورئيس الأركان السابق حاييم بارليف ورئيس الأركان الحالى دافيد العازار . وطلب العازار ، دعوة

الاحتياطى ، ولكن المجتمعين رفضوا . وقال العازار فيما بعد « لقد اتخذ القرار على أعلى مستوى سياسى عسكرى » .

وما زال دور ديان فى هذا الاجتماع غامضا . ولكن جولدامایر فى حديث لها يوم ١٥ نوفمبر اشارت بلباقة الى موقفه حين قالت « حين اقترح الشخص المخول بطلب دعوة الاحتياطى تلك ، وافقت على الفور » وهذا الشخص هو بالطبع ديان . « وقد دافع ديان عن نفسه أمام اجتماع غاضب للضباط يوم ١٤ نوفمبر قائلا : « لم أكن الوحيد الذى اتخذ هذا الموقف ولم أسمع أحدا يقول أن الحرب واقعة غدا » .

وهذا صحيح . كان هم الاسرائيليين تحليل مغزى جلاء الروس وليس مغزى الحشود ولم يطلب العازار الا اتخاذ بعض اجراءات احتياطيـــة .

ولكن هذا الوهم تمزق الساعة الرابعة مساء السبت . فقد التقطت أجهزة التصنت الأمريكية والاسرائيلية معـــا الاشـــارات اللاسلكية التى لم يشك احد فى أنها الترتيبات الأخيرة للهجوم . وهنا اقترح العازار أن يقوم الطيران الاسرائيلى بضربة مسبقة مع الفجـــر .

ورفضت مایر الاقتراح ، خوفا من رد الفعل الأمريكى وقالهم لهم « من سيبقى معنا من الأصدقاء لو فعلنا ذلك ؟ » وقد جادلها بارليف والعازار . ولكن ضربة ١٩٦٧ الجوية فاجأت الطيران المصرى مرصوصا فى المطارات ، أما هذه المرة فأى ضربة لن تحدث نفس الأثر ازاء عدو مستعد ، له حماية قاتلة من الصواريخ . أكثر ما كان يمكن أن تحققه مثل هذه الضربة ارباك الهجوم ساعات قليلة مقابل خسائر فادحة فى الطيران الاسرائيلى .

وأكد ذلك السفير الأمريكى فى اسرائيل حين أوقظ فى السادسة صباحا ليقابل جولدا مايير . قال لها « اذا عدلت اسرائيل عن الضربة الأولى ، وأوجدت بذلك الدليل القاطع على أن العرب هم الذين بدأوا القتال ، فان أمريكا ستكون ملزمة بمساعدتكم » .

وصدر أمر استدعاء الاحتياطى . فى نفس الوقت طلبت اسرائيل من كيسنجر أن يحيط العرب علما أن هذا ليس معناه نية أى هجوم من جانب اسرائيل .

كان هذا فى نيويورك منتصف ليلة السبت وكان البنتاجون قد غير رأيه واقتنع بأن هناك حربا ستقع . ولكن كيسنجر ، متأثرا بالتقارير السابقة عن استبعاد الحرب ، لم يجد داعيا للقلق ولكنه ابلغ الرسالة الى السفراء العرب على أى حال . وذهب لينام فى جناحه فى فندق والدورف استوريا فى نيويورك متوقعا أن يبدأ اليوم التالى عطلة آخر الاسبوع . كانت الساعة وقتها فوق سيناء السابعة صباحا . كان يوم الهجوم ..

ورغم كل استعدادات الأيام الاخيرة كانوا فى اسرائيل مطمئنين نسبيا بسبب مناعة خط بارليف على شاطىء القناة . لم يكونوا يعرفون أنه فى ساعات الظلام قبل الفجر بقليل كانت قوات كوماندوز مصرية قد عبرت القنـاة وعطلت مواسـير خط بارليف التى كان مفروضا أن تصب النار الملتهبة فوق سطح القناة عند أول اشارة : كان أول سلاح سرى لاسرائيل ضد الهجوم قد تعطل : لم يعـد ممكنا اشعال النار فى قناة السويس ..

ان خلاصة هذه المعلومات المتوفرة عن « المفاجأة » وعن هذه الفترة الحرجة فى حياة اسرائيل ، لتلقى الضوء على أشياء كثيرة هـامة :

فلا شك أن ترتيبات التضليل الاستراتيجية والتكتيكية التي اتبعها الجانب المصرى ، كانت ناجحة الى حد ليس له مثيل ، اذ انهـا أخرت احساس الاسرائيليين بذلك حتى آخر لحظة ممكنة ..

فحشود بمثل هذا الحجم لم يكن ممكنا الاحتفاظ بعملية دفعهـا الى الجبهة وأخذ مواقع الهجوم الى ما قبل الهجوم بأيام قليلة .. الا بدرجة عالية من الاتقان فى دراسة كل تفاصيل التحرك العسكرى المعقد ...

ثم أن هذا لم يكن هجوما عسكريا على جبهة عادية ولكنه ـ فى الجبهة المصرية ـ كان يواجه حاجزا مائيا عويصا ، يتلوه خط دفاع قوى مدروس (سيأتى ذكره تفاصيله) ، يطرح مئات المشكلات الفنية .. الأمر الذى يضيف الى عملية القناة وحشد قواتها وأسلحتها عمليات أخرى فنية معقـدة ، لها معداتها واجهزتها التى تحتاج ايضا الى أعداد ضخم يصعب أخفاؤه ..

ولكن القيادة المصرية نجحت فى هـذا التضليـل الاستراتيجى ، وأخرت احساس العدو بالخطر الى آخر لحظة ممكنة ...

على أن كافة التقارير تشـير الى أن اسرائيل توفرت لديهـا معلومات كافية عن نوايا عدوها وذلك عن طريق أقمار التجسس الامريكية فى الدرجة الاولى ، وسائر وسائل الاستطلاع ، وذلك قبل الهجوم بوقت كاف ..

قبل الهجوم بوقت كاف على الاقل بالنسبة لاسرائيل ...

لان اسرائيل تزهو ـ فى الجانب العسـكرى ـ على العـالم بسرعتها القياسية فى تعبئة جيوشها واستدعاء الاحتيـاطى اذ أن بجيشها له وضع خاص هو أن معظمه يعد من الاحتياطى » ..

ونظام استدعاء الاحتياطى الاسرائيلى يقتضى : أن تتم تعبئتـه كاملا خلال ٧٢ ساعة من لحظة أول انذار : ٥٠٪ من الوحـدات تكون جاهزة فى يوم التعبئة ذاته — ٧٥٪ من الوحدات تصبح جاهزة بعد ٤٨ ساعة — ١٠٠٪ من الوحدات تتم تعبئتها ، وفى اماكنهـا القتالية المعدة لها ، خلال ٧٢ ساعة أى فى آخر اليوم الثالث من لحظة بدء الانذار (١) .

---

(١) أنظر كتاب « المذهب العسكرى الاسرائيلى » بقلم هيثم الكيلانى صفحة ١٧٧ وما بعدها « تتبع اسرائيل فى تعبئة قواتها وتوجيهها الى مواقعها القتالية احدى طريقتين : التعبئة بواسطة الاذاعة ، أو التعبئة الصامتة . وتقوم الطريقة الاولى على اذاعة سلسلة من الرموز يشير كل منها الى وحدات احتياطية معينة ويلى ذلك اشارات تحدد المكان والزمان اللذين يجب على أفراد تلك الوحدات التجمع فيها . أما الدعوة الصامتة وكالتى استخدمت عامى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ فتشتمل على عدة مراحل تبدأ الاولى بتوجيه رسالة من الضابط آمر الوحدة الاحتياطية . وحالما يتلقى هذا الآخر الرسالة يوجه بواسطة عدد صغير من الرجال المنتخبين أوامر شخصية الى كل فرد من أفراد وحدته ويدعوهم فيها الى التقدم خلال ٢٤ ساعة الى مركز التعبئة المحدد .. وبعد أن يصل الافراد الى مركز التعبئة توزع عليهم التجهيزات الميدانية والاسلحة والذخائر وتقدم اليهم وسـائل النقل التى جرت تعبئتها فى الوقت ذاته . وهكذا تتحرك الوحدة جاهزة للقتال الى المكان الذى تعينه القيادة .

« وقد اقتبست اسرائيل اسس نظام التعبئة السويسرى ، وأدخلت عليه تعديلات تناسب ظروفها ، ففى سائر البلاد حينما ينهى الشباب خدمتهم العسكرية يعودون الى بيوتهم ويقطعون صلاتهم بوحداتهم التى أدوا فيها الخدمة الالزامية اما فى سويسرا أو اسرائيل فان كل سرية احتياطية تبقى جهازا عضـويا حيا له مهنته الدائمة ولا يجوز لهم التخلى عن واجباتهم حين ينصرفون الى حياتهم المدنية .. ويستنفد الفرد الاسرائيلى خلال العام الواحد عدة مرات ، سواء للتدريب أو بتبليغ تعليمات جديدة ولا يحمل الاسرائيلى سلاحه الى بيته ولكنه يحمل بزته العسكرية .

« ... ويحتفظ كل فرد احتياطى فى دفتره العسكرى ، خلف صورة الهوية بقصاصة ورق تشير الى « كلمة التعارف على التعبئة » . أما مكان التجمع فانه يسجله فى ذاكرته . وليس هذا المكان ثكنة أو معسكر ، ولكنه مكان غير معرض للاستطلاع فى مزارع البرتقال مثلا وغابات الصنوبر أو الملاعب الرياضية » .

« وفى حرب ١٩٦٧ ، صرفت القيادة عددا كبيرا من الجنود الى بيوتهم بغيـة التعمية والتضليل بعد استنفار دام خمسة عشر يوما تم استدعاءهم خلالها بالطريقة الصامتة ، وفى صبيحة ٥ يونيو استدعيت الوحدات عن طريق الاذاعة ، اذ ظل المذيع يقرأ ألغازا غريبة لا تتيح لأحد تحديد هوية الاسلحة أو الوحدات المدعوة » .

وقدا سبق ذكر كيف أن موشى ديان اشتبه فى الحشود السورية منذ يوم ٢٦ سبتمبر على الاكثر وأمر باستدعاء اهم لـواء مدرع اسرائيلى من بئر سبع ـ جنوب اسرائيل عند مدخـل النقب .. لاتخاذ مواقعه فى الجولان . وكيف أن أمريكا اطلقت فى اليوم التالى مباشرة ٢٧ سبتمبر ـ قمرا صناعيا من طراز « ساموس » أخـذ مداره فوق الشرق الأوسط ليتجسس على كل التحركات المصرية والسورية وان ما أرسله من معلومات كان مثيرا للقلق . ثم توالت النذر بعد ذلك كما سبق ذكره ...

هل يمكن القول بان رد الفعل الاسرائيلى هو مجرد اهمال من بعض الافراد ؟ ....

ان « لجنة التحقيق فى الحرب » التى شكلتها اسرائيل بعـد الحرب لتهدئة الرأى العام ولايقاف حملات الاتهـام المتبـادلة بين الزعماء السياسيين والقادة العسكريين على السواء ، تستمع الى كثير من الاقوال وما يتسرب منها قليل . ولكن بعض ما تسرب غير مقنع تماما .. وان كان يدخل فى باب القاء كل طرف المسئولية على الآخر خصوصا وان هذا كان قبل الانتخابات العامة فكون ايجال آلون كان فى قريته ولم يصل الا متأخرا فى اجتماع مجلس الوزراء الحاسم أو كون بنحاس سابير لم يتـم استدعـاءه ولا اخطـاره بالمعلومات مقدما ولكنه لاحظ حركة التعبئة فى الطريق فأسرع الى مكتب جولدا مايير والقول بانهم ضغطوا التعبئة من ٢٤ ساعة الى ٦ ساعاتادى الى درجة منالتراخى كما قالونستون تشرشل المؤرخ المتحيز لاسرائيل فى مؤلفاته عن حرب ٦٧ ، فيما كتبه عن حرب ٧٣ ... أو قوله « انه حدث تفكك كبير فى سلسلة القيادة فبالرغم من أن مقر القيادة كان فى حالة تأهب تام الا أن الجبهتين لم تبلغا بشىء » ولم يكن هذا فقط بالنسبة للجنود الـذين كان أول ما عرفوه من

مظاهر الحرب هو ستار المدفعية الحاشد وانطلاق طائرات الميج فوق رؤوسهم فى هجوم فعال .. بل كان الامــر كذلك بالنســبة للجنرالات انفسهم » ... كل هذه تفاصـــيل لا تحجب الحقـــائق الكبرى ..

ان العناصر التى يمكن أن تكون ساهمت كلها أو معظمها فى رد الفعل الاسرائيلى يمكن اجمالها فى التالى :

اولا ـــ نجحت القيادة المصرية رغم اكتشاف العدو لحركة القوات غير العادية ، فى ابقاء نواياها النهائية غامضة وهل هى الحرب ، ام الضغط ، أم المناورات ، أم الاستعداد للرد .

ثانيا ـــ أن اسرائيل كانت اكبر من خدع نفسها . فهى كانت كما قال معظم المعلقين الاجانب بعد ذلك ـــ ضحية الاســـطورة التى خلقتها عن قوتها التى لا رادع لها على الاطلاق والأسطورة الثانية التى أوهمت بها العالم وأوهمت نفسها عن أن العرب لن يحاربوا قط . لقد حفل كل الأدب الاسرائيلى السياسى والفنى والعسكرى منذ ١٩٦٧ بأنواع التهويل من كفاءة الاسرائيلى وعجز العـــربى ، كجزء من الحرب النفسية ضدنا ونحوالعالم كله ،وكتصعيد لوضعها واغراء حلفاءها بمساعدتها ويهود العالم بالتبرع لها والهجرة اليها ولكنها صدقت هذا فى النهاية . ولعب هذا دورا كبيرا فى بقائها حتى وقت متأخر معتقدة أن العرب لا يمكن أن يشنوا الحرب فعلا .

ثالثا ـــ مناعة خط بارليف جنوبا وهضبة الجولان شمالا . فقد انفقت على هذه التحصينات بحيث كان من حقها أن تطمئن الى انه حتى فى حالة الهجوم المفاجىء ، تستطيع هذه الخطوط الدفاعية أن تصد أى هجمات وقتا كافيا حتى تستدعى هى كافة قواتها ـــ اكثر من ١١٪ منمجموع السكان اليهود ـــ وترد الضربةوتسحق العدو .

ويعترف وينستون تشرشل فى كتاباته بعد أن زار اسرائيل عقب حرب ١٩٧٣)) .. بعد نجاح حرب الايام الستة عام ١٩٦٧ تملك الاسرائيليون احساس بالزهو والغطرسة، وقد قال لى احد كبار القادة الاسرائيليين ((اذا كنا على مسافة ساعتين زمنيا من دمشق و ٣ ساعات من القاهرة . فمن من كان فى حاجة الى أن يحمل هجوم العدو على محمل الجد ؟)) ..

ولولا استهانتهم الشديدة بالعرب لا ستنتجوا العكس تماما وهو: انه مع وجودهم على بعد ساعات من القاهرة ومن دمشق كان لابد لمصر وسوريا من أن تحاربا ..

رابعا ــ أن ادراك اسرائيل لعزلتها الدولية وانكشاف موقفها كدولة معتدية بالاضافة الى ثقتها المطلقة فى النفس ورغبتها فى أن تخوض الحرب الجديدة من موقف ((المعتدى عليه)) كل هذا ساهم فى اتخاذها ما وصفه دافيد العازار بانه ((قرار على أعلى مستوى سياسى وعسكرى)) بعدم توجيه ضربة مسبقة حتى بعد أن تأكد لها أن هناك هجوما ما ...

خامسا ــ اننى اطرح هنا احتمال أرى أن هناك كثيرا من الظواهر التى تؤيده ولكن الأيام وحدها هى التى سوف تؤكده أو تنفيه وهو : أن اسرائيل بكل عوامل غرورها السابقة كانت ((تريد)) هذه الحرب .. لأنها كانت تتوقع نتائج اخرى تماما !!

فمنذ ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٣ كان هناك أحساس لدى كثيرين من العناصر القيادية الاسرائيلية بان حرب ١٩٦٧ حققت النصر العسكرى « دون النصر السياسى المطلوب » . وكان هناك فريق قوى يرى أنه لا مفر من « حرب أخرى واخيرة » تفرض فيها شروطا للتسوية فرضا على العرب ، وفريق آخر يرى انه «طالما

ان العرب لن يحاربوا فلا داعى لان نبدأ حــربا جــديدة . أما الازعاجات العسكرية المحدودة فيمكن العيش معهــا زمنا حتى تستنفد طاقتها وتذبل » .

ولا استبعد انه فى اتخاذ هذا القرار السياسى العسكرى على أعلى مستوى بعدم توجيه ضربة مسبقة ولو فجر يوم القتال اتخــذ بخلفية مشتركة من هذه الثقة بالنفس والازدراء للعدو ، وباتفاق الفريقين على انه : **اذا كانت هذه مظاهر لن تؤدى الى الحــرب فعلا فنحن باقون فى سلام .. واذا كانت هى الحــرب .. فلنترك العرب يبدأونها ، وسوف نسحقهم بسرعة ، وساعتها لا يكــون لديهم أى عذر» ..**

وهذا لم يمنعهم كما سبق ذكره من البدء فى اتخاذ ترتيبــات كثيرة من بينها استدعاء الاحتياطى قبل الحرب ...

كانت المفاجأة ناجحة . ولكنها لم تكن وحــدها سبب النصر . وتركيز الاسرائيليين وعملاءهم من الكتاب والمحللين فى الغرب على عنصر المفاجأة وحده ، يستهدف ابقاء الاسطورة ، من أن هزيمتهم كانت عارضة ، وتستهدف التقليل من الكفاءة القتالية العربيــة ، حين بدأ القتال فعلا ، ودورها الباســل والاســاسى فى تحقيق ما حققته .

●

فى الجانب العربى ، كيف حددت ساعات الصفر ؟ ...

ان الاعداد والحساب والتقدير الذى ادى الى هذا التحديد يعطى وحده فكرة عن أن النصر جاء نتيجة الكفاءة التخطيطية والقتاليــة معاً ...

يقول الفريق أول احمد اسماعيل فى حديثه مع محمد حسنين هيكل (الأهرام ١٨ نوفمبر ١٩٧٣) :

لقد كان تحديد يوم ((ى)) عمليا علميا على مستوى رفيع . وحين نطرح وثائقنا كلها للدراسة التاريخية فان هذا العمل سوف يأخذ حقه من التقدير وسوف يدخل التاريخ العلمى للحروب كنموذج من نماذج الدقة المتناهية والبحث الامين :

كان لابد أن يتحرك الموقف من وجهة نظر التقدير السياسى سنة ١٩٧٣ بعد وصول التأييد العربى والعالمى لنا فى كل المجالات الى الذروة العالية التى لا مجال بعدها لاضافة الا لاضافة نصفها نحن بقوة السلاح ..

هذا من وجهة نظر عامة ..

ومن ناحية التحديد فقد كنا نريد ما يلى :

١ — ليلة مقمرة يتصاعد فيها القمر معنا فى الساعات الحاسمة .

٢ — ليلة يكون تيار القناة فيها مناسبا للعبور من ناحية السرعة .

٣ — ليلة يكون عملنا فيها بعيدا عن توقعات العدو .

٤ — ليلة لا يكون فيها العدو نفسه مستعدا للعمل .

هذه الميزات كلها حددت لنا يوم ٦ اكتوبر من قلبها بشهور :

● فالحسابات الفلكية تعطينا فى تلك الليلة قمرا ينمو فى أول الليل ثم يغيب فى آخره .

● وعلماؤنا فى القوات المسلحة درسوا تقارير هيئة قناة السويس لسنوات طويلة سبقت لكى يحسبوا سرعة التيارات فى كل يوم من أيام السنة وكان يوم ٦ أكتوبر أكثرها مناسبة .

● العدو لا يتوقع منا العمل فى شهر رمضان .

● العدو مشغول بمناسبات مختلفة بينها انتخاباته العامة التى تشد اهتمام الجميع .

● لقد كان شهر رمضان هو الذى أوحى لنا باختيار الاسم الرمزى لعملية الهجوم كان الاسم الرمزى هو « بدر » تيمنا بغزوة بدر .

كان الرئيس انور السادات من وجهة نظره السياسية يسميها عملية « الشرارة » وأما الاسم الرمزى فى كل خططنا العسكرية فقد كان « بدر » .

ذلك كل ما أستطيع أن اقوله الآن عن تحديد يوم « ر » .

وأما عن تحديد ساعة « س » — فقد ظل الموعد الى ايام قبل بدء القتال موضوع مناقشة بيننا وبين أخواننا فى سوريا .

كان السوريون لعدة اسباب من بينها اتجاه الشمس معهم وضد العدو يفضلون العمل مع أول ضوء فى الفجر . وكنا نحن — لعدة اسباب من بينها الى جانب اتجاه الشمس ، وضرورات العبور ونصب الكبارى وفتح الطريق لدخول المعدات الثقيلة كالدبابات فى ظلام الليل — تفضل العمل فى آخر ضوء فى المساء .

وكنت بوصفى قائدا عاما للجبهتين قد بعثت الى السوريين يوم ٣٠ سبتمبر باشارة التحذير بأن العملية محتملة فى اى وقت — وهنا باشارة تقول : « بدر » ..

وسافرت بنفسى الى سوريا يوم ٢ اكتوبر وتناقشنا حول

الساعة ، وبعد دراسة تفصيلية صدق عليها الفريق حافظ الاسد تحددت الساعة الثانية بعد الظهر موعدا ((للساعة س)) .

●

لم يكن الاختيار اذن ليوم ٦ أكتوبر سببه أنه « يوم عيد التكفير » فاجازات اليهود التى لا يعملون فيها كثيرة ، ولهم يوم كل اسبوع . ولا توجد دولة تأخذ كلها ، خصوصا جيشها ، يوما أجازة ..

●

وصف المحلل العسكرى العربى المقدم هيثم الايوبى (مجلة شئون فلسطينية عدد نوفمبر ٧٣) خط بارليف وصفا مفصلا دقيقا كالتالى :

عقب وقف اطلاق النار فى حرب ١٩٦٧ اقامت القيادة العسكرية الاسرائيلية مجموعة من المراكز الدفاعية الخفيفة العادية على طول القناة . ولكن عندما بدأت المدافع المصرية فى أكتوبر ١٩٦٨ تمارس دفاعا أيجابيا فى مواجهة الاعتداءات الاسرائيلية على مدن القناة وخاصة بعد أن تعززت قواها بوصول مئات من قطع المدفعية الجديدة من الاتحاد السوفيتى شعرت القيادة الاسرائيلية أن هناك ضرورة لمواجهة احتمال ممارسة مصر للضغط عن طريق القصف المدفعى المركز الذى يهدف الى حرمان اسرائيل من حق التواجد المستقر الهادىء على الضفة الشرقية للقناة ، عن طريق اقامة خط دفاعى قوى نسبيا يقلل من حجم القوات اللازمة للسيطرة على ضفة القناة وهو هدف سياسى أساسا — ويقلل فى الوقت نفسه من الخسائر التى يمكن أن تلحق بها نتيجة لقصف المدفعية ورصاص القناصة المصريين .

ولذلك شنت القيادة الاسرائيلية عمليات ردع غير مباشرة فى

مؤخرة الجبهة المصرية البعيدة بواسطة وحدات فدائية محمـولة جوا (الغارة على محطة كهرباء قرب نجع حمادى وعلى جسر نجع حمادى) حتى تربك القيادة المصرية وتجبرها على ايقاف قصفه المدفعية بعض الوقت وتتيح بذلك فرصة اقامة الخط المذكور .

وكانت المشكلة العسكرية والفنيـة المطروحـة على القيـادة الاسرائيلية وقتئذ فى ظل فترة رئاسة الجنرال خاييم بارليف للاركان وهى كيف يمكن التوفيق بين اعتبارين متعارضين أولهمـا ضرورة وجود قوات كافية للسيطرة على خط القناة معرضة بشدة لتركيز المدفعية داخل تحصينات منيعة توفر لها الحماية والمقدرة على تغطية القناة بالنيران الرادعة للمصريين حتى لا يفكروا فى عبـور القناة مع ما تفرضه هذه الضرورة من تثبيت حركة قوات كبيرة داخل مواقع ثابتة وعدم جدوى هذه المواقع الامامية فى حالة عدم وجـود عمق دفاعى مكمل لها وبين ضرورة الاحتفـاظ بقوات احتيـاطية رئيسية متحركة للقيام بالهجمات المعاكسة تتفق وأسلوب حـرب الحركة الذى درب الجيش الاسرائيلى عليه ومارس قتاله العملى وفقا له دائما فى حربى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ . بمعنى أن اقامة خط دفاعى ثابت يتطلب أن تكون شبكة المواقع الدفاعية المقامة على طـول القنـاة ذات عمق كاف والا تعرضت للاختراق نتيجة تركيز قوة متفوقة فجأة عند أى نقطة فى الخط مدعومة بقوات محمولة جوا بطائرات الهليكوبتر يجرى ابرازها فى مؤخرة الخط والانقضـاض عليه من الخلف . وهذا يفترض حشد قوات كبيرة — فضـلا عن النفقات المالية الضخمة للمنشآت — الدفاعية — وتثبيت حركتهـا فى الوقت نفسه وكلا من الامرين لا يتوافقان مع امكانيات اسرائيل من حيث الطاقة البشرية ومن حيث ضرورة أن تكون قوتها الرئيسية متحركة حتى تستطيع أن تناور بها على الخطـوط الداخليـة بين الجبهات المختلفة بمرونة وسرعة .

وكان الحل الممكن واقعيا هو انشاء مجموعة من النقاط الدفاعية القوية التحصين على مقربة شديدة من القناة بلغ عددها ٣٥ نقطة قوية تبدأ من أول الكيلو متر ١٠ شمالا حتى بور توفيق جنوبا ، وهى مسافة قدرها ١٢٣ كيلو مترا أى بمعدل نقطة حصينة لكل اربعة كيلو مترات ، باستثناء منطقة البحيرات المرة ، تدعمها فى المؤخرة قوات مدرعة ميكانيكية تمثل القبضة الضاربة المتحركة المساندة للنقط الدفاعية التى كان يفترض أن تعيق عمليات العبور المصرية المحتملة لحين تحرك القوى المتحركة وتحديد اتجاهات العبور الرئيسية وبطبيعة الحال اعتبر الطيران هو القوةالضاربة الاساسية المساعدة وقدا تم انشاء مجموعة النقط القوية هذه بحيث تتسع كل منها لقوة كتيبة تقريبا عند الاقتضاء ، ويفصل بين كل نقطة واخرى بضعة كيلو مترات قليلة يمكن تغطيتها بالنيران الصادرة من النقط المتعاونة مع بعضها البعض ووضعت هذه النقط على مقربة شديدة من ضفة القناة لتستطيع أن تراقب الحركة عليها وتغطيها بنيرانها المباشرة والمؤلفة من الرشاشات والبنادق والاسلحة المضادة للدبابات بالاضافة الى نيران المدفعية والهاونات الموضوعة فى مواقع خافية . وقد تم سقف الملاجىء والدشم التى تضم الاسلحة المستخدمة داخل النقط الدفاعية فى بداية انشاء الخط الدفاعى المذكور الذى حمل اسم قائد الاركان الاسرائيلى حاييم بارليف فى أواخر عام ١٩٦٨ وبداية ١٩٦٩ بكتل من القضبان وفلنكات السكك الحديدية وبكميات كبيرة من اكياس الرمل لتقليل النفقات المالية .

ولكن ثبت ضعف هذه البنية الهندسية فى مواجهة قصف مدفعية الميدان المصرية من عيارات ١٢٢ مم ، و ١٦٠ مم .. وذلك عندما بدأت حرب الاستنزاف بالقصف المدفعى ، الشهير يوم ٨ مارس ١٩٦٩ والذى أدى الى تدمير ٦٠٪ من دفاعات الخط خلال —

الشهرين التاليين . ولذلك جرى بعد ذلك وخاصة بعد اطلاق النار عام ١٩٧٠ اعادة بناء النقط الدفاعية وتجهيزها بشكل أقوى وأحدث وسقفت المخابىء والدشم المحفورة تحت الأرض بكتل سميكة منيعة من الأسمنت المسلح تستطيع أن تتحمل الاصابات المباشرة من قذائف المدفعية وقنابل الطائرات التى زنتها الف رطل . وجهزت المخابىء بكافة وسائل الراحة التي تمكن الجنود من الحياة دون التعرض لخطر القصف المدفعي بما فى ذلك دورات المياه غير المألوفة ميدانيا ووجود مخزون كبير من المياه والمؤن والذخيرة ونقط مراقبة تلسكوبية لعدم تعريض المراقبين لنيران القناصة وبلدوزر لاعادة فتح طرق المواصلات عند الضرورة بين الرمال نتيجة للقصف وطبيب مقيم . كما ربطت كل نقطة دفاعية بشبكة الاتصالات التليفونية العسكرية المتصلة بالشبكة المدنية حتى يستطيع كل جندى الاتصال ببيته كل يوم اذا رغب فى ذلك لرفع معنويات الجنود وعدم شعورهم بالعزلة. هذا وقد أحيطت النقط القوية من كل اتجاه بحواجز قوية من الأسلاك الشائكة والألغام وبمختلف وسائل الأنذار . ومدت أنابيب المياه الى أقرب أماكن ممكنة من النقط وبحيث تكون الانابيب غير مكشوفة من الجو قدر الاماكن (أى تحت الارض) ، كما درب الجنود العاملون فى النقط الدفاعية على العمل كمراقبين أرضيين مساعدين للطيران لتسهيل التعاون بين النقط ولدعم الجوى المباشر لها . وكذلك للعمل كمراقبين معاونين للمدفعية ذاتية الحركة والدبابات المحتشدة فى العمق التكتيكى كاحتياطى متحرك والتى كان يجرى ، تحريكها باستمرار من موقع لآخر معنا لتحديد مواقعها بصورة ثابتة دائمة للمدفعية المصرية التى تقع داخل القناة أمام مرماها البعية .

هذا كما اقيم على امتداد ضفة القناة أمام النقط الدفاعية حاجز رملى يبلغ ارتفاعه ما بين ١٢ و ٢٠ مترا عن سطح الماء بواسطة

الجرافات الضخمة وذلك لاعاقة الآليات البرمائية المصرية عند محاولتها عبور القناة وتسلق الضفة الشرقية . وجهز هذا الساتر الترابى بين النقط القوية بخزانات مملوءة بمواد ملتهبة ومواسير خاصة تصل لسطح القناة لعمل ستارة من النيران فوقها .

وقد قدرت جملة نفقات الخطة المالية بنحو ٢٣٨ مليون دولار . وشبه الكاتب العسكرى الامريكى المقدم ارفينج هيمونت خط بارليف هذا بخط « مينيسوتا » الدفاعى الامريكى الذى اقيم خلال المراحل الاخيرة من الحرب الكورية . ولكن الجندى المصرى والتخطيط العسكرى المصرى الجيد الذى وصل الى حد اقامة نماذج للخط وتدريب الجنود عليها حطما أسطورة خط بارليف الذى قيل انه لا يقهر يوم ٦ أكتوبر المجيد » .

وفى ابريل ٦٩ ، وصف الجنرال ابراهام دان مدير المدرعات الاسرائيلى خط بارليف ايضا فقال « أن الاستحكامات التى اقامتها اسرائيل على الضفة الشرقية للقناة والمسماة بخط بارليف قد غيرت الموقف العسكرى تماما لصالح اسرائيل » .

وقال الجنرال بارليف نفسه فى أبريل ٧١ « أننى متأكد من أن مصر اذا استأنفت القتال لن تتمكن من تحقيق أى عبور لاستحالة اجتياز خط الدفاعات الاسرائيلى المقام على امتداد الضفة الشرقية للقناة كما أن قواتها لن تتمكن على الاطلاق من عبور قناة السويس بسبب ما يشكله هذا الخط الحصين من القوات التى قد تحاول العبور » .

وكنت قد سمعت بارليف على التليفزيون الامريكى فى سنة ١٩٧٠ يقول : أن المصريين لا يعرفون أى جحيم سينصب عليهم بمجرد أن يضعوا أقدامهم خارج الضفة الغربية للقناة .

ووصف المراسلون الذين زاروا خط بارليف بعد سـقوطه بأن تحصيناته مكونة فى الواقع من ثلاث طوابق : الطابق السفلى يضم مخازن الطعام والذخيرة ، ووسائل توليد الكهرباء والتهوية والمياه الجارية والطابق الثانى مخصص لحياة الجنـود .. من غـرف ودورات مياه مجهزة بكل شىء بما فى ذلك قاعة صغيرة لعـرض الافلام والطابق الثالث هو المخصص لمباشرة القتال منه وهو محصن فوق الأرض ، بأسقف وجدران لا تخترقها القنابل .

اما موشى ديان فقد قال ان خط بارليف أكثر تحصينا وتنظيما من اى خط مشابه وانه منيع لدرجة تسمح لنا بالاحتفاظ به الى الابد .

وقد قال موشى ديان بعد ذلك عندما استولت قواتنا على خط بارليف هذا انه كان كقطعة الجبن المليئة بالثغرات ، تهوينـا من ضربه وتدميره والاستيلاء عليه . ولكنه فى الواقع لم يصبح حقـا كقطعة الجبن الا بعد أن اقتحمه جنودنا واستولوا عليه بأكمله ..

★

كيف يمكن وضع تصور لخطة عسكرية ازاء هذا الوضع ؟ ...

أعود الى حديث القائد العام الفريق أول أحمد اسماعيل :

كانت المشكلة بالنسبة لقواتنا أن الظروف فرضت عليهـا أن تعيش ست أو سبع سنوات فى الدفاع .. معظمها فى الدفـاع الجامد ، والقوات على هذا النحو ، أى قوات فى الدنيا ، معرضة لما نسميه فى العسكرية « بمرض الخنادق » . كان لابد أن نتخلص من تأثير مرض الخنـادق وعقـده وركزت فى تلك الفترة (فترة الاستعداد للمعركة) على مجموعة ضرورات رأيت اننا بغيرها لن نستطيع عمل شىء ...

أول هذه الضرورات أن تقتنع القوات بانه لا مفر من القتـــال ولا حل بدونه .

وقمت بزيارات للقوات المسلحة فى مواقعها اشرح الظـــروف للرجال واقول لهم أن الوضع الذى نحن فيه لابد من تغييره ، واذا لم نغيره نحن فان العدو قد يفرض علينا التغيير ، ومعنى ذلك اننا اذا لم نبدأ القتال فان العدو سوف يبدأ هو بالقتـــال لان حـــالة اللاسلم واللاحرب غير قابلة للاستمرار الى مالا نهاية .

وكانت الثانية بين الضرورات أن يأخذ الرجال ثقة فى سلاحهم . وكنت أريد تغيير المفهوم القديم ، بان الرجل بالسلاح والحقيقة أن السلاح بالرجل .. اذا لم يكن واثقا من نفسه فلن يحميه أى سلاح واذا كان واثقا فان كل سلاح فى يده يحميه .

ربما نستطيع أن نفهم فى التطبيق العملى اذا تذكرنا أن طائرة من طراز ميج ١٧ تمكنت أثناء القتال من اسقاط طائرة فانتوم ، وهذا ما أقصد بان السلاح بالرجل وليس الرجل بالسلاح .

وثالث هذه الضرورات وهى تتصل بذلك مباشرة : أن يكون التدريب كثيفا فاذا كان السلاح بالرجل فذلك يعنى أول ما يعنى قدرة الرجل على استيعابه والسيطرة الكاملة عليه .

وكانت الرابعة بين الضرورات .. أن نجعـــل قوات أدركت حتمية القتال ، وعرفت قيمة سلاحها واحسنت التـــدريب عليه ـــ ترى رأى العين ما سوف تواجهه وتكسر الرهبة ما بينها وبينه ، وهكذا بدأنا نختار للتدريب ميادين قريبة الشبه الى أقصى حـــد بظروف وطبيعة المهمة التى سوف تقوم بها القوات وأولها عبـــور القناة ، اخترنا مناطق للتدريب فيها مجار مائية ، بعمق القنـــاة

تقريبا ، وعليها سواتر بارتفاع سواتر القناة وفيها تيارات بقوة تيارات القناة . بل اننا فى بعض المرات اجرينا تدريباتنا على القناة ذاتها فى منطقة فيها تمتد فى فرعين احدهما الى ناحيتنا وكان تحت السيطرة الكاملة لقواتنا .

فى ذلك الوقت كانت الخطة العامة لما سـوف نقـوم به تختمر وتتبلور .. تظهر ملامحها شيئا فشـيئا بالدراسـة المسـتمرة والتطوير .

ثم بدات الخطة ذاتها تتبلور وتستقر عند منطلقاتها الاساسية ، ثم تفاصيلها ..

يقول القائد العام :

« كيف يمكن وضع تصور لخطة عسكرية ازاء هذا الوضع ؟.

« وكان تقديرى بالنسبة للعدو انه يملك أربع ميزات اساسية :

- تفوقه الجوى .
- مقدرته التكنولوجية .
- تدريبه الدقيق .
- اعتماده على معاونة سريعة منّ الولايات المتحدة الامريكية ، تكفل له امدادا مستمرا .

ولكن هذا العدو كانت له عيوبه الاساسية الى جـانب ميزاته الاساسية :

- خطوط مواصلاته طويلة كما أن هذه الخطوط على الجبهات المتعددة ممتدة يصعب الدفاع عنها .

- أوضاعه البشرية لا تسمح له بتحمل خسائر كبيرة .

- ظروفه الاقتصادية تمنعه من قبول حرب طويلة الامد .

- ثم هو عدو أصابه الغرور .

وكان علينا أن نحاول قـدر ما نسـتطيع تلافى نقط امتيازه واستغلال نقط ضعفه . ولست اريد أن ادخل فى تفاصيل كل ما عملناه لتحقيق هذا المنطق ولكن سوف أركز على نقطة واحـدة لعلها تشرح هذا المنطق .

لقد اخترت مثلا أن يكون هجومنا على خط المواجهة .. على خط يمتد ١٨٠ كيلو مترا ، بطول القناة من بور سعيد فى الشمال الى السويس فى الجنوب وكان ذلك فى اطار منطق تلافى نقط امتيازه لان الهجوم على طول المواجهة بهذا الشكل سوف يفـرض على العدو ما يلى : ـــ

١ ـــ سوف يكون مرغما على توزيع ضرباته الجوية المضـادة على قواتنا .

٢ ـــ بسبب هذا التوزيع فان هذه الهجمات المضادة فى كل مكان سوف تكون ضعيفة فى كل مكان لان المواجهة متسعة .

٣ ـــ بسبب هذا الاتساع فان العدو لن يستطيع مبكرا اكتشاف اتجاه المجهود الرئيسى لقواتنا المهاجمة وبالتالى فانه لن يستطيع التركيز عليه .

وعلى سبيل المثال فلقد تصورنا وخططنا ونفذنا بالفعل عنـدما بدأت العمليات مجموعة كبيرة من الكبارى ورؤوس الكبارى وكان

ما نفذناه أكثر مما نحتاجه فعلا وكنت مستعدا لاحتمـال تدمـير بعضها ولكنها جميعا نجحت وفشل العدو فى تدمير أى منها .

٤ ــ بسبب هذا الاتساع نفسه فان العدو سوف يتأخر فى رد فعله بالهجمات المضادة على الارض ، لانه سوف ينتظر لكى يكتشف اتجاه المجهود الرئيسى لقواتنا وبعده يتحرك .

ولقد احسست مع تقدم مراحل التخطيط بانه يتحتم علينـا أن نقوم بعملياتنا من قاعدة وطيدة . وأحسست أن دفاعاتنا فى القناة ينقصها التحصين الكافى ، وهكذا بدأنا نبنى دفاعاتنا اسـتعدادا للهجوم : كان علينا أن نبنى ونرفع مواقع قادرة على التحـكم فى الشاطىء الغربى للقناة وفى الشاطىء الشرقى ايضا : كان خط بارليف أمامنا يكشف مواقعنا . ورحنا نبنى ونرفع ونكشف الضفة الشرقية ونتحكم فيها . وكان ذلك عملا صعبا غاليا فى تكاليفه ولكنه كان ضروريا حتى أستطيع مساعدة قواتى ، وهى تعبر من الغرب الى الشرق . ثم حتى أستطيع حمـاية قواتى للحشد واخفاءها قبل التقدم كمفاجاة للعبور ...

كان ذلك يعطينا ثباتا فى المواقع ثم انه يعطينا ميزة فيما لو احس العدو بنوايانا وحاول القيام بضربة احباط أو ضربة اجهاض ... فيمكننا صده وتدميره .. »

هذا عن التصور العام للخطة ...

ولكن اعداد الدولة للحرب واعداد مسرح العمليات واعـداد الجيش للعمليات الرهيبة المقبل عليه كلها عبارات تخفى وراءهـا آلاف من التفاصيل نجد لمحات منها فى الاقوال التى أدلى بها قادة الإسلحة المختلفة لقواتنا المسلحة :

قال اللواء جمال محمد على مدير سلاح المهندسين :

وراء النجاح العظيم الذى حققته قواتنا المسلحة بقفزتها الباسلة عبر القناة واجتياحها الجارف لخط بارليف كانت جهود المهندسين العسكريين المصريين وكانت ابتكاراتهم الفذة وحلولهم العلميــة للمشاكل التى كانت تواجه عبور القوات فوق المانع المائى [قناة السويس] ثم المانع الآخر المتمثل فى السد الترابى الذى أقامه الاسرائيليون بارتفاع ٢٠ مترا من حول خط بارليف .

وقبل ذلك كله كانت هناك جهود المهندسين العسكريين طوال السنوات الست الماضية من أجل التجهيز الهندسى لمسرح العمليات والذى امتد بطول سواحل مصر دعما لسلاحنا البحرى وبطول جبهة القناة دعما لقواتنا التى كانت تنتظر قرار العبور وبعمق مصر كلها فى المطارات العديدة التى تم تجهيزها فى العمق المصرى تفاديا لضربة مفاجئة من العدو .

□ استطاعت ابتكارات المصريين فى بناء دشم الطائرات أن تكون نموذجا أخذ به بعد ذلك حلف غرب أوربا [الاطلنطى] .

□ استطاعت ابتكارات المصريين فى بناء قواعد الصواريخ أن تكون نموذجا عدلت على أساسه أساليب بناء قواعد حلف وارسو .

□ استطاع الجهد المصرى أن يقلل المدة الزمنية لبناء كبارى الاقتحام عبر القنــاة من ٢٤ ساعة الى ٥ ساعات واســتطاع المهندسون العسكريون بمعاونة المؤسسات الصناعية فى مصر أن يصنعوا محليا نصف معدات العبور .

□ استطاع المهندســون العسكريون بعد تجــارب عديدة أن يتغلبوا على مشكلة السد الترابى باستخدام طلمبات المياه التوربينية

التى تدفع المياه بمدفع مائى ومن خلال ٣٠٠ تجربة علمية بدأت أولها بمعاونة من المهندس صدقى سليمان أيام كان وزيرا للسد العالى استطاع المهندسون العسكريون أن يصنعوا المفاجآت التى أذهلت العدو .

ظهرت أيضا مشكلة اصلاح الممرات بعد قصفها بقنابل الطائرات فى وقت قصير قياسى حتى لا يؤثر ذلك على حبس الطائرات وتقليل كفاءة القوات الجوية وقد تمت أبحاث فى هذا الموضوع استغرقت حوالى ٦ شهور مع وزارة البحث العلمى من خلطة أسفلتية مخزنة وأسمنت سريع التصلب وخرسانة عادية وأخيرا وصلنا الى الواح صلب خاصة تم تصنيعها محليا .

كما أن مشكلة ازالة القنابل التى لا تنفجر وخاصة الزمنية منها كانت مشكلة كبرى أمكن التغلب عليها بتدبير الأجهزة الحديثة للتعامل معها والتى يفاجئنا العدو بأنواع مختلفة فى كل حرب من حروبه وقد شكلت وحدات ودربت فى المطارات وزودت بالأجهزة اللازمة لهذا الغرض .

وكان انشاء المواقع فى منطقة القناة معركة تحدى فيها سلاح المهندسين الطيران الاسرائيلى والتحم فيها القطاع المدنى بشركاته بكتائب المهندسين العسكريين اذ كانت الوحدة المنفذة تتكون من شركة من القطاع العام ومعها كتيبة مهندسين وقد ظهرت أهمية وجود القطاع العام بالدولة وشاركت المرأة رجلها فى تنفيذ هذه المواقع وقدم الشعب شهداء أبرياء فى هذه المعركة مدنيين وعسكريين وكان للسرعة فى الانشاء اثر أذهل العدو وكان العمل يتم ليلا فقط وتحت تأثير غارات العدو الجوية والقنابل الزمنية وتشمل انشاءات الدفاع الجوى كتائب الصواريخ والرادارات ومراكز السيطرة .

أيضا استطاع سلاح المهندسين انشاء اعمال وقائية لجميع

أسلحة الدفاع الساحلى من مدفعيات وصواريخ وغيرها وكذلك تم انشاء مراكز القيادة ، وكل ذلك كان يجرى فى مرحلة الاستنزاف .

وكدراسة لتقدير الحجم المطلوب من وحدات المهندسين اللازمة لعملية العبور من الوحدات السابقة ، ظهرت الحاجة الى تطوير مهمات الكبارى المتيسرة لتكون كبارى اقتحام تنشأ فى ٥ ساعات بدلا من ٢٤ ساعة ، وذلك بالتصنيع المحلى فى جميع شركات الصناعات المعدنية ، وذلك استكمالا لعدد الكبارى التى وصلت من الاتحاد السوفيتى ، وكذا تصنيع القوارب الخشبية فى أحد المصانع الحربية ، وجاكتات النجاة وغير ذلك من مهمات العبور ، فقد وصل التطوير والتصنيع المحلى حجما يعادل ما وصل من الخارج .

وكانت مشكلة الساتر الترابى قد ظهرت بشكل أكبر بعد ايقاف النيران فى أغسطس سنة ١٩٧٠ ، بانشاء خط بارليف المكون من حوالى ٢٧ قطعة قوية على طول القناة بواقع نقطة كل ٤ كم تقريبا ، تم توصيلها بساتر ترابى يتراوح ارتفاعه بين ١٢ — ٢٠ مترا ، وهذه النقط الحصينة تم انشاؤها على الهيئات الحاكمة على المحاور الرئيسية فى المناطق الصالحة للعبور ، وتبلغ مساحتها فى المتوسط ٢٠٠ x ٣٥٠ مترا ، ومحاطة بأسلاك شائكة وحقول ألغام بعمق ٢٠٠ متر فى المتوسط ، وبها جميع مرابض نيران الأسلحة المختلفة من رشاشات ومدفعيات وهاونات ودبابات فى شكل دفاع دائرى بمدخل واحد ، وبها ملاجىء للافراد من طوابق مختلفة وبدرجة وقاية عالية جدا ، اذ تقاوم قنابل الطائرات زنة أكثر من ١٠٠٠ رطل ، وزودت بأجهزة تهوية وتنقية ضد الغارات واسلحة التدمير الشامل ، وبها وحدات اثارة وتكييف هواء وغير ذلك من المرافق الصحية ، وقد تكلف خط بارليف ، حسب تقدير الاسرائيليين ٢٣٨ مليون دولار ، والذى يعد من أقوى الخطوط الدفاعية وقوته فى انه

يرتكز على المانع المائى قناة السويس التى يبلغ طولها حوالى ١٦٣ كيلو مترا ، ويتميز القطاع الجنوبى منها بسرعة التيار الذى يبلغ ٥ر١ م/ث ، وارتفاع المد والجزر يصل الى ٥ر١ م ، كما يتميز المانع المائى بتكسية حجرية وستائر معدنية على جانبيه .

ونتيجة لذلك ظهرت مشكلة التغلب على الساتر الترابى وعمل فتحات به لعبور الدبابات ومركبات القتل ، مع تركيب الكبارى لتلحق بالمشاة التى تتسلق هذا الساتر ، وقد تم عمل تجارب عديدة للتغلب على هذا الساتر بانشاء ميادين على فروع النيل بالعرض الطبيعى لقناة السويس ، وانشاء ساتر ترابى بالحجم الطبيعى للتجارب والتدريب .

وقال قائد سلاح الامداد والتموين :

« الامداد والتموين قد لاتظهر فى صورة مباشرة كقتال لتلاحم مع العدو ، ولكنها تقف باستمرار خلف الجندى المقاتل ، مزودة اياه بكل ما يحتاجه من ذخائر للمدفع ووقود للدبابة أو للطائرة أو للقطعة البحرية اينما كانت فى مضيق المندب أو فى البحر الأبيض .

تقف وراء الجندى تمده بما يحتاجه من غذاء ومن ماء فى مسرح صحراوى تندر فيه الموارد المحلية ، تمده بملبسه وبما يحتـــويه ملبسه من عتاد ، كما تقوم بمهمة النقل بوسائله المختلفة بجميع أنواع الاحتياجات ، سواء كانت احتياجات ادارية أو معدات حربية لأجهزة أخرى ، كما تقوم بمهمة كبيرة وهى الخدمة الطبية .

وهناك مهام أخرى ، ولكننا اخترنا هذه المهام لارتباطها المباشر بمهمة القتال فى المعارك التى دارت فى ٦ أكتوبر .

طبعا ألامداد يمثل شقا من مهام الأمداد والتموين ، وهناك شق

آخر لا يظهر ، وهو التدبير ، وهنا برز الاعداد فى اتجاهين : اعداد لجبهة القتال ، ألجيوش الميدانية والبحر الأحمر ، وده ما سمى بتجهيز مسرح العمليات ، واعداد آخر فى العمق .

وأنا سأدمج الموضوعين فى بعضهم ، منعا أو تلافيا للتكرار .

الهدف للموضوعين هو تجهيز مسرح العمليات ، وخلق أفضل الظروف للمعاونة الادارية والطبية فى المعركة الهجومية ، يلخص هذه المشروعات فى الاتى :

تم تطوير جميع محطات السكة الحديد فى الجبهة .

أنشئت المراسى فى الممرات المائية فى الجبهة ، ده من ناحية النقل ، من ناحية الوقود ، كان لابد لتأمين الوقود باعتبار أن خزانات الوقود الكبيرة هدف من الأهداف الحيوية التى تتعرض لقصف العدو ، فأنشئت فى عمق الدولة سعات وقود مأمونة تحت الأرض ، تسع ما يكفى لاستهلاك العملية ، بل ما يكفى لاستهلاك عمليتين أو أكثر .

بالنسبة للمياه ، أنشئت سعات تخزين تبدأ من بور سعيد شمالا وفى مواجهة الجيشين ، وفى البحر الأحمر ، فى كافة القطاعات ، بحيث نأمن لكل قطاع على حدة ما يكفى لاستهلاك ٣٠ يوما كيفما كانت ظروف العمليات وتطوراتها .

كما أنشئت أطوال من خطوط الأنابيب للمياه فى كافة المحاور ، وتخدم الاتجاهات من أول بور سعيد شمالا حتى برتيس جنوبا .

.. ثم تجهيز اعداد من الاسرة فى المستشفيات المدنية ، بحيث تستوعب أعداد الجرحى المقدرين للعملية ، وطبعا الاعداد الحقيقية كانت أقل كثيرا جدا من المقدر .

ثم تجهيز عربات لنقل الدم ، بحيث يصل الدم لغاية مستوى الفرقة ، وتجرى العمليـــات الجراحية [الجراحة المؤهلة] حتى مستوى الفرقة بامداد متواصل من الدم .

كما جهزت قطارات الجرحى وأنشئت غرف عمليات جراحية تحت الأرض فى غرب القنال تسمح بأن الأطباء يجروا هذه العمليات وهم فى ظروف مؤمنة على قدر الامكان .

عندما بدأت العمليات فى ٦ أكتوبر ، فى الواقع ، بالنسبة لتجهيز المسرح ولمهمة الامداد والتموين ، كان جزء كبير من العمل قد تم ، وانننا كنا جاهزين لادارة المعركة بالامكانيات التى تم بناؤها خلال ٦ سنوات ونصف .

وكل هذا أدى الى انتظام الامداد وانتظام الاخلاء الطبى دون أدنى خلل أو قصور ، وانما أود بالاضافة الى انتظام هذا الامداد ، أن أبرز بعض الجهود الواضحة .

حجم النقل فى هذه الفترة كان حجم كبير جدا وبمخلتف وسائل النقل ، راعيت اننا نشرك كل الوسائل ، نقل بالعربات سواء كانت عربات عسكرية أو مدنية معبأة ، اشتركت كذلك السكك الحديدية اشترك النقل المائى لغاية قناة السويس .

الموضوع الثانى الذى أحب أن أبرزه هو خطوط الأنابيب للوقود والمياه اعتبارا من ٨ أكتوبر كانت هناك معابر للوقود والمياه موجودة بالنسبة لكل رأس شاطىء من رؤوس الشواطىء .

ثالث نقطة أود أن أبرزها هى ما حققته الخدمة الطبية بنجاح ، ويمكن أن نوضح بأن أول الجرحى فى المعركة وصل الى المستشفى فى القاهرة ، هنا فى كوبرى القبة ، خلال يوم ٧ أكتوبر ، أى خلال

٢٤ ساعة من الاصابة ، بعد أن تلقى الاسعاف الاولى والعلاج المؤهل فى مستشفيات الجيش .

ولا شك أن مما ساعد على أن تكون الخدمة الطبية جيدة ، هو قلة عدد الخسائر ، مما أتاح للمستشفيات انها تقدم العلاج بدرجة عاليـــة .

وقال اللواء سعد الدين مأمون مساعد وزير الحربية :

« اتخذ السيد الرئيس قرار المعركة وهو يقدر تماما أن هذه المعركة ستؤثر على مستقبل مصر لأجيال مقبلة الا أنه فى الحقيقة كان يثق فى القوات المسلحة وراجع الخطط .. وقدر صعوبة التنفيذ الا أنه كان واثقا من النجاح .

اتخذ القرار ثقة فى التخطيط .. ثقة فى القوات المسلحة المصرية التى واجهتها مشاكل كان لابد من حلها :

أول مشكلة : العدو محصن فى خط بارليف الحصين الذى لا يمكن تدميره بنيران المدفعيـــة لان نيران المدفعية لا تؤثر فيـــه بمنتهى البساطة .

ثانيا : لا يمكن استخدام الطيران ضده من الناحية العملية لأنه على مسافة ٢٠٠ متر من قواتنا .

انشأ علاوة على المواقع الحصينة والنقط الحصينة ساتر ترابى بارتفاع من ١٠ أو من ١٢ الى ٢٠ متر بنأخذ المتوسط ١٥ مترا .

آدى المنظر اللى قدامنا من الناحية التانية ، بالنسبة لقواتنا ده معناه ايه ببساطة .. هل عندنا هليكوبترات كفاية تشيل قواتنا من هنا الى الناحية التانية ؟ كان بقى الموضوع فى منتهى السهولة ..

ماعندناش . وده اللى قدره العدو تماما وهو حقيقى حنضطر كتوات مسلحة مصرية لعبور القناة بالمشاة فقط أو بمعنى أصح مترجلين سواء كانوا مشاة أو بالمدفعيات أو نقط ملاحظة مدفعية . وأقصد بكلمة مشاة أى واحد مترجل يكون مسلح حنعبر بالمشاة فقط .. مسلحين بايه .. بالأسلحة الصغيرة مسلحين بايه بالمدافع المضادة للدبابات قصيرة المدى وهى التى يمكن حملها حتى وزن ٣٥٠ كيلو الـ B.11 أقصى مرمى لهذه الأسلحة أيها السادة ٦٠٠ متر ضد دبابات العدو وعدد محدود جدا للسرية لا أقوله من بعض الصواريخ المضادة للدبابات ذات المدى الأطول ..

طيب حنضطر اذا وفى قوارب مطاط يوحوا يعبروا يتسلقوا الساتر الترابى وأجزاء أخرى تهاجم خط بارليف وتعدى الناحية التانية وتقاتل . تقاتل أد أيه بالحساب ... يا مهندسين وبكل وسائل الحساب لا يمكن فتح ثغرة حتى بدون تدخل ونهارا أو ممرات فى الساتر الترابى قبل سبعة أو تسع ساعات . العدو اذا أدخل فى الاعتبارات أن الليل .. وهو بالتأكيد متصور اننا هنجم ليلا فحندخل كعامل على الأقل ٥ر١ ضعف ثم تدخل النيران سواء بالطيران أو من نيران المدفعية حتتضاعف هذه المدة .

وفى الوقت نفسه ليست هذه هى المهمة فقط بل من ضمن المهمة تصفية والاستيلاء على خط بارليف والنقط الحصينة مش حتى لمجرد أنه مجرد أمر .. لا .. لأن هذا أمر واجب ليه لأن النقط الحصينة متحكمة فى جميع الاتجاهات السليمة اللى ننزل فيها المعابر والمعديات وفى الوقت نفسه متخذها فى هذه الحصون الغير معقولة اللى حاطط فيها ضباط يديروا نيران الطيران والمدفعية .. يعنى بيصحح النيران تماما على صدور أبناءنا اللى بتعبر وعلى هذا كان من الواجب أيضا من ضمن الخطة اننا نهاجم خط بارليف فى نفس الوقت .

طيب مشكلة تانية فى منتهى البساطة هذا الساتر كلمة بسيطة كده لكن تعنى الكثير .. الساتر الترابى اللى حابس أسلحتنا ثم الذخيرة اللى احنا راح نديها للاسلحة أسلحة صغيرة أو مضادة للدبابات أو أو .. كافية ؟ علشان تقاتل لحد ما الحملة تشيل باقى الذخيرة وتروح الناحية التانية والدبابات تروح الناحية التانية .. ؟ كلام غير حقيقى يعنى يدوبك تقضينا تلات أربع ساعات . الله طيب ولما احنا هناك الكبارى ما تتعملش ولا المعديات ولا .. ولا .. ولا ونعمل هجمة مضادة العدد اتنين زى ما احنا مقدرين تلاتة .. نعمل أيه مانلاقيش ولا طلقة واحدة مع الاسلحة .. طيب وايه الحل آدى حاجة فى منتهى البساطة .. اضطرينا نعمل كلام بدائى لكن أفلح .. عملنا عربيات جر صغيرة ، بتتجر بالعسكرى .

مثلا مهاجمة خط بارليف حوائط حصينة فظيعة أسلاك ألغام فظيعة بكميات رهيبة غير معقولة .. حصينة فظيعة تتهاجم من الخلف أو بالمواجهة من قناة السويس .

المنطق العسكرى أقول لحضراتكم احنا اختلفنا كثير جدا على كافة المستويات لكن المنطق الواحد يقول يهاجمها من الأجناب والخلف قعدنا نوازن بمنتهى العمق من أول مستوى القيادة العامة لغاية أقل الناس وقررنا أن نهاجمها من الأصعب لاحقاق المفاجأة وفيه حاجات اخرى راح أقولها لحضراتكم برضه مش سر .. قررنا مهاجمتها من الأمام . ننزل من الضفة الغربية .. نركب القوارب وبتطلع على النقط القوية وتخش جواها ونقتل العدو .

أولا .. الابتكار الأول طيب احنا نفتح ازاى الثغرات فى هذه الحصون .. الناس قدرت وضباط صغيرين مش كبار هم اللى قدروا ولكن احنا بنستفيد من جميع الاراء اننا نقدر نفتح الثغرات طالما المسافة ٢٠٠ متر بالمدفعية بتاعة الضرب المباشر على هذه النقطة

حنروح فاتحين ثغرة فى الالغام والاسلاك كلما نفتح اثنين فى ثلاثة القوات حتنزل وتعدى ولا ندور وننتظر الدبابات تيجى لان من ورا ٢٠٠ متر حقول الالغام ما تتشالش .. نعلم أن خط بارليف لا تؤثر فيه المدفعية ولا الطيران كانت النتيجة اننا قلنا نكتفى باطلاق النيران علشان العساكر بتوع العدو تخش تحت وتستخبى أثناء هذا بنضرب الطلقات الضرب المباشر وبعدين بننزل ونطلع نهاجمهم ..

طيب ونيران المدفعية بنرفعها ١٠٠ متر قبل قواتنا راح تصيبها الشظايا بتاعتها .. طيب نستعيض عنها بايه بقنابل يدوية حطينها فى حاجة اسمها كاسات اطلاق على البنادق ونفضل نضربها تنزل تكمل العملية تستر آخر فترة الناس تنط تدخل جوه .. عندئذ يبقى يا قاتل يا مقتول .. العساكر دخلت النقطة والعدو جوه والقتال المتلاحم بالقنبلة اليدوية بالسونكى بالطلقات وهذا ما تم فعلا وكانت المفاجأة للعدو لأنه لا يتصور أن ده بيحصل ..

موضوع تانى فى التخطيط قيل بمنتهى البســـاطة .. انتخاب الساعة اثنين الظهر .. جميع العقائد يا أما الصبح بعد أول ضوء بساعة .. اثنين يا اما آخر ضوء .. يا اما قبل آخر ضوء بساعة علشان نضرب مدفعيته .. أما الساعة اثنين ده لم يرد فى التاريخ من قبل ومع هذا التقدير العام اتوزن وقررت القيادة العامة أن ده يكون الساعة اثنين وهذا أيضا كان مفاجأة وبل الروس والامريكان نفسهم والاسرائيليين نفسهم لم يكن متصورين أن مثل هذا التوقيت يمكن يكون هو ساعة بدء الهجوم ..

دى عينات من بطولة التخطيط والتفكير البسيط .

قررنا رغم أن ده يكون ضد كثيرا جدا من مبادىء الحرب أن قادة الكتائب وقائد الكتيبة مقدم أو عقيد .. ده يعدى مع الجنود بعد ١٥

دقيقة من بدء القتال .. يكون على الناحية التانية بقارب مطاط مع العساكر قائد اللواء بعد ٤٥ دقيقة يكون على الناحية التانية مع قواته .. قائد الفرقة العميد أى ما يساوى مدير عام .. تصوروا مديرى العموم بعد ساعة ونص يلاقى نفسه الناحيـــة التانية فى الضفة الشرقية على القناة مع كل وسائل السيطرة القانونية وكان قرارا جريئا لكن هوه ده اللى حصل القادة فى الامام مع الجنود فكان لها فعل السحر فعلا فى المعركة ، آدى مثل للروح المعنوية والتصاق القادة بالجنود .

هؤلاء الناس والقادة عبروا تماما زى الجنود على قارب مطاط معاه أسلحته وطلع الساتر الترابى ١٥ مترا .

مثال ثانى .. ولعله سر وهذا ما لا أريد أن أذكره ولكن لازم أقوله .. خسائر القادة بتاعتنا على كافة المستويات والضباط فى هـــذه المعركة رغم أنها قليلة جدا ورغم أنها لم نكن نقدر أن هذه الخسائر تكاد تصل الى عشر الخسائر اللى كنا متصورينها هى أعلى نسبة فى الخسائر فى أى حرب فى العالم حتى الان .. ليه .. لان القـــادة كانوا فى الامام دائما ..

وقال اللواء حسنى مبارك قائد القوات الجوية المصرية :

« من الحقائق المعروفة عن حرب ٦٧ أن العدو قد تمكن فى ضربة جوية مركزة ضد القوات الجوية المصرية من أحداث خسائر كثيرة بها ، الأمر الذى جعل القوات وقتئذ غير قادرة على تنفيذ مهامها أو القيام بواجباتها أثناء العمليات .

ان القوات الجوية لم يكن بها الا عدد محدود من المطارات غير المحصنة وغير المحمية تتمركز بها الطائرات فى العراء وفى غير دشم محصنة مما يعرضها للخسائر الكثيرة فى الهجمات الجوية .

حقيقة حرب ٦٧ كانت منطلقا لنا لبناء القوات الجوية وأعطتنا خبرة كبيرة وخرجنا بدروس مستفادة منها حتى ننشىء قوات جوية حديثة تمكنها من تنفيذ مهامها حيال الوطن .

بعد حرب ٦٧ وبعد دراسة الموقف للقوات الجوية وجدنا أنه لابد من أكثار عدد الطيارين بالقوات الجوية حتى تتمكن من أداء مهامها . أعداد الطيارين كما هو معروف مسألة وقت والطيار لا يشترى وانما الطيار يدرب ويحتاج الى وقت كبير فى التدريب من أربع الى خمس سـنوات .

أنشأنا فى المطارات ممرات كثيرة حتى أن ده يصعب على العـدو اذا جه عشان يدمر مطار حايدمر ممر ان دمر واحد مش حايدمر الثانى أو حايدمر الثالث عملنا دشم خصينة عشان نحط فيهـا الطيارات وافتكر مدير المهندسين امبارح تكلم عن موضوع الدشم .

عندنا حالات استعداد بصفة مستمرة فى أنحاء الجمهورية يعنى طائرات جاهزة للاقلاع فى خلال من دقيقتين ونص الى ثلاثة لاعتراض أى هدف معادى ، يظهر على شاشات الرادار أو يبلغ عنه بالمراقبة بالنظر . دى مهمة مستمرة من بعد ٦٧ لم تنتهى والى الان . جت حرب الأستنزاف . كل ده حمل زائد على القوات الجوية أثنـاء تجهيزها وبنائها وتدريب طياريها وأطقمها للعمليات طبعا كنا ما بين حالات استعداد وما بين تدريب وما بين قتال جوى حاجات كثيرة جدا فى وقت واحد الا أن احنا أمكننا اننا نجتاز هـذه المرحلة ولتصميمنا على أن المعركة آتية لا مفر منها فكرنا لابد أن نستمر فى البناء بأى شـكل كان .

القوات الجوية فى أى عملية هجومية وأى قوات جوية فى أى عمليات هجومية لها مهام رئيسية تنفذها فى هذه العملية مهمة .

من مهامها أن القوات الجوية تقوم بضربة مركزة أو ضربة رئيسية أو ضربة كبيرة زى ماتسميها ضد أهداف العـــدو مطاراته حتى لا تؤثر على هجـــوم القوات على قيام القوات البرية بالعمليـــات الهجومية .

كان على وسائل الدفاع الجوى وصواريخه الحماية ضد هجمات العـــدو حتى لا تؤثر على طياراتنا عنـــدما تقوم بمعاونة الجيش وضرب مركز السيطرة بتاعتنا ، يعنى المركز الرئيسى اللى بيدير الطيران بتاعه ، يوجه الطيران بتاعه تضربه وتشل فاعليته يقـــوم بربكة فى استخدام طيرانه ولو لفترة ما الى أن تنفذ أول مراحل العمليات اذا كان له محطات شوشرة تشوشر على محطات الردار التى تؤثر على الدفاع الجوى وعلى القوات الجوية فى عملياتها دى برضو من مهامه . اذن الضربة الرئيسية هى ضربة رئيسية كبيرة بقوة كبيرة من الطيارات لتؤثر أو تشل أو تدمر هذه الأهداف بسرعة حتى تمكن القوات البرية أو قوات الدفاع الجوى من امكان تنفيذ مهامها وكذا القوات الجوية .

القوات الجوية لها مهمة أخرى وهى الاشتراك مع قوات الدفاع الجوى فى حماية الأهداف الحيوية لأى دفاع وكذلك قواعدها الجوية.

القواعد الجوية والأهداف الجوية فى الدولة حاجة مهمة جدا لابد من تأمينها وحمايتها .

القوات الجوية برضه بتضرب احتياطيات الجيش المعادى كلما تقدم فى اتجاه قواتنا أثناء تقدمها . أيضا القوات الجوية تشارك القوات البرية فى معاونتها أثناء عملياتها تعاون القوات البحرية .

القوات الجـــوية تقوم بصد الهجمات الجوية ايضا المعـــادية بالاشتراك مع قوات الدفاع الجوى .

القوات الجوية أيضا عليها مهمة الاستطلاع الجوى . ومهمة أخيرة للقوات الجوية عموما هى التعاون مع قوات الأبرار يعنى انزال قوات الأبرار ، قوات الصاعقة اللى بتنزل فى أوقات معينة عشان عمليات تخريب أو علشان تعطيل .. الخ .. اللى بتقوم بنقلها وتنفيذها هى القوات الجوية عمليات الانزال اذا كان فيه انزال من طيارات للمظليين اللى بتقوم بها القوات الجوية .

قبل أن أبدأ فى سرد أحداث أكتوبر ١٩٧٣ من وجهة نظر الدفاع الجوى أود أن أوضح دور الدفاع الجوى فى مواجهة وسائل الهجوم الاسرائيلى ، والمهام التى تؤديها قوات الدفاع الجوى فى السلم والحرب ، اذا تصورنا أن لدى اسرائيل حوالى ٥٠٠ طائرة قتال تستطيع أن تلقى فى طلعة واحدة حوالى ٢٠٠٠ طن من المتفجرات أى تستطيع فى خلال ثلاثة أيام قتال أن تلقى فوق الجبهة ما يعادل أول قنبلة ذرية ألقيت فوق هيروشيما .

هذه القوة الجوية الكبيرة والتى كان العدو يفخر بقدرتها ويعتبرها سلاحه الرئيسى الذى لا يقهر .. سلاحه الرئيسى اللى بيقوم به بتأديب أى دولة تسول لها نفسها تحرير أراضيها المغتصبة . هذا السلاح الذى مكن اسرائيل من العربدة فى المنطقة ، كما قال قائدنا الأعلى رئيسنا أنور السادات ، تلك القوات هى التى كان على قوات الدفاع الجوى أن تواجهها وان تحمى أهدافنا الحيوية ضدها ، كما كان عليها أيضا توفير الحماية للقوات البرية والبحرية والجوية ضد الهجمات الاسرائيلية .

اذن كان على قوات الدفاع الجوى أن تكون على درجة استعداد عالية باستمرار سواء فى فترة اللا سلم واللا حرب أو مع اندلاع الحرب لحماية الأهداف الحيوية الرئيسية فى الدولة بالاضافة الى

حماية القوات البرية والبحرية والجوية ، لصد الهجمات المعادية وانزال أكبر خسائر فى طائرات العدو .

احنا حققنا نصر ، ونصر كبير كدفاع جوى ، هذا النصر ليس وليد ساعة أو وليد تجهيز أسبوع وأنا مباقولش سر اذا كنت بأقول يمكن أن هوه أقوى نظام صواريخ ودفاع جوى موجود فى منطقة الشرق الأوسط . طيب أزاى احنا من أين لنا هذا كدولة نامية ؟ علشان كده أنا بقل هذه المقدمة لأن عايز أرجع بخضراتكم الى المدى البعيد شوية ، الخلفيات بتاعة انشاء الدفاع الجوى ، لأنه كله مفاخر ، وتاريخ ، عندنا قاعدة عريضة ابتدينا عليها ، ابتدينا على الرجل السليمة وكانت عندنا القوة الدافعة ، وكانت عندنا خبرة المعارك السابقة وعلشان كده قدرنا نعد فى أقصر وقت ممكن اللى مقدرتش تعده أى دولة نامية أخرى .

والنكسة بقدر ما كانت مؤلمة .. بقدر ما كان لها فضل كبير جدا على الدفاع الجوى .. حائط الصواريخ كان قدامنا وجهة نظر ، بنقول ان احنا نقفز نجيب حائط الصواريخ ونقفز به مرة واحدة للامام لمنطقة الجبهة ، وجهة النظر الثانية بتقول ان احنا نعمل عدة نطاقات وننتقل ببطء وبنسميه الزحف البطىء وكل نطـــاق بتبنيه وبنحتله فى حماية النطاق الذى سبقه ، كل وجهة نظر لها مزايا ولها عيوب ، وأخذت نقاش كبير على أعلى المستويات ، واستقر الرأى والمفاضلة على أنا نأخذ بالنظرية الثانية اللى هيه الزحف البطىء وفعلا تم انشاء مواقع النطاق الأول وتم احتلالها خارج مدينـــة القاهرة دون أى رد فعل من اسرائيل .

استغلالا للنجاح قررنا انشاء ثلاث طاقات فى منتصف المسافة بين القاهرة وبين الجبهة ووضعت خطة دقيقة وطموحة فعلى مدى ليلتين فقط كان علينا أن احنا ننشىء تحصينات بتاعة حوالى ٢٤

موقع ، نجهز مراكز القيادة بالمواصلات وخلافه ، نمهـد الطرق والمدقات ، نحرك بطاريات الصواريخ وتحتل مواقعها مع وسائل الدفاع م . ط المباشر عنها ، ووسائل الانذار المختلفة اللازمة لها ، ندفع مجموعات من مهندسى الالكترونيات علشان تضبط وتختبر وتجهز هذا العدد الكبير من المعدات اللى كان عليه يجب أن يكون جاهز للقتال فى خلال ساعات قليلة من وصوله الى مواقعه .

كل الأعمال دى يجب أن تتم بنجاح وتعمل ليلا وليس نهارا حتى تتم المفاجأة للعدو ، وفعلا تم تنفيذ العملية فى تناسق كامل . وتم تنفيذ هذه الأعمال فى التوقيت المحدد وبدقة مثالية كسـمفونية لا نشاز فيها ، وفى صباح يوم ٣٠ يونيو عام ١٩٧٠ حصل ايه ؟ فوجئت الطائرات الاسرائيلية المغيرة بالصواريخ المصرية ، وتكبدت خسائر لم تكن تتوقعها ، وتكررت المحاولات بمزيد من الطائرات ومزيد من أسلحة الاعاقة ومزيد من التكتيكات المضادة للصواريخ ومزيد من أعمال الخداع والنتيجة كانت أيه ؟ مزيدا من الخسـائر .. ومزيدا من الأسرى الطيارين الاسرائيليين .

وبدأت اسرائيل تتباكى ولا أنسى فى هذا المجال تصريح أبا ايبان لمـا قام فى الكنيست وقال « لقد بدأ الطيران الاسرائيلى يتآكل » وكانت خسائر العدو الجوى فى الفترة من ٣٠ يوليو الى ٨ أغسطس ١٩٧٠ طبقا للبلاغات الرسمية اللى صدرت من جانبنا عدد ١٦ طائرة .. هذا العدد كان عدد متواضع من ناحيتنا زى المعتاد ، لأن كل ما نوقع طيارات ، سيادة الوزير يقول لى لتجيب لى الطيارة لحسبهاش لك ، ففعلا كان عدد متواضع لأن بعد وقف اطلاق النار « بيرجس » المشرف على رعاية المصالح الأمريكية أبلغ احد كبار المسئولين المصريين .. اننا قللنا جدا من الخسائر التى أنزلناها بالطيران الاسرائيلى ويعزز ذلك ما صدر فى احدى المجلات الأمريكية « مجلة أفييشن ويك » بتاريخ ١٦ نوفمبر حيث قدرت خسـائر

اسرائيل بعـــدد ٥١ طائرة ، دمر منهـــا ١٧ وأصيب ٣٤ وقـــد استعاضوا هذه الطائرات بواسطة أمريكا يعنى معظم الخسائر بتاعتهم حصلت فى آخر عشرة أيام .

وكان لنتيجة نجاح خطة الخداع اثر كبير على العدو ، وبرز ذلك فى قول مائير « ان كتائب الصواريخ المصرية كعش الغراب المشئوم » كلما دمرنا احداها نبتت بدالها أخرى » .

ان ديناميكية قواتنا والتى اتبعت مبدأ العمل ثم العمل والسرعة جعلت العدو فى متاهة بالنسبة لمـــاهية حائط الصواريخ اذا كانت حائطا فعلا بالنسبة لقوته ومنعته وأسراره .

طيب نتيجة هذا العمل فى هذه المرحلة ايه ؟ كان علينا أن احنـــا نستكمل أعداد القوات بتاعتنا بتاعة الدفاع الجوى علشان تحرير سيناء ، وكان نتيجة الأعمال اللى تمت خلال هذه الفترة ان احنا ــ اعنى القيادة ــ اكتسبت خبرة كبيرة فى التخطيط والتفكير وادارة اعمال القتال بسرعة والتصرف بذكاء فى المواقف الطارئة ، اكتسبت القوات خبرة عملية فى استعمال المعدات الالكترونية المعقدة ، ثم تطوير اساليب التدريب بطريقة مبتكرة وفعالة وبعيدة عن الأساليب التقليدية .

وقد يبدو أمام الكثيرين أن هذا التطوير قد استغرق مدة طويلة ، ولكن ذلك يعتبر فى الحقيقة قفزة رائعة تمت بنجاح اذا حطينا فى اعتبارنا ، علشان ننشىء قوات صواريخ بالاعداد الهـــائلة اللى موجودة عندنا وبالأنواع المختلفة . وكلها حاجات الكترونية ومعقدة . علشان ننشىء قاعدة الصيانة والاصلاح لمثل هذه المعدات المعقدة وعلشان نفهم أسرار هذه المعدات ونجيد استخدامها بدقة وفاعلية ، كل ده لا يتم فى سنة ولا فى سنتين » .

وتحطمت الأسطورة عند الظهر

في الساعة ٢ تماما ظهر يوم السبت ٦ أكتوبر كانت موجات كثيفة من الطيران المصرى تعبر خط قناة السويس متوجهة فى ثوان الى الأهداف المحددة لها فى سيناء . كانت هذه الأهداف فى الدرجة الأولى هى المطارات المتقدمة ومراكز قيادة العدو ومراكز التشويش الالكترونية ومواقع الصواريخ المعادية المضادة للطائرات .

كانت هذه أهدافا بالغة الأهمية فى الساعات الأولى للمعركة .. وصفها قائد القوات الجوية المصرية بقوله « ضربنا مركز سيطرة كبير فى سيناء ، هو مركز [أم مرجم] الذى يسيطر على القوات الجوية والدفاع الجوى للعدو فى سيناء . وضربنا محطات الرادار الأمر الذى شل هذا المركز واضطر العدو الى نقل مركز السيطرة الى مكان آخر . وحدث ارتباك كبير فى هذه اللحظات الحاسمة لدى القيادة الاسرائيلية . لم يكن قادرا وقتها على السيطرة على طائراته لأن مركز القيادة والسيطرة دمر تقريبا ، كذلك تم تدمير مركز التشويش ، وهو المخصص للتشويش على أجهزة راداراتنا وبالتالى يؤثر على عمل صواريخنا فى الدفاع الجوى وعلى عمليات قواتنا الجوية عند توجيه المقاتلات الى أهداف معادية وكذلك ضرب المطار الرئيسى فى سيناء لقربه الشديد من قواتنا ولكونه مركز النشاط الرئيسى لطيران العدو » .

وفى نفس اللحظة ظهرت على شاطىء القناة فجأة آلاف من المدافع

بشتى أنواعها وأحجامها تركز نيرانها الهائلة على سلسلة تحصيناته العدو فى صورها وأعماقها المختلفة .

وكانت هذه المدافع قد تسللت فى الأيام السابقة الى مواقعها التى أعدت من قبل فى هدوء حتى برزت فجأة يوم القتال ولم يشعر العدو المتحصن فى الدشم والخنادق الا ونيرانها تنصب عليه بكميات هائلة ..

كان هذا القصف المركز لمدافع العدو يستهدف تدمير أقصى قدر ممكن منها وارباكها وشل فاعليتها فى اللحظات التى تسبق وتصاحب عبور القوات : من نسف حقول الألغام وتدمير خطوط الأسلاك الشائكة واسكات مواقع المدفعية المضادة وسد مداخل سلسلة تحصينات خط بارليف .

وليس ضرب المدفعية عملا عشوائيا . ولكنه عمل ينطوى على حسابات دقيقة بدوره ، للتنسيق بين الأهداف المطلوبة من كل نوع وحجم من المدفعية ، ولتوجيه تصويباتها وتعديل هذه التصويبات خصوصا على الأهداف التى لن تلبث أن تتحرك وراء خط الدفاع الثابت وفى مقدمتها الدبابات ، ثم الاستمرار فى القصف فوق رؤوس قواتنا المهاجمة من حيث تسقط قنابلنا بمسافة محسوبة امام هذه القوات وهى تتقدم وهى مسافة حساسة تتراوح بين مائة وخمسمائة متر فقط لا غير بين القوات الزاحفة وبين أماكن سقوط القنابل المنطلقة من خلفها والمتجهة الى أهداف العدو ..

وفى نفس الوقت كما قال العميد نبيل شكرى قائد القوات الخاصة ، « كانت قوات الصاعقة تعبر بقواربها قناة السويس على امتدادها من بور سعيد شمالا الى السويس جنوبا ، وكان لهم شرف رفع أول مجموعة من الأعلام فوق تراب سيناء لتنطلق

من بعدها موجات متتالية من المشاة بروح معنوية عالية بعد أن شاهدوا من الضفة الغربية قبل دقائق من زحفهم رفاقهم أبناء الصاعقة يعبرون المانع الرهيب وينقضون على العدو داخل مواقعه الحصينة محطمين اسطورة الجيش الذى لا يقهر ... وكانوا أول من يقهر الساتر الترابى العالى الذى أنشأه العدو على الضفة الشرقية ، مستخدمين الحبال ليصلوا الى أعلى جزء فيه ، بغرض تأمين قواتنا من استخدام العدو لهذا الساتر ، واستولوا على المصاطب التى أعدها العدو لدباباته كمواقع تعمل منها .. ثم قاموا ببث الألغام فى هذه المصاطب ونصبوا كمائن لاقتناص الدبابات المعادية التى ستحاول الدخول اليها » .

وكان العدو يعتمد على هذا الساتر الذى يرتفع بين ١٥ و ٢٠ مترا أى اشبه بعمارة ارتفاعها خمسة طوابق ـ كما يعتمد على أنابيب المواد المشتعلة فى عملية الرد الأولى ...

وكما فوجىء العدو بأن مواسير المواد المشتعلة قد قطعت وأغلقت عند الفجر (يقول ونستون تشرشل أن أحد المهندسين الاسرائيليين كان قد بدأ فى اصلاح أول ماسورة عندما فوجىء بجنود الصاعقة المصريين فوق رأسه ، وقال مراسل آخر ان أول مهندس وصل لاصلاحها وقع فى الأسر) كذلك فوجىء العدو بأن المصريين قد توصلوا الى حل آخر لهذا الساتر لم يخطر لهم على بال : فلابد من فتح ثغرات فى هذا الساتر الملاصق للمياه مباشرة لتركيب كبارى كافية لعبور القوات الرئيسية . ولم تكن المدفعية تؤثر فيه ، ولكن شباب سلاح المهندسين والأجهزة الفنية فى القوات المسلحة كانوا قد توصلوا خلال مرحلة الاعداد للحرب الى صيغة بسيطة : موتورات تدفع المياه بقوة ضخمة جدا على الساتر فيتفتت الجزء المطلوب شقه ويبدأ فى الإنهيار (وان كان الاسرائيليون يعتقدون ان فى الأمر سرا آخر لم يعلن ، وربما كان مادة كيمائية معينة فى المياه المندفعة) ..

وفى نفس الوقت كانت هناك أعداد كبيرة من طائرات الهيلوكوبتر المصرية قد افرغت حمولاتها من رجال الصاعقة فى عمق سيناء .. يهاجمون خلف خطوط العدو وعلى أهداف محددة لهم .. وكانت وحدات من هذه القوات تزحف على مياه البحر الأحمر والبحر الأبيض وتصل الى اهدافها على سواحل سيناء فى أماكن بعيدة وغير متوقعة ..

وفى وهج هذه النيران المشتعلة ، والقنابل المتفجرة فى كل مكان ، وعمليات الاقتحام التى تقوم بها القوات الخاصة ، تتلوها قوات من المشاة تحمل مدفعيتها وصواريخها المضادة للدبابات ، كان لابد أن تتم عملية من اكثر العمليات حساسية فى المعركة كلها : وهى اقامة الكبارى الموصلة بين الضفتين حتى تعبر فوقها القوات الرئيسية وخصوصا الدبابات . وكان لابد أن يتم هذا بسرعة كبيرة ، تسبق سرعة العدو فى تجميع قواته المدرعة وشن هجمات مضادة بها على قوات الصاعقة والمشاة التى عبرت بصدورها ، وكان عليها أن تعطل بصدورها واسلحتها هذه الدورع حتى تعبر قواتنا المدرعة الأساسية .

ولعل حسابات العدو وكانت كما قالوا بعد ذلك على السنة بعض المحررين العسكريين ، أن تركيب الكوبرى خلال المعركة يستغرق فى المعدل بين ١٥ و ١٧ ساعة ، ولكن المهندسين الذين كانوا فى كل مكان أمكنهم تركيب بعضها فى خمسة ساعات .

وعبرت اول قوات رئيسية وقوات مدرعية لتكون فى وضع الاستعداد لهجمات العدو المضادة التى لا مفر منها ..

ونفس التحرك الذى شمل القوات البرية والجوية كان قد شمل بدورة القوات البحرية .

يقول الفريق فؤاد ذكرى قائد القوات البحـــرية « .. قبل بدء العمليات بفترة كان لابد ان تحتل الوحدات البحرية اماكن معينة فى البحر ، دون أن تؤدى تحركاتها الى كشف نوايانا . ولذلك كانت خطتنا الاعلان عن تنفيذ المناورة السنوية للقوات البحرية مع مناورات القوات المسلحة لاختبار فعلى لنتائج تدريبنا السنوى .

« وتتمركز وحداتنا فى بور سعيد والاسكندرية ومرسى مطروح فى البحر الأبيض ، وفى الغردقة وسفاجة بالبحر الأحمر . وبمقارنة القوات يتضح تفوق قواتنا فى المدمرات والغواصات ووحدات بث وكسح الألغام .. وبتفوق العدو فى لنشات الصواريخ وقواته الجوية وطائرات الهليكوبتر .

ويتميز مسرح العمليات البحرية بطول سواحلنا وقدرها ١٦٠٠ كيلو متر ، بينما تبلغ سواحل العدو فى البحر الابيض بما فيهـــا الأراضى المحتلة (غزة وسيناء) ٤٠٠ كيلو متر ، ونتيجة لوضـــع اسرائيل السياسى والجغرافى تعتبر خطوط مواصلات البحرية لهـــا بمثـــابة الشريان الرئيسى لاستمرار اقتصادها وامدادها بالمـــواد العسكرية والاقتصادية .

وكانت خطتنا أساسا مبنية على التعامل مع العدو على جبهـــة عريضة فى البحرين الأبيض والأحمر مع استخدام أقصى جهـــد للوحدات البحرية خلال الأيام الأولى للعمليات ، باستغلال عامل المفاجأة الى أقصى حد ، وتشتيت جهود العدو وارباك قياداته :

وفى اليوم الأول للعمليات ، اشتركت القوات البحرية بجميـــع تشكيلاتها من مدمرات وغواصات ومدفعية ساحلية ولنشات طوربيد ولنشات صواريخ وقوات الصـــاعقة البحرية وقوات الضـــفادع البشرية . فقامت لنشات الصواريخ والمدفعية بتوجيـــه ضرباتها

بالصواريخ الى مناطق شرق بور فؤاد ورمانه ورأس برم ، كما قامت المدفعية الساحلية بمعاونة قوات وقطاع بور سعيد بالنيران .

« اما فى البحر الاحمر فقد تم قصف شرم الشيخ بجميع انواع الصواريخ ، وفى خليج السويس قامت الصاعقة البحرية بمهاجمة منطقة ابو دربه على الساحل الشرقى لخليج السويس ، وهاجمت مجموعات الضفادع البشرية منطقة البترول فى بلاعيم ، ودمرت حفارا ضخما ، كما قصفت منطقة رأس سدر بالصواريخ واشتركت بالمدفعية الساحلية اثناء التمهيد بالنيران لعبور قوات الجيش الثالث .

« وقد اشترك فى مهمات اليوم الاول حوالى ٥٠ وحدة بحرية بخلاف وحدات تأمين القواعد » .

وفى الساعة الثانية بعد ظهر نفس اليوم أى فى نفس اليوم «ى» والساعة « س » كانت المدفعية السورية فى الجبهة الشمالية تطلق نيرانها بغزارة على طول خط المواجهة ، والوية المدرعات تتخذ طريقها فى خطط الهجوم المرسومة لها على الخطوط الاسرائيلية .. قال وينستون تشرشل من الجانب الاسرائيلى « اختار السوريون قطاعا طوله ٢٥ ميلا وشنوا هجوما بطوله مستخدمين حوالى ١٢٠٠ دبابة أكثر من ضعف العدد الذى استخدمه روميل فى حرب العلمين ، وبدبابات اقوى بكثير . وكان يصحب الدبابات فى زحفها قوات من المشاه مسلحة بالصاروخ السوفيتى المضاد للدبابات المسمى فى الغرب باسم « ساحر » ، وهى صواريخ تسمح للمشاة بالتصويب على أى دبابة معادية بدقة بالغة وهى على بعد ميل كامل منها . وكان لابد ان تقتحم هذه القوة المواقع الاسرائيلية .

وقد قاتل الاسرائيليون على الجبهتين قتالا مريرا ، واختصروا مدة حشد الاحتياطى الاول من ٢٤ ساعة الى ٦ ساعات . ولكن

سلاح طيرانهم كان أهم سلاح لجأوا اليه فى اللحظات الأولى ، اذ خرجت كل قواتهم الجوية فى طلعات متتالية لا تنقطع ، تضرب القوات المهاجمة على الجبهتين ، ومتحملة خسائر لم يسبق لها مثيل فى نسبتها الى عدد الطيران الاسرائيلى كله ، مستميتة فى منع العبور فى قناة السويس والاختراق فى سوريا .

وقبل أن تنقضى الليلة الأولى من بدء القتال وقبل أن يشرق فجر اليوم التالى ، أى بعد حوالى ١٢ ساعة من بدء القتال ، كانت قد صدرت عن قواتنا فى الجبهتين البلاغات التالية :

الجبهة المصرية :

● **البلاغ الأول (الساعة الثانية والربع بعد الظهر)** قام العدو فى الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر اليوم بمهاجمة قواتنا فى منطقتى الزعفرانة والسخنة فى خليج السويس بواسطة عدة تشكيلات من قواته الجوية عندما كانت بعض زوارقه البحرية تقترب من الساحل الغربى من الخليج وتقوم قواتنا حاليا بالتصدى للقوات المغيرة .

● **البلاغ الثانى (الساعة الثانية وخمسة وثلاثون دقيقة)** ردا على العدوان الغادر الذى قام به العدو ضد قواتنا فى كل من مصر وسوريا تقوم حاليا بعض من تشكيلاتنا الجوية — بقصف قواعد العدو وأهدافه العسكرية فى الاراضى المحتلة .

● **البلاغ الثالث (الساعة الثالثة بعد الظهر)** الحاقا للبيان رقم ٢ نفذت قواتنا الجوية مهامها بنجاح وأصابت مواقع العدو باصابات مباشرة وعادت جميع طائراتنا الى قواعدها سالمة عدا طائرة واحدة .

● **البلاغ الرابع (الساعة الثالثة وعشرون دقيقة)** حاولت قوات معادية الاستيلاء على جزء من أراضينا غرب القناة . وقد تصدت

لها قواتنا البرية وقامت بهجوم مضاد ناجح ضدها بعد قصفات مركزة من مدفعيتنا على النقط القوية المعادية ثم قامت بعض من قواتنا باقتحام قناة السويس مطاردة للعدو الى الضفة الشرقية فى بعض مناطقها ولا زال الاشتباك مستمرا على الضفة الشرقية لقناة السويس .

● **البلاغ الخامس (الساعة الرابعة و ٦ دقائق)** نجحت قواتنا فى اقتحام قناة السويس فى قطاعات عديدة واستولت على نقط العدو القوية بها ، ورفع علم مصر على الضفة الشرقية للقناة كما قامت القوات المسلحة السورية باقتحام مواقع العدو فى مواجهتها وحققت نجاحا مماثلا فى قطاعات مختلفة .

● **البلاغ السادس (الساعة الخامسة مساء)** نتيجة لنجاح قواتنا فى عبور قناة السويس قام العدو بدفع قواته الجوية باعداد كبيرة فتصدت لها مقاتلاتنا واشتبكت معه فى معارك عنيفة وقد أسفرت المعارك عن تدمير احدى عشر طائرة فى هذه المعارك .

● **البلاغ رقم ٧ (الساعة السابعة وخمسة وثلاثون دقيقة)**
نجحت قواتنا المسلحة فى عبور قناة السويس على طول الجبهة وتم الاستيلاء على معظم الشاطىء الشرقى للقناة . وتواصل قواتنا حاليا قتالها مع العدو بنجاح كما قامت قواتنا البحرية بحماية الجانب الأيسر لقواتنا على شاطىء البحر الأبيض المتوسط . وقد قامت بضرب الأهداف الهامة للعدو على الساحل الشمالى لسيناء وأصابتها اصابات مباشرة .

● **البلاغ رقم ٨ (الساعة ١٢ و ٤٣ دقيقة بعد منتصف الليل)**
قام العدو بعد آخر ضوء اليوم بهجمات مضادة بالدبابات والمشاة الميكانيكية ضد قواتنا التى عبرت قناة السويس ومن اتجاهات

مختلفةوقد تمكنت قواتنا من صد جميع الهجمات وتدمير العدو وتكبيده خسائر كبيرة فى الأفراد والمعدات ، ولا زالت قواتنا تقاتل بنجاح من مواقعها على الضفة الشرقية للقناة .

● **البلاغ رقم ٩ (الساعة السابعة وثلاثون دقيقة صباحا)** قام بتلخيص احداث اليوم الأسبق وأضاف أنه فى ليلة ٧/٦ استمر قتال قواتنا مع العدو ودارت معارك عنيفة قام العدو بهجمات مضادة محاولا استعادة الموقف ولكنه فشل وتمكنت قواتنا من صد هجماته العدو مع تكبيده خسائر فادحة فى المعدات والأفراد وقامت قواتنا البحرية بتدمير خمسة قطع بحرية للعدو فى البحر الأبيض المتوسط وقامت بقصف بعض المناطق المعادية بالشاطىء الشرقى لخليج السويس ونتيجة لهذه المعارك وصلت نتائج القتال منذ بدئه الآتى : خسائر العدو ـ اسقاط ٢٧ طائرة للعدو وتدمير ٦٠ دبابة ـ تدمير ١٥ موقعا معينا شرق القناة وعدد من الأسرى يجرى حصره . علاوة على تكبيده خسائر جسيمة فى الأرواح بينما كانت خسائر قواتنا ١٥ طائرة مقاتلة وبعض طائرات الهيلوكوبتر كما تكبدت قواتنا بعض الخسائر فى الأفراد . وما زالت قواتنا تتدفق عبر القناة وتواصل تقدمها شرقا والاشتباكات الأرضية والجوية مستمرة .

● **البلاغ رقم ١٠ (الساعة التاسعة صباحا)** لا زالت قواتنا المسلحة مستمرة فى تدفقها وقتالها فى سيناء مكبدة العدو خسائر كبيرة . وقد قامت القوات الجوية للعدو صباح اليوم بقصف جوى بتشكيلات كبيرة على بعض المطارات واشتبكت معها مقاتلاتنا ووسائل دفاعنا الجوى . وتم تدمير واسقاط خمس طائرات للعدو ولم تحقق غارات العدو الجوية أهدافها .

● **البلاغ رقم ١١ (الساعة الثانية عشرة و ٣٥ دقيقة)** نتيجة لنجاح قواتنا فى عملياتها فى سيناء قام العدو فى الساعة ١١ قبل

ظهر اليوم بتركيز قواته المدرعة تعاونها قواتهالجوية للقيامبالهجمات المضادة ضد قواتنا فى القطاع الشمالى والجنوبى من الجبهة وقد قامت قواتنا البرية بمعاونة قواتنا المقاتلة وبتركيز من مدفعيتنا وتمت ستر دفاعنا الجوى لصد هجمات العدو المضادة تماما وتكبيده خسائر فادحة فى قواته المدرعة وفي الأفراد . كما تم أسر عدد منهم وبدأت قواته تنسحب شرقا .

● **البلاغ رقم ١٢ (الساعة الثانية و٤٠ دقيقة بعد الظهر)** قامت تشكيلاتنا الجوية ظهر اليوم بتوجيه ضربة جوية ضد مواقع الأفراد فى القطاع الأوسط والشمالى من سيناء شملت بعض مواقع العدو الادارية وبطاريات مدفعيته ووسائل دفاعه الجوى واحدثت بهـا خسائر كبيرة فى الأفراد والمعدات . وعادت جميع طائراتنا الى قواعدها سالمة عدا طائرة واحدة . وعلى الساحل الشـمالى لسيناء قامت قواتنا البحرية بتنفيذ مهامها بنجاح فى قصف مواقـع العدو الساحلية كما تمكنت من اسقاط طائرة هليكوبتر للعدو حاولت التدخل فى المعركة وما زالت قواتنا البرية تقوم بتصفية جيوب المقاومة المعادية بنجاح وتم أسر عدد آخر من أفراد العدو كما تم احداث العديد من الخسائر فى أفراده ومعداته . وقد حاول تشكيل جوى معاد التدخل ضد قواتنا البرية أثناء تنفيذ مهامها فى القطـاع الشمالى فتصدت له وسائل دفاعنا الجوى وأسقطت له طائرتين .

كانت هذه هى البيانات التى صدرت خلال الاثنتى عشرة ساعة الأولى من القتال (وقد وصل عددها مع وقف اطلاق النار الى ٥٣ بيـانا) .

أما عن الجانب السورى فقد صدرت البيانات التالية فى نفس الفترة الزمنية :

● **البلاغ الأول (الساعة الثانية و ٢٥ دقيقة)** فى الساعة الثانية بعد ظهر اليوم بدأت قوات العدو بالاعتداء على القوات السورية الأمامية على طول خط وقف اطلاق النار وتقوم قواتنا بالرد على مصادر النيران واسكاتها .

كذلك حاولت مجموعات من طائرات العدو خرق مجالنا الجوى فى القطاع الشمالى من الجبهة فتصدت له مقاتلاتنا وتدور الآن معركة جوية بين طائراتنا وطائرات العدو ولا تزال الاشتباكات مستمرة حتى الآن .

● **البلاغ الثانى (الساعة الرابعة والثلث)** نجحت قواتنافىايقاف هجوم العدو على مواقعنا وانتقلت الى الهجوم المعاكس وقد حررت قواتنا بعض المواقع ومنها جبل الشيخ ويدور القتال الآن غربى خط وقف اطلاق النار .

● **البلاغ الثالث (الساعة التاسعة والربع)** نجحت قواتنا فى اقتحام نقاط الدفاع ـــ المعادية والتحصينات الأمامية والحواجز الهندسية للعدو واحتلت عدة مراكز من دفاعاته ، فى هضبة الجولان المحتلة . وتتابع تشكيلاتنا تقدمها حتى الآن كما أسقطت وسائل دفاعنا الجوى ثلاث طائرات معادية .

● **البلاغ الرابع (الساعة الحادية عشرة والربع)** تمكنت قواتنا بعد معارك ضارية بالدبابات ومختلف أنواع الأسلحة من تكبيد العدو فيها خسائر فادحة وتحرير عدد من المواقع والقرى فى هضبة الجولان المحتلة . كما أسرت قواتنا عددا من جنود العدو .

● **البلاغ الخامس (الساعة السادسة وعشر دقائق)** اعتبارا من الساعة الخامسة والربع من صباح اليوم (الاثنين) استأنف الطيران المعادى نشاطه فوق منطقة الجولان . فتصدت له مقاتلاتنا

ووسائل دفاعنا الجوى وأسقطت له عشر طائرات وعادت طائراتنا سالمة .

● **البلاغ السادس (الساعة الثامنة وأربعون دقيقة)** جرت فى الساعة السابعة والنصف من صباح هذا اليوم معركة جوية بين مقاتلاتنا ووسائل دفاعنا الجوى وبين طائرات العدو ، أسفرت عن اسقاط أربع طائرات معادية وعادت طائراتنا سالمة وبهذا تكون طائراتنا قد أسقطت أربعة عشر طائرة هذا اليوم .

● **البلاغ السابع (الساعة العاشرة و ٢٥ دقيقة)** ما زالت الاشتباكات الجوية مستمرة بين مقاتلاتنا ووسائل دفاعنا الجوى وبين طائرات العدو . وقد تمكنا من اسقاط طائرتين معاديتين فى معركة جرت فى الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين من صباح اليوم .

● **البلاغ الثامن (الساعة الثانية عشرة وعشرين دقيقة)** فى الساعة ١١٫٤٠ من صباح اليوم قامت تشكيلات من طائرات العدو بمحاولة قصف معسكراتنا فى قطنة ودرعا ومراكز دفاعنا الجوى فتصدت لها وسائل دفاعنا الجوى وأسقطت منها ثمانى عشرة طائرة سقطت معظمها فى أراضينا .

● **البلاغ التاسع (الساعة الثانية والربع)** فى تمام الساعة الواحدة والثلث حاول طيران العدو الاغارة على قواتنا المتقدمة بهدف تثبيط مسيرة تقدمها فتصدت له تشكيلاتنا الجوية وأسقطت طائرة معادية فوق خسنين فى منطقة الجولان .

وصف الفريق أول أحمد اسماعيل شعوره ساعة العبور مع لمحة من المشهد العام(١) فقال :

---

(١) الحديث السابق .

((كنا جميعا فى مقاعدنا .. وكانت الخطة أمامنا والعمليات تجرى أمام عيوننا ، تحملها الينا البلاغات من الجبهة : المهمة كذا بدأ تنفيذها ، المهمة ((كذا)) تم تنفيذها .

((من الساعة الثانية بعد الظهر كان المشهد فى غرفة العمليات مثيرا الى أبعد حد : كان العمل دقيقا بأكثر مما يتصور أحد . أثبتت الخطة كفاءتها وكانت المهام تنفذ بجسارة واقتدار ، وكانت هناك لحظات تهز المشاعر الى الأعماق . ولكننا لم نسمح لأنفسنا بأى انفعال .

((ضربة الطيران الرئيسية الأولى — تمهيد المدفعية ونيرانها الكثيفة — موجات العبور الأولى — عمليات الاقتحام المبكرة لخط بارليف — بداية اقامة الجسور — الجيش الثانى يفرغ من اقامة جسوره فى الموعد المحدد — الجيش الثالث يتأخر بعض الشىء بسبب طبيعة الأرض فى اتمام اقامة جسوره . الهجمات المضادة للعدو بالدبابات تجىء فى الموعد الذى توقعناه فى الخطة — جسور الجيش الثالث لا بد من تركيبها بسرعة لكى تعبر الدبابات قبل أن تبدأ الهجمات المضادة للعدو أمام الموجات الأولى التى عبرت بالأسلحة المضادة للدبابات لابد أن تجىء دباباتها وراءها بسرعة . أعصابنا يجب أن تظل قوية لأن أى ارتباك فى مركز القيادة .. يحدث خللا فى توازن العمليات كلها — العدو يقاوم على الجسور وأمام الحصون — قواتنا تواصل تنفيذ مهماتها — أبطال من رجالنا يستشهدون على الجسور وأمام الحصون ولكنهم يعبرون ويقتحمون — خسائرنا أقل مما توقعنا — خسائر العدو أكبر مما توقع . لم يعد هناك شك فى أننا حققنا انتصارا كبيرا)) .

●

كم تنطوى وراء هذه الصورة الموجزة المؤثرة من تفاصيل ! ..

وكم كانت البلاغات العسكرية ــ بكلماتها الرزينة الموجزة ــ تخفى وراءها من ملاحم ! .

وقبل كل شيء وبعد كل شيء كان هناك بعد الخطة وبعد السلاح ذلك العنصر الحاسم آخر الأمر : **العنصر البشرى** .

عنصر الرجال ..

رجالنـــــا ..

الضباط والجنود الذين كانت هذه السطور بالنسبة لنا ، هولا وجحيما وبالنسبة لهم ، ومخاطرة بالموت مئـــات المرات بالنسبة للواحد منهم فى كل دقيقة بل كل ثانية ..

ذلك أن تنفيذ الخطة الموضوعة ، بكل تفاصيلها المعقدة فى الوقت المحسوب لها كان جوهريا لنجاح العملية كلها . كان الوقت حقا من ذهب . أو مما هو أغلى من الذهب ، وهو الدم .

ولم يتردد القادة والضباط والجنود فى الميدان فى دفع هذا الثمن بسخاء ، من أجل انجاح الخطة .

ولا شك أن التنسيق بين شتى عناصر عملية العبور بمهماتها الشديدة التنوع كان أمرا بالغ التعقيد .

فى وقت واحد كانت ملحمـــة انســـانية عسكرية كبرى تعـــزف سيمفونيتها ..

الطيارون فى طائراتهم يقذفون مواقع العدو الخلفية ومراكز القيادة والتحكم وانطلاق الطائرات .. ورجال الصاعقة يتسللون عبر القناة والبحار والأجواء الى نقط فى عمق سيناء للقيام بعمليات شتى من

المراقبة الى التدمير الى ارشاد المدفعية الرابضة على الضفة الغربية رجال المدفعية وراء آلاف المدافع يضربون أهدافا شتى محددة لهم : منها النيران التى تغطى تحرك الجنود عبر القناة ، والنيران التى تنصب على تحصينات العدو مباشرة ، والنيران التى تذهب الى عمق أبعد لتعطيل تحركاته ونجداته .. والمهندسون بأيديهم وأجسادهم ينفذون عملية سد مواسير المواد الملتهبة بالأسمنت التى تنبع من مستودعات يسع كل منها ٢٠٠ طن من المواد الملتهبة مستعدة للاندفاع بالنار فوق سطح القناة ، وقوات صاعقة أخرى تستعد لاحتمال عدم نجاح هذه العملية بالاستيلاء على المستودعات ذاتها .. والماكينات التى تمتص الماء وتدفعه بقوة هائلة على الساتر الترابى تفتح شقوقا فى هذا الساتر .. فى الوقت الذى بدأ فيه الرجال الذين مهمتهم اقامة الكبارى يخرجون معداتهم تحت هذا الجحيم ليصلوا ما بين الضفتين .. ثم قوات المشاة التى كان عليها أن تتواجد بأسرع وقت على الضفة الشرقية لتقتحم الحصون الأولى ذاتها وتستولى على المصاطب المرتفعة قبل أن يتحكم فيها العدو ، ثم لتصد هجماته التى سوف يشنها بالطائرات وأسلحة مدرعاته المشـــيدة عليها .

كان على هذه القوات أن تعبر وتستبسل بل وتستشهد بالتحديد ، حماية لمناطق العبور ورؤوس الجسور .

كان مطلوبا منها فى الخطة أن تصمد ما يقرب من ٢٤ ساعة ، هى المدة التى قدرت تقريبا لعبور القوات المدرعة .

ولهذا عبرت القوات القناة مجهزة تجهيزا خاصا .

فقد درست أقصى حمولة يمكن أن يحملها الجندى معه عابرا القناة ، وصاعدا على قدميه الساتر الترابى ، ثم صامدا ومقاتلا .

وكان التقدير يدور بين ٢٥ و ٣٥ كيلو جراما يجب أن تتسع لما يحتاجه من طعام وماء ودواء وسلاح وذخيرة . واختصرت مواد الغذاء الى أقصى حد لحساب مواد القتال ، صنعت لهذه العملية خصيصا « عربات نقل خفيفة يجرها الجنود باليد عند صعودهم الساتر الترابى » تتسع لحمل الذخيرة التى سيحتاجون اليها . ثم تسليحهم فى الدرجة الأولى الى جانب أسلحة المشاة التقليدية بالصواريخ الخفيفة التى تستخدم ضد الدبابات أو ضد الطائرات .. فسيكون عليهم أن يواجهوا بأجسادهم هول الطائرات والمدرعات خلال هذه الفترة .

وكان العدو يقاتل قتالا عنيفا ..

فاذا كانت بعض مواقعه قد أخذت على غرة ، الا أنهم لم يلبثوا أن قاوموا من هذه المواقع الحصينة بكل الأسلحة المتاحة لهم ، والذخائر المخزونة لديهم فى كل موقع . وبدأت قبل الغروب هجمات مضادة متفرقة على طول الجبهة معززة بقصف جوى كثيف من طائراتهم .. وعندما وصل جنودنا الى جدران الحصون ذاتها ثم الى قلبها ، دار القتال الرهيب رجلا لرجل وسلاحا لسلاح . تحت سماء تنفجر بالبروق والرعود والموت والدمار .. أما نيران مدفعيتهم ودباباتهم فكانت تركز كذلك على كل ما بدا لهم أنه نقط العبور فى محاولة لتدمير « المعابر » المؤقتة السريعة فى محاولة لمنعها من أن تستقر وتصبح جسورا وتتدفق من فوقها القوات .

وكانت أول نقطة حصينة من خط بارليف تسقط فى يد الجيش الثانى هى النقطة التى تقع عند الكيلومتر ١٩ جنوب بورسعيد بعد ساعة و ٢٣ دقيقة . وكانت أول نقطة حصينة تسقط فى يد الجيش الثالث عند الكيلو متر ١٢٤ جنوبا بعد الأولى بسبع دقائق .

ثم توالى سقوط حصون خط بارليف ..

وكان ما يسقط منها بعد ذلك أشد صعوبة ، بقدر تنبه العدو واسترداده لتوازنه وحشده لقواته .. فالنقطة رقم ٢ جنوب الفردان فى قطاع الجيش الثانى مثلا دام القتال فيها ٤٨ ساعة متواصلة قبل سقوطها .. والنقطة الحصينة عند البلاح استولت عليها قواتنا ثم استردها العدو فى هجوم مضاد ، ثم عادت قواتنا فهاجمتها واستردتها من جديد . كل هذا فى ليلة واحدة هى ليلة ٧ أكتوبر .. وأمام الجيش الثالث وحده كان هناك احد عشر حصنا عليه اقتحامها والاستيلاء عليها وقد ظهر أن الأرض أمامه ذات طبيعة « طفلية » كما ظهر أن الساتر الترابى فى بعض الأجزاء يصل سمكه الى مائتى متر .. الأمر الذى أخر عمل سلاح المهندسين فى فتح الثغرات المطلوبة طبقا للخطة .. وبالتالى دخول الدبابات الى سيناء ، والمزيد من بطولات الضباط والجنود من قوات المشاة الذين كانوا يقاتلون على الضفة الشرقية حتى يتم تأمين العبور .

●

قال أحد الضباط الذين قادوا عملية العبور فى ساعاتها الأولى .

« الدفعات الأولى التى عبرت القناة كانت تحمل الاعلام وعندما عبرت القناة كان أول ما فعلته أن غرست أعلامها فوق التلال وتابعت الزحف لتصل الى نقط جديدة وتنصب فوقها أعلاما جديدة .. رغم ماقى ذلك من خطورة بالغة . ولكنك لا تستطيع أن تصف هؤلاء المقاتلين الأشداء . كنت انظر اليهم فأشعر بأن تيارا كهربائيا قد مسهم . كانوا قد قرروا أن يعطوا حياتهم من أجل الوصول الى سيناء » .

فى اليوم التالى كان قد تم اقامة كل الجسور المطلوب اقامتها وعبرت القناة قوات تضم جيشين كاملين .

انتصفت شمس الظهيرة يوم ٧ أكتوبر على هذه الحقيقة التى لم تكن قد تخطر على بال العدو ولا على بال أى مراقب عسكرى أجنبى .

وكان الاسرائيليون قد بدأوا يشنون هجماتهم المضادة مع آخر خيط من الضوء يوم ٦ أكتوبر .

ولكن مع نجاح القوات المصرية فى العبور بكامل أسلحتها على الجبهة المصرية ، ومع اجتياح القوات السورية لخطوط دفاع العدو فى الجبهة الشمالية ، تحول اليمان التاليان الى هجمات مضادة أسرائيلية بقوات مدرعة كبيرة فى الجبهتين وقتال عنيف من المصريين والسوريين لتدعيم مواقعهم ورد الهجمات المضادة .. وبدأت معارك الدبابات فى الاتساع .

واتخذ رد الفعل الاسرائيلى ضد سوريا طابعا انتقاما وعلى الأغلب فى محاولة لتصفية سوريا بسرعة والتركيز على مصر ، اذ لم يقتصر الطيران الاسرائيلى على الضرب فى الجبهة .. ولكنه ازاء الخسائر الفادحة التى لحقت به من بطاريات صواريخ سام ٦ وسام ٧ .. عمد الى الانتقام بضرب الأهداف المدنية والاقتصادية . فأخذ يضرب قلب مدن دمشق وحمص وطرطوس واللاذقية .. ولكن الروح المعنوية العالية ، التى لا مثيل لها والتى واجه بها الشعب السورى هذا القصف والتدمير فى قلب مدنه وفى أرواح أبنائه كان لا يقل شهادة للامة العربية على بسالتها عن الشهادة التى كان يقدمها مقاتلوها فى جبهات القتال .

فى حين اتخذ رد الفعل الاسرائيلى فى مصر محاولة تدمير رؤوس الكبارى على قناة السويس ومنع تدفق القوات فراح يشن الهجمات المضادة بالألوية المدرعة المعززة بالمدفعية والطائرات بغير انقطاع .

ويوم الثلاثاء أعلن بيان عسكرى مصرى فيما أعلن تدمير لواء اسرائيلى مدرع — اللواء رقم ١٩٠ — بأكمله وأسر قائده الجنرال عساف ياجورى .

ويوم السبت بعد أسبوع من بدء القتال أعلنت اسرائيل مصرع الجنرال مندلر قائد كل قواتها المدرعة .

وصف اللواء حسن أبو سعده قائد الفرقة المصرية التى دمرت اللواء الاسرائيلى ١٩٠ المعركة كنموذج لقتالنا ضد هجمات العدو المضادة فقال(١) :

فى اليوم الثانى من الحرب شاءت اسرائيل أن تلعب على المستوى الاستراتيجى . كان قادتها يحاولون الوصول الى أعماقنا بأى شكل وكانوا يظنون أنهم يستطيعون أن يفعلوا ذلك كما فعلوا عام ١٩٦٧ .

وقد بدأوا محاولتهم الأولى بارسال اللواء المدرع ١٩٠ من « بئر شوبا » على طريق العريش فى اتجاه الفردان . ثم أخذوا يدفعون مجموعات صغيرة من الدبابات الى الجناح الأيسر لجس النبض . كانوا يتصوروننا نظريين . وأخذنا نحن نصد هذه الدبابات على انها الهجوم الرئيسى للعدو .

بعد ذلك أرسلوا قوات صغيرة أخرى لدعم المجموعات المتقدمة .

ومرة أخرى أرسل العدو مجموعة ثانية باتجاه آخر ، فأظهرنا له خطة متجاوبة مع هدفه بمعنى اننا تصرفنا وكأننا نلبى خطته .

---

(١) حديث عزت صافى ، جريدة الأنوار .

وبعد ذلك دفع بمجموعة جديدة الى خلف قواتنا فى مكان جديد . ثم جاءت معلومات بأن قوات العدو تتجمع على بعد ٦ كيلو مترات الى الشمال الشرقى من هذه المنطقة . وكنت تصورت أين سيكون الهجوم المضاد وكان فى منطقة الوسط وكنت مستعدا وبدأنا ننصب فخا للعدو .

وبعد عشر دقائق بدأ العدو هجومه بسرعة ٤٠ كيلو مترا ، فأمرت الخط الأول بالنزول فى المخابىء وقلت لجنودى : اتركوا اللواء ١٩٠ يمر حتى نأخذه بالأحضان ! .

وعندما بدأت الدبابات الاسرائيلية تمر على حفر المشاة المموهة عندنا أخذ هؤلاء يقفزون من الحفر المموهة كالشياطين ويدكون دبابات اللواء ١٩٠ فيما كانت دباباتنا وكل وسائلنا المضادة للمدرعات تطبق على العدو .

وكان قائد اللواء الاسرائيلى عساف ياجورى بعيدا عن قواته بثلاثة كيلو مترات . وطبعا لم تكن هذه المفاجأة تخطر له . وقد حاول أن يفر بدبابته ولكن أحد ضباطنا الممتازين أسرع بدبابته خلف دبابة ياجورى وضربها فأصابها ، فقفز ياجورى منها ومعه جنديان ، وأسرعت مركبة قيادة اسرائيلية لتلتقطه ، الا أن مجموعة من جنودى على رأسها ضابط كانت له بالمرصاد . وبصاروخ واحد صغير ضربت مركبة القيادة الاسرائيلية فقفز منها عساف ياجورى ومعه أربعة جنـــود .

وأمرتهم مجموعتنا بالابستسلام ، فرفع ياجورى يديه مستسلما ، وأمر جنوده بالاستسلام أيضا . الا أن أحدهم حاول اطلاق رشاشه « العوزى » فالتحمت معهم مجموعتنا بالسلاح الأبيض واستعملت مجرفة الرمل فى هذه المعركة فقتل ثلاثة جنود اسرائيليين واستسلم الرابع وهو بحالة سيئة ووقع عساف ياجورى فى الأسر .

وقد طلب مقابلتى فوافقت .

« وجىء به الى . كان خائفا على مصيره وسألنى عن مصيره فقلت له : انك ضـــابط كبير والحرب قد انتهت بالنسبة اليك . فأنت الآن أسير حرب وسوف تعامل حسب اتفاقية جنيف الخاصة بأسرى الحرب » .

وفى ظل هذا القتال المتلاحم من الجانبين كانت القوات المصرية قد استولت تماما على خط بارليف بكل مواقعه وتحصيناته وشبكاته الدفاعية وطهرت شاطىء القناة الشرقى من كل وجود اسرائيلى عليها . وكان آخر ما أعلن سقوطه عاصمة سيناء مدينة القنطرة شرق . أعلن ذلك البلاغ العسكرى رقم ١٦ يوم الاثنين ٨ أكتوبر فى الساعة التاسعة والنصف مساء قائلا « عاد العلم المصرى الى مكانه العزيز فوق المدينة الثانية فى سيناء كلها وهى القنطرة شرق وذلك بعد أن تم تحريرها بواسطة قواتنا المسلحة وكانت أهمية عملية تحريرها راجعة الى أن القوات المضرية كانت تراعى اعتبارين فى نفس الوقت . وهما : تدمير قوات العدو فيها والمحافظة على أرواح المواطنين المصريين الذين بقوا فيها يعانون ظروف الاحتلال . ولتحقيق هذا الغرض تم حصار المدينة داخليا وخارجيا . ثم جرى اقتحام مشارفها ودار قتال مع جنود العدو فى الشوارع والمبانى حتى انهـــارت قوات العدو واستسلمت . وقد استولت القوات المصرية على كميات كبيرة من سلاح العدو وعتاده بينها عدد من دبابات سنتوريون واكس ايه. أم راسه ثلاثين فردا للعدو هم كل من بقى حيا منهم فى المدينة . وكانت فرحة المواطنين المصريين داخل المدينة بعد تمام تحريرها فرحة كبرى حيث اندفعوا الى الحفاوة باخوانهم المقاتلين المصريين من أجل شرف الوطن وعزته . وتعبر القيـــادة العامة للقوات المسلحة عن اعتزازها باشتراك هؤلاء

المواطنين عمليا فى مساعدة قواتهم المسلحة . وكان جهدهم معها وعونهم لها رمزا للتلاحم بين قوى الشعب وقوات جيش الشعب ..

* * *

كانت فى صفوف القوات المصرية قوات كويتية وفلسطينية .. وأسرعت قوات جزائرية الى الجبهة المصرية بأقصى سرعة ..

وكانت فى صفوف القوات السورية قوة مغربية . وعندما سمعت بغداد أنباء اشتعال القتال وأنها الحرب حقا بادرت فأرسلت خيرة قواتها المدرعة التى أسرعت عبر طريق الصحراء الطويلة المكشوفة لطيران العدو الى اتخاذ مواقعها فى الجناح الأيسر للقوات السورية. ودخلت لحظة وصولها رغم اجهادها المعركة فورا فى مرحلة من مراحل القتال الحاسم على الجبهة السورية .. كما قاتلت طائرات عراقية من الجبهتين المصرية والسورية فى نفس الوقت ..

وأعلنت سائر الدول العربية عن دعمها المالى والاقتصادى للقوات التى تقاتل عن الأمة العربية كلها على الجبهة ..

* * *

كان طبيعيا أن يكون للمقاومة الفلسطينية التى لم تتوقف بنادقها قط ، دور فى هذا القتال الضخم ..

كان للمقاومة الفلسطينية مكانها فى القتال على الجبهة السورية وكان لها نصيبها من العمليات الفدائية طوال أيام المعركة ..

ومن أمثلة البلاغات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية ..

● قصف الثوار الفلسطينيون أجهزة رادار العدو العسكرية

على قمـــة جبل الجرمق بالجليل الغربى بالصواريخ وأصابوها مباشرة .

● قام ثوارنا فى الأراضى المحتلة بايقاع قافلة امداد وتموين مؤلفة من ثلاث سيارات نقل عسكرية فى الطريق العام بين بئر سبع وعصلوج حيث كانت هذه القافلة متجهة الى منطقة القتال فى سيناء . دمرت الثلاث سيارات وقتل جميع من فيها .

● قام ثوارنا بنسف قطار محمل بالذخيرة بالقرب من مدينة خان يونس فى قطاع غزة ، ونتج عن ذلك تدمير عدة عربات محملة بالذخيرة واشتعال النيران فيها .

● قامت مجموعة من الفدائيين بضرب مؤخرة العدو فى الجولان واوقعت فى العدو خسائر فادحة . واستشهد فى هذه العملية ثمانية من رفاقنا .

* * *

منـــذ البداية اعترفت اسرائيل بنجاح المفاجأة الاستراتيجية والمفاجأة التكتيكية ضدها ..

واعترفت بأن هذه حرب من نوع آخر غير ما واجهته من قبل ، وان خسائرها فادحة غير خسائر الحروب السابقة (**قال أبا ايبان بعد ذلك فى خطابه فى مؤتمر جنيف أن خسائر حرب ٧٣ بالنسبة لاسرائيل تساوى كل خسائر اسرائيل منذ ١٩٤٨ فى الحروب وفى كل عمليات العنف الأخرى) ..**

ولكن الغرور لم يبرح اسرائيل وقادتها بسهولة ..

فى اليوم الأول قال الجنرال دافيد العازار ، قائد عملية اختراق

الجولان سنة ١٩٦٧ ، ورئيس الأركان : أننا سندق لحمهم وعظامهم .

وقالت البيانات العسكرية ــ متسرعة ــ أنها دمرت كل رؤوس الكبارى المصرية .. ثم تراجعت الى زعم تدمير « معظمها » .. قبل أن يعرف العالم انه لم يدمر كوبرى واحد .

ثم لم تلبث لهجة البيانات والتصريحات الاسرائيلية أن تراجعت خطوة الى الوراء ..

قال الجنرال العازار نفسه بعد يومين « نحن الآن فى وسط معركة ، ومستمرون فى الهجوم المضاد حتى ندمر كل القوات المهاجمة » .

وقال موشى ديان فى الاذاعة الاسرائيلية فى تحديد شامل لتصوره للمعركة : سوف ينتهى القتال فى ستة أيام ! فيومان يكفيان لاستكمال التعبئة الشاملة ويومان لا يقاف الهجوم علينا ويومان لتدمير قوات العدو على الجبهتين » ..

ولكن ما كان يجرى وراء هذا الستار من الثقة كان أمرا آخر بدأ العالم يلمحه لأول مرة يوم الأربعاء ١٠ أكتوبر (اليوم الخامس للقتال) حين اضطرت اسرائيل الى أن تعلن على العالم عن تغيير قياداتها العسكرية فى صيغة مبطنة هى : استدعاء ست جنرالات سابقين للخدمة تحت ستار « القيام بمهمات خاصة » وهم :

ــ الجنرال حاييم بارليف رئيس الأركان السابق مباشرة على العازار لمدة أربع سنوات وخبير اسرائيل الأول فى حرب المدرعات .

— الجنرال جافيتشى ، وقد أرسل الى « الجبهة الجنوبية » وكان قائدا لها قبل ذلك .

— الجنرال أموس هوريف كبير علمـــاء الجيش الاسرائيلى سابقا وقد عين مساعدا لرئيس أركان الحرب (على الأغلب للاشراف على وضع أساليب لمواجهة الأساليب الجديدة التى كشفت عنهـــا القتال وخصوصا الصواريخ المضادة للدبابات التى تحملها المشاة).

— الجنرال موردخاى هود القائد السابق لســـلاح الطيران الاسرائيلى والمشرف على ضربة ١٩٦٧ الجوية .

— الجنرال أهارون ياريف مدير المخابرات السابق ومستشار رئيسة الوزراء العسكرى .

— الجنرال ريحابون زيجينى ، قائد القطاع الأوسط (الضفة الغربية) سابقا .

ولكن القصة كما ظهرت فيما بعد كانت أعمق من ذلك بكثير .

ومن مجموع ما نشرته الصحف الأجنبية لمراسليهـــا المتصلين بالدوائر الاسرائيلية (خصوصا الصنداى تايمز ، والأوبزيرفر ، والصنداى تلجراف ، والنوفيل أوبزرفاتير) نجد أن القـــدر المتيقن مما حدث كان كما يلى :—

بعد ٤٨ ساعة فقط من نشوب القتال كان الاسرائيليون يواجهون كارثة على الجبهتين . فقد اقتحم المصريون قناة السويس بقوات ضخمة ، واخترقت الدبابات السورية الخطوط الاسرائيلية واستولت على جبل الشيخ ، وأحـــاطت بالقنيطرة ، وتســـاقطت الطائرات الاسرائيلية بنسبة لم يسبق لها مثيل بالنسبة لأى سلاح جوى آخر

فى العالم . وفى هذا الجو ـــ كأى جو هزيمة ـــ انفجرت أزمة حادة فى القيادة الاسرائيلية العامة فى داخل الحكومة ذاتهـــا حول طريقة ادارة ـــ الحرب ...

فى تل أبيب ، بدأ العسكريون يتهمون السياسيين بعدم تقدير الموقف تقديرا صحيحا وبالعكس أخذ الوزراء الذين لم يستشاروا فى الأيام الحاسمة قبل الحرب يتهمون غيرهم بأنهم لم يستخلصوا النتائج الصحيحة من العلامات والنذر الذى سبقت القتال . ونالت المخابرات العامة والمخابرات العسكرية حظها من النقد ...

ولكن الكارثة الكبرى كانت فى الجبهة الجنوبية حيث صار هناك جيشان مصريان كاملان متماسكان شرق القناة ، وتم الاستيلاء على خـــط بارليف ، وأقيمت رؤوس الكبـــارى القوية التى فشلت كل الجهود لتدميرها . ثم أن هناك مشكلة الخسائر الفادحة خصوصا فى أعز ما تملك اسرائيل من الطائرات والدبابات وأطقمها البشرية ـــ على الجبهتين المصرية والسورية .

وكان الجنرال شارون وصل ليقود قواته الى مقر القيادة الميدانية المتقدمة فى « الخشبية » ليعمل تحت قيادة الجنرال جونين قائد الجبهة الجنوبية .

ولكن شارون كان قائدا للجبهة الجنوبية قبل شهور ، وطوال سنوات عديدة . وقد استقال لأنه لم يعين رئيسا للأركان بدلا من العازار ، وهو يتهم مايير ودايان بأنهما تخطياه لأنه من حزب جحل المعارض وليس منجنرالات حزب العمل مثل ديان وبارليف وغيرهم، أى أنه كان مطلوبا منه أن يعمل مرؤوسا تحت من كان مرؤوسا له شخصيا قبل شهور وهو « جونين » . ثم أنه يعتبر نفسه الخبير الأول بالحرب فى سيناء بالذات التى عرفها بسنة ٥٦ و ٦٧ وظل

مسيطرا عليها منذ ١٩٦٧ ، بالقياس الى الجنرال جونين الذى تولى القيادة الجنوبية منذ شهرين فقط .

وكان الجنرال جونين قد بدأ يفقد سيطرته على نفسه تحت تأثير الهزائم غير المتوقعة التى الحقها به المصريون والخسائر الكبيرة التى منيت بها قواته ..

وقال أحد الذين كانوا حاضرين فى مقر القيادة الجنوبية فى ذلك الوقت أن الجنرال جونين « أشاع جوا من اليأس وفقد هدوء أعصابه وكان يصيح باستمرار وتدهورت علاقاته مع قواد الميدان الثلاثة التابعين له : شارون وابراهام ادان وكالمان ماجين . واختلف معه شارون بالذات خلافا عنيفا حول ادارة العمليات وقال له مرة « لقد أوصلتنا الى موقف جعلنا المصريون فيه نرقص على نغماتهم دون أن نبذل شيئا لتغيير هذه النغمة » .

ووصلت أنباء هذا الانهيار بسرعة الى الجنرال ديان وزير الدفاع فى تل أبيب فى مقر قيادته فى شارع كابلان رقم ٣١ . وحاول ديان أن يحل المشكلة بأن اقترح على دافيد العازار رئيس الأركان أن يتبادل شارون وجونين منصبيهما ، أى يصبح شارون من جديد هو قائد الجبهة الجنوبية . ورأى العازار أن هذا التبديل بين الرجلين سيخلق موقفا أكثر تفجرا ، فذهب بنفسه الى مقر القيادة الجنوبية وعاد باقتراح أن يرأس الاثنين قائد أكبر منهما : الجنرال حاييم بارليف رئيس الأركان السابق .

واستدعى بارليف للخدمة من منصبه كوزير للتجارة تحت ستار تكليفه بواجبات خاصة « ولكن هذه الواجبات الخاصة » كانت ببساطة : قيادة الجبهة الجنوبية ضد الجيش المصرى . ومن تلك اللحظة صار هو المسئول الحقيقى عن توجيه الحرب فى سيناء وأن كانت الأوامر والتعليمات ظلت تصدر باسم الجنرال جونين .

على أن شارون وان كان يكن الاحترام لحاييم بارليف الا أنه كان على خلاف معه أيضا ..

فمن الناحية السياسية ينتمى بارليف أيضا الى كتلة حزب العمل وينتمى شارون الى المعارضة اليمينية المتمثلة فى كتلة لكود ، وكانا قبل الحرب مباشرة مشتبكين فى صراع سياسى عنيف .

ومن الناحية العسكرية كانت هناك قصة قديمة ، وقصة جديدة .

فالجنرال شارون اذاع بعد الحرب عندما رأى صور التجسس الجوى قبل الحرب بأيام أيقن أن الحرب ستنشب فورا وأعلن رأيه هذا للمسئولين ولكنهم ومن بينهم بارليف الذى كان فى مجلس الوزراء لم يتخذوا الاجراءات اللازمة .

القصة الاخرى أن شارون ، كما روى بعد ذلك ، كان خلال حرب الاستنزاف وخصوصا فى الشهور الأخيرة حين بدأت شبكات الصواريخ الجديدة تقام رغم الضرب الجوى الشديد وتسقط الطائرات الاسرائيلية بدرجة وصفها ايبان بأنه « تآكل » .. وضع شارون بوصفه قائدا للجبهة الجنوبية خطة للعبور بقوات مدرعة الىغرب القناة ، تقوم بتدمير هذه الشبكات على الأرض بعد أن تعذر تدميرها بالطيران وحده ، وسميت الخطة من وقتها باسم « الغزال » وقال شارون أنه وضح تفاصيلها حتى أنه حدد نقطة العبور شمال البحيرات المرة قام بوضع علامات بالطوب الأحمر على نقطة العبور لكى تتعرف الجرافات عليها حين تأتى لتمهيد الطريق .

وقد رد بارليف بعد ذلك علنا على شارون (بعد حرب ٧٣) بأن هذه الخطة ليست خطة شارون كما يدعى ، وهذه دعاية انتخابية .

ولكنها خطة اشتركت فيها الأركان العامة كلها ، وكان طبيعيا أن يكون لشارون دور فيها كقائد للجبهة الجنوبية ، واستشهد بارليف على ذلك بعشرات الضباط الذين ساهموا فى وضع هذه الخطة .

الآن وفى اليوم الثالث من القتال كان رأى شارون أنه يجب أن تعدل خطة الغزال هذه الى حجم آخر ، وأن تنفذ فورا ، لأن هذه هى الطريقة الوحيدة لارباك الهجوم المصرى الشامل الذى يزداد ترسخا فى الجبهة الغربية ، والذى تكسرت امامه كل الهجمـات المضادة بالدبابات والطائرات .

ولكن قيادة الاركان وجدت أن الوقت ليس مناسبا لتنفيذ هذه الخطة : فالهجوم الشامل على كل الجبهة لم يترك لاسرائيل قوة اضافية تلقيها للعمل هذه الثغرة ، والقوات المتاحة فى ذلك الوقت لا يمكن لها تأمين اقامة جسور مأمونة العبور ستكون تحت مرمى المدفعية المصرية .

واحتكم شارون فىخلافه مع قيادة الأركان الىالجنرال ديان وزير الدفاع . وقال له ديان بصراحة **« ان كل ما يمكن أن نستغنى عنه ونعطيه لك الآن هو لواء مظلات نغطى به بوادر هجوم من الجيش الثالث المصرى نحو الممرات . ومحاولتك الآن قد يكتب لها النجاح ولكنها اذا فشلت فلن يبقى لاسرائيل شىء فى سيناء وسوف تتعرض اسرائيل ذاتها للخطر »** .

وقد عملت السلطات الاسرائيلية على اخفاء هذه الأزمة الحادة . ومنعت جنرالاتها من مقابلة الصحفيين الأجانب . ولكن الموقف كان يتدهور فى سيناء .

« كانت القوات الاسرائيلية قد انهكت فى مواجهة المشاة المصريين بصواريخهم المضادة للدبابات . وفى اليوم الثالث أنزل المصريون هزيمة ضخمة بالإسرائيليين اشاعت أكبر قدر من الكآبة فى القيادة الاسرائيلية فقد وقع اختيار الكولونيل آمنون ريتشيف قائد القوات المدرعة الأساسية فى سيناء على الفتنانت كولونيل عساف ياجورى لكى يقوم بأول هجوم مضاد حقيقى بكتيبة رقم ١٩٠ من دبابات بالون الأمريكية .

ثم حدث لهذا الهجوم المضاد ما سبق ذكره ..

وتستطرد الجريدة قائلة « وهكذا انخفض حجم قوات ريتشيف من ٢٥٠ الى ٩٠ دبابة ظلت فى عمليات مستمرة لمدة يومين . ولم يهتد أطقم رجال الدبابات المجهدون والذين كانوا فى رعب بالغ أحيانا الى وسيلة لمحاربة تكتيكات المشاة المصريين الذين كانوا يزحفون فوق الرمال بصواريخهم وينصبون الكمائن ويطلقون سحابة رهيبة من الصواريخ عندما تظهر الدبابات الاسرائيلية .

« وكان المصريون يتقدمون بعنف فيما وصفه ريتشيف بأنه « هجوم زاحف » وكانوا ، يخلفون وراءهم فى الطريق الحطام المتناثر للدبابات الاسرائيلية المحترقة فى الوقت الذى ظلت فيه مدرعاتهم سليمة آمنة وراء ستار الصواريخ المضادة للدبابات فى البر ، وستار الصواريخ المضادة للطائرات فى الجو .

« لقد دخلت أطقم الدبابات الاسرائيلية المعركة وهى على استعداد لمقاتلة الدبابات الأخرى وملأوا خزائنهم بالصواريخ الخارقة للدروع ، فى حين أنهم كانوا يحتاجون الى ذخيرة مضادة للأفراد لاستخدامها ضد المشاه الذين كانوا يصبون عليهم نيران الموت . وانقضت أيام قبل أن يتمكنوا من الحصول على الذخيرة الصحيحة » .

قالت الجريدة الانجليزية « ... قبل أن يتمكنوا من الحصـــول على الذخيرة الصحيحة » ..

اى قبل أن يدخل الأمريكيون ساحة الحرب لانقاذ اسرائيل ! .

وهذا ما سيجىء أوانه بعد قليل ..

* * *

انقضى أسبوع منذ بدء القتال ولم تتمكن قوات موشى ديان من انهاء المعركة فى ستة أيام كما وعد فى أول أيام الحرب ..

بل لقد كانت الصورة فى نهاية الاسبوع مختلفة تماما ..

فبعد أن تم للقوات المصرية الاستيلاء على خط بارليف وتطهير جبهة القناة كلها من أى قوة اسرائيلية ، قضت القوات الاسرائيلية بقية الاسبوع الأول وهى تشن هجمات مضـــادة بلا انقطاع .. مستخدمة الوية كاملة من الدبابات وقوات المشاة المحمولة وكل طاقة سلاح طيرانها الموزعة « بين الجبهتين » وكان القتال يدور ليلا ونهارا فى محاولات مستميتة للعــدو تستهدف منع الجيشين الثانى والثالث من تثبيت مراكزهما على الضفة الشرقية أو تدمير رؤوس الكبارى المقــامة أو ايقاف تدفق التعزيزات من الرجــال والأسلحة والعتاد ..

ظلت القوات الاسرائيلية حتى يوم ١٤ أكتوبر تبذل هذا الجهد الجبار ، وبلاغاتها العسكرية وتعليقات المحللين فيها وتصريحات الرسميين تؤكد أنهم على وشك تدمير الوجود المصرى شرقى قناة الســـويس .

ولقد بدأوا وقتها يقللون من شأن خط بارليف ، ويقولون ان

المصريين بعد استيلائهم على هذا الخط لن يلبثوا أن يهزموا فى معارك الدبابات المفتوحة فى الصحراء أمام القوات الاسرائيلية المدرعة الشهيرة .

ولكن هذا كله ضاع عبثا ..

لقد خسر الاسرائيليون رغم كل ما بذلوه معركة شاطىء القناة . خسروا معركة منع قوات الجيش المصرى من احتلال الشاطىء الشرقى عنوة مواجهة . وفى فجر يوم الرابع عشر من أكتوبر ، أى بعد ثمانية أيام من بدء القتال الذى لم يتوقف قط ، ومع أول ضوء من صباح الأحد ١٤ أكتوبر ، شنت القوات المدرعة المصرية على طول الجبهة هجومها الثانى الكبير لتدمير أكبر قدر ممكن من قوات العدو ولتوسيع العمق الذى تسيطر عليه القوات المصرية فى سيناء ..

وكان هذا الهجوم فاتحة أكبر معارك للمدرعات عرفتها الحروب منذ الحرب العالمية الثانية ..

ولم تلبث أن اشتركت فى القتال كافة الأسلحة ..

فقد أسرعت طائرات العدو الى دخول المعركة لمساعدة قواتها الأرضية . وعلى الفور اشتركت قواتنا الجوية وأجهزة الدفاع الجوى فى القتال ضدها . وقدر المراقبون الأجانب القوات المشتركة فى القتال بألفى دبابة ..

وكانت البيانات الاسرائيلية قد كفت عن مزاعم تدمير قواتنـــا واحتوائها وتدمير رؤوس الكبارى وانتقلت مع بداية هجومنا الى نغمة دفاعية ..

كان أول نبأ من تل أبيب يقول « ان القوات المصرية بدأت مع

الفجر هجوما عاما بطول الجبهة من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب وقد مهد للهجوم قصف شديد بالمدفعية وهجوم مركز بالطيران » .

وبعد مرور سحابة اليوم الأول قال معلقهم العسكري الرسمي . حاييم هرتزوج : « ان الهجوم الذى شنته القوات المسلحة المصرية صباح اليوم فى صحراء سيناء يدور على جبهة واسعة جدا كما يبدو عنيفا للغاية .. وان كافة الدلائل تشير الى اننا أصبحنا الآن فى مرحلة حرجة من الحرب الدائرة على الجبهة الجنوبية وقال : ان الانسان يعجز عن التنبؤ بشىء قبل نهاية هذا الهجوم » .

وفى نهاية اليوم أعلنت اسرائيل أن الجنرال ابراهام مندلر ، القائد العام للقوات المدرعة فى سيناء لقى مصرعه فى القتال .

وفى الليل كان موشى ديان يظهر على شاشة التليفزيون الاسرائيلى ليتحدث بلغة جديدة .. هذه حرب صعبة ، معارك الدبابات فيها قاسية ، ومعارك الجو فيها مريرة .. انها حرب ثقيلة بأيامها وثقيلة بدمارها .. وليس أمامنا الا أن نقاتل بقلوب مكتئبة .

وفى نفس الوقت كانت اسرائيل تبذل جهدا جبارا فى الجبهة السورية دون جدوى لاختراق الخطوط السورية . وزعمت اذاعاتها عدة مرات أنها على الطريق الى دمشق ، ولكن القوات السورية دمرت كل هذه المحاولات واحبطت كما قالت الصحف الأجنبية عدة محاولات اسرائيلية لتطويقها . ولم يفلح الضرب الانتقامى ضد المدنيين فى مدن الداخل فى زعزعة روح الصمود والقتال السورية فلما بدأ هذا الهجوم المصرى الشامل اختفت نهائيا مزاعم اسرائيل عن الزحف الى دمشق : ذلك انها أدركت أن الجبهتين لم تبذلا كل ما لديهما فى الهجوم الأول . وانهما بعد أسبوعين قادرتان على توجيه ضربات جديدة وانزال خسائر فادحة بالقوات الاسرائيلية .

لقد أزال الأسبوع الثانى من القتـــال أسطورة تفوق الجيش الاسرائيلى فى حرب المدرعات المفتوحة فى الصحراء المكشوفة .

وبدأت كل تعليقات الخبراء العسكريين الأجانب تتنبه الى دروس هذه الحرب الجديدة والأساليب الحديثة التى اتبعت فيها .

وقد يكون مناسبا أن نقف هنا ، ومعارك الدبابات الكبرى دائرة يوما بعد يوم ، عند بعض هذه التعليقات .

كتب دور ميدلتون ، الخبير العسكرى الأمريكى ، عدة تعليقات هامة(١) من بينها :

يوم ١٢ أكتوبر كتب يقول :

اتسعت أبعاد الحرب فى الشرق الأوسط ، وتغير ميزان القوى لصالح الغرب ، على حد قول المصـــادر العسكرية البريطانية والأمريكية العليمة .

وقد بدأ السلاح الجوى الاسرائيلى مضغوطا ، وفقد من طائراته طبقا لأقوال المصادر الأمريكية ، نحو ٦٠ طائرة على الأقل خلال ثلاثة أيام .

وقد ذكرت المصادر العسكرية الأمريكية ، استنادا الى تقديرات المخابرات من الشرق الأوسط ، أن للمصريين الآن قوات هائلة فى الضفة الشرقية للقناة ومئات الدبابات .

وتعتمد هذه القوة فى حمايتها من الضربات الجوية الاسرائيلية

---

(١) جريدة الاهرام والنيويورك تايمز .

على صواريخ « سام — ٢ » و « سام — ٣ » ، وصواريخ « فروج » أرض — أرض .

وذكر أحد المصادر أن التكتيك المصرى واضح ، وهو حمل الاسرائيليين على مهاجمة رأس الجسر وتجنب حرب المناورة .

وكما قال ضابط أمريكى ، وافق على هذا التقييم ، ان التكتيك المصرى — على ما يبدو — هو « أن يفعل العدو ما تريده أنت أن يفعل » .

وقالت المصادر أن المحاولة الاسرائيلية الأولى لتصفية رأس الجسر جرت دون استعداد كاف ، وبقوة غير كافية . وليس من الأرجح أن تتكرر هذه الأخطاء ، التى تعكس افراط القوات الاسرائيلية فى الثقة بنفسها ، نتيجة انتصارها عام ١٩٦٧ .

الا انه ليس من المؤكد أن تقوم اسرائيل بضربة ناجحة مضادة، وذلك بسبب الامدادات المنظمة من القوات المصرية عبر القناة ، وامكان تزويد مواقع الاطلاق فى الضفة الشرقية بامدادات جديدة من الصواريخ أرض — جو ، وأرض — أرض .

ويرى المراقبون أن وصول مزيد من الامدادات للمصريين فى سيناء ، قد يجعل استراتيجية الاستنزاف أقل جاذبية للاسرائيليين مما كانت عليه منذ يومين عندما استخدمت هذه العبارة لأول مرة فى تل أبيب .

فنجاح عمليات الاستنزاف يرتهن بتوافر عدد من الرجال ومقادير من العتاد أكثر مما لدى الجانب الآخر . ولم يكن لدى الاسرائيليين أبدا عدد من الرجال ، حتى فى حالة التعبئة الشاملة ، أكثر مما لدى المصريين والسوريين . واذا استمر الجسر الجوى من الأسلحة

السوفييتية لمصر ، واذا استمرت خسائر الاسرائيليين ، فسيكونون أقل مستوى فى شبكات الأسلحة الحديثة : الطائرات المقاتلة ، والصواريخ ، والدبابات ، والمدافع المضادة للدبابات والطائرات .

وهناك احتمال قائم ، هو أنه بالنظر الى قوة راس الجسر فى سيناء ، وأجهزة الدفاع المتينة هناك ، فانه قد يتم ارسال بعض الاسرائيليين فى الشمال الى شبه جزيرة سيناء لتعزيز الهجوم المتوقع فى سيناء .

ويرتهن موقف اسرائيل العام بقدرة جيشها على الاحتفاظ بالمرونة فى مخططاته وتكتيكاته . وهذا هو السبب فى أن الاسرائيليين أعادوا تنظيم القيادة العليا ، بالاستعانة بالضباط القدامى وترقية القادة الذين لهم ادراك بالقدرات الجديدة للقوات المصرية .

وترى أغلبية المصادر العسكرية الغربية انه يتعين على اسرائيل أن تتخلص من رأس الجسر المصرى اذا أرادت أن تستعيد موقف المساومات فى الجانب السياسى . ويتعين كذلك على المصريين أن يتمسكوا بمواقعهم لتحسين موقفهم ، وليس أمام أى من الجانبين مهمة سهلة فى هذا الشأن .

ولكنه بعد يومين كتب يقول :

بعد ثمانية أيام من القتال العنيف ، كان كبار المسئولين العسكريين فى الولايات المتحدة والغرب يعتقدون أن المرحلة الحاسمة فى الحرب قد اقتربت . فاسرائيل تحاول بأكبر جهد ممكن فتح طريق الى دمشق . وفى سيناء فان قوافل السيارات التى تحمل الرجال والامدادات توضح وجود حشد للقوات الاسرائيلية يفوق أى حشود لها تشهدها هذه الحرب .

وقالت المصادر العسكرية أن هدف اسرائيل هو تحطيم الجيش السورى ورد القوات المصرية عبر قنـاة السويس على أن نفس المصادر تتساءل عما اذا كان ما تنفقه اسرائيل من الرجال والعتاد وحالة التوقف التى تسود الاقتصاد الاسرائيلى ، سيكون أمرا ممكنا من الناحية السياسية لدولة قوام شعبها ثلاثة ملايين نسمة .

ويقول أحـد التقديرات الغربية أن اسرائيل قـد خسرت حتى اليوم الرابع للقتال ٢٠٠٠ جندى فى المعارك . واذا صح هذا التقدير فان ذلك يكون لطمة خطيرة لدولة تتكون من ثلاثة ملايين نسمة . اذ أن ذلك الرقم سيكون مساويا لأن تخسر الولايات المتحدة ،التى يبلغ تعدادها ٢٢٠ مليون نسمة ، ١٥٠ الف جندى ، وهو مايوازى تقريبا ثلاثة أضـعاف الجنـود الأمريكيين الذين قاتلوا فى الحرب العالمية الأولى .

ومن ناحية أخرى فان استمرار القتال أسبوعا آخر ضد المقاومة العربية المتسمة بالتصميم يمكن أن تتضاعف خسـائر اسرائيل فى البشر والعتاد وتزيد من حدة المشاكل الاقتصادية .

ويتساءل الضباط العسكريون فى الغرب عما اذا كانت اسرائيل يمكنها أن تحتفظ ـ وقد أنهكتها مثل تلك الخسائر ـ بقوةسياسية وعسكرية تتيح لها التفاوض لوقف اطلاق النار وعلى قدم المساواة مع الدول العربية .

ومن المحتمل أن يكون ثمة ضـغوط داخل القيـادة الاسرائيلية لخفض الخسائر فى سيناء وقصر العمليات العسكرية هنـاك على نشاط الطيران والمدفعية ونشاط المدرعات الذى يهدف الى ازعاج القوات المصرية هناك .

وأيما كانت النتائج فهناك اتفاق عام على أن القتال الدائر حتى الآن قد غير السنوات القادمة لميزان القوى فى الشرق الأوسط . ولقد أظهرت الحرب أن العرب قادرون على تشغيل الأسلحة الحديثة والمعقدة فى ميدان القتال .

وتشير جميع التقارير التى وصلت الى مصادر غربية ان الجيوش العربية تقاتل بعناد وحماسة . وكانت القيادة على مستوى كتائب المشاة وأسراب الدبابات على مستوى مرتفع . كما كانت القيادة العامة تتسم بالفطنة والحكمة . وقال ضابط بريطانى « ان الجيشين المصرى والسورى قد استعادا شرفهما وهذا عامل جديد سيؤثر على المستقبل فى الشرق الأوسط كله » .

ولقد كان أهم تطور تكنولوجى هو استخدام القوات العربية للصواريخ التى تطلق من الأرض للجو ضد سلاح الطيران الاسرائيلى . وقد أثبتت صواريخ سام — ٢ وسام — ٣ وصواريخ سام — ٦ المتحركة فعاليتها فى حماية المواقع المتقدمة وحشود القوات ضد الهجمات الجوية الاسرائيلية .

ومن ناحية أخرى فان الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات من طراز « ساجر » التى زود الاتحاد السوفييتى العرب بها أيضا قد زودت القوات العربية بسلاح جديد قوى لمواجهة القدرة التكتيكية لاسرائيل على استخدام المدرعات .

وقد أكدت عملية عبور القوات المصرية للقناة ان القوات المصرية قد تطورت منذ عام ١٩٦٧ . **وأثبتت تلك العملية ان المصريين قادرون على الابقاء على السر وانه فى وسعهم ، بعد ما حققوا من مفاجأة ونجاح أن يتصرفوا فى انضباط .**

وفى يوم ١٦ أكتوبر كتب يقول :

ان التفــوق الجــوى لاسرائيل الذى كانت الولايات المتحــدة والسلطات العسكرية الغربية تأخذهكأمر مسلم به عند بداية حرب الشرق الأوسط قد انخفض بصورة خطيرة ، فيما يبدو من النتائج ذات المغزى التى تتضح مع سير القتال .

ويضع الخبراء الغربيون ثلاثة عوامل باعتبارها مســئولة عن حرب جوية يسير فيها القتال فى ظروف أكثر تكافؤا مما كان متوقعا . هذه العوامل هى :

١ ــ ان مصر وسوريا تستخدمان المخزون لديهما من الصواريخ « أرض ــ جو » بمهارة ضد قوة جوية اسرائيلية تفتقر ــ فيما يبدو ــ الى احدث المعدات الألكترونية المضادة التى تم انتاجها فى الولايات المتحدة .

٢ ــ ان القوات الجوية العربية قد ظهرت على مستوى عال بصورة لم تــكن متوقعة حيث اظهر الطيارون انهم لايفتقرون الى الجسارة بينما اظهرت الأطقم الأرضية ــ فيما يبدو ــ أنها قادرة على تشغيل طائرات معقدة مثل الميج ٢١ تحت ظروف القتال .

٣ ــ كانت القيــادة الجوية المصرية قادرة على دعــوة الدول العربية الحليفــة لتقــديم تعزيزات من المقاتلات ودعوة الاتحــاد السوفييتى الى اعادة امدادها بالصواريخ أرض ــ جو .

والملاحظ انه فى الحرب الجوية الدائرة الآن فان الصواريخ أرض ــ جو والطائرات المطاردة والرادار تعمل كلها كفريق متكامل . وبناء على التجربة الأمريكية فى فيتنام الشمالية فان الوسيلة الوحيدة لالحاق الهزيمة بهذا الفريق هى أن يســتخدم المهاجمون احــدث

المعدات الألكترونية المضادة التى تم انتاجها فى المراحل الأخيرة من حرب الهند الصينية .

وتستخدم الاجراءات الاليكترونية المضادة لارباك أجهزة الرادار عن طريق التشويش عليها بواسطة ارسال موجات مستمرة ذات جهد عال على نفس الترددات التى تعمل عليهـا أجهـزة رادار الخصم ، أو عن طريق خداع تلك الأجهزة بواسطة نبضات رادارية زائفة تشبه الأهداف الحقيقية ويتم ارسالها الى تلك الأجهزة .

وتقول المصادر العليمة أن السلاح الجوى الاسرائيلى لا يمكنه أن يحقق تفوقا بدون شـحنات ضـخمة من الطائرات الأساسية والمتخصصة من الولايات المتحدة .

والطائرات الأساسية هى «فانتوم٤» وسكاى هوك «ايه ٤آى» والطائرات المتخصصة هى النماذج الجديدة من الطائرات « تى سى ـــ ١٢١ » التى أثبتت فعاليتها .

أما احـدث الطائرات الأمريكية التى تحمل معـدات اليكترونية مضادة فهى « أنترودر تى ايه ـــ ٦ بـ » وهى تنطلق من على حاملة طائرات وقد أنتجتها البحرية الأمريكية خلال حرب فيتنام .

وقد ذكرت المصادر المطلعة أن المشكلة التى تواجهها اسرائيل لاتختلف كثيرا عن المشكلة التى تمت مواجهتها فى فيتنـام . فان عددا كبيرا من صواريخ « سـام ـــ ٢ » و « سـام ـــ ٣ » قد وضعت فى قواعدها حول الأهداف العربية الرئيسية فى راس الجسر فى سيناء .

وقد أضيف الى هذه الصواريخ صواريخ « سام ـــ ٦ » التى تنطلق من قواعد متحركة . وتعمل صواريخ « سـام ـــ ٣ » و

« سام ـ ٦ » على مستوى منخفض ، أما صواريخ « سام ـ ٢ » فان مداها يبلغ حوالى ٢٥ ميلا .

وكانت الولايات المتحدة قد بدأت خلال حرب فيتنـــام فى تطوير معدات الكترونية للتشويش ولكن لم يتم تزويد المقاتلات بها الا فى عام ١٩٦٧ . وقد تضمنت هذه المعدات أجهزة للتشويش على أجهزة الانذار المبكر لرادارات صواريخ سام وعلى أجهزة الردار للرصـــد فى المراقبة الأرضية .

ولقد تعلم طيارو المقاتلات أن يحلقوا فى تشكيلات محددة ، لأنه اذا خرج أحد الطيارين من نطاق هذا التشكيل فانه يفقد الحماية التى توفرها الأجهزة الالكترونية المضـــادة ويمكن لأجهزة رادار العدو أن ترقب طائرته .

وعندما ضاعفت الولايات المتحدة من هجومها الجوى على فيتنام فى عام ١٩٧٢ فان السلاح الجوى الأمريكى استخدم الطائرات من طراز « مورنيخ ستار اى سى ـ ١٢١ » وقد مكنت هذه الطائرات الطيارين من اعتراض طائرات العدو ومن التعرف على الأهداف الأرضية للعدو . كمـــا كانت تستخدم كوسيلة للاتصـــال الجوى وكمراكز قيادة .

وفيما يبدو فان اسرائيل قد توفرت لديها المعلومات الأمريكية فيما يتعلق بالأجهزة الألكترونية المضادة ، غير أن المصادر العليمة ذكرت أن احدث هذه الأجهزة التى تم تطويرها فى العام المـــاضى لم يتم بيعها لاسرائيل .

وبناء على الوضع الراهن فانه يبدو من المرجح أن الســـلاح الجوى الاسرائيلى ســـيقاتل وهو لا يتمتع بميزة النقد التكنولوجى

ذلك أن آخر ما حصل عليه من المعدات الالكترونية المضادة يرجع تاريخه الى عام ١٩٧٠ أى قبل فترة طويلة من تطوير المعدات الأمريكية الحديثة .

ويتفق الخبراء فى شئون الطيران على أن القتال فى جبهة سيناء قد أظهر قدرة مصر على توفير دفاع جوى متماسك لقواتها البرية. وقد تم ذلك اعتمادا على صواريخ ارض — جو وامدادات وفيرة من المدفعية المضادة للطائرات رباعية المواسير ، علاوة على شبكة رادار وانذار عالية الكفاءة .

وان الافتراض بأن حصول اسرائيل على طائرات أمريكية اضافية مزودة بمعدات الكترونية مضادة تعيد الى السلاح الجوى الاسرائيلى ميزة التفوق التكنولوجى ، يقوم على الاعتقاد بأن من الممكن التشويش على الموجات والترددات الخاصة بأجهزة الرادار المصرية. وفى حين أن احدى الموجات التى تستخدمها أجهزة الرادار للأسطول السوفييتى فى البحر الأبيض المتوسط لايمكن التشويش عليها .

وكتب ك. تانر مراسل اليونايتد برس :

ان معارك الدبابات التى تدور رحاها فى الشرق الأوسط الآن قد وصلت وتجاوزت فى بعض الحالات اكبر معارك المصفحات على الاطلاق التى وقعت فى الصحراء وفى ستالينجراد خلال الحرب العالمية الثانية . ان خبراء الدفاع يبدون دهشتهم ازاء كمية المدرعات التى تم حشدها فى هذه المعارك وخاصة على الجانب المصرى .

ففى معركة العلمين الصحراوية [سنة ١٩٤٢] التى اشتبكت فيها القوات البريطانية بمعقوات رومل كان للبريطانيين نحو ١٤٠٠

دبابة ضد قوات المـانية ايطالية تتكون من ٥٥٠ دبابة .

وفى معركة ستالينجراد التى كانت من أعنف معارك الحـرب العالمية الثانية حشد السوفييت نحو ٩٠٠ دبابة ضـد نحو ٧٠٠ دبابة المانية .

وفى القتال الذى يدور فى الشرق الأوسط الآن قالت الأنبـاء أن سوريا هاجمت بنحو ١٤٠٠ دبابة ، وأن المصريين نقلوا الى ضفة قناة السويس الشرقية أكثر من ٥٠٠ دبابة تشتبك منذ نقلهـا فى معارك مع الدبابات الاسرائيلية .

وقدر مجموع ما لدى الاسرائيليين من دبابات عنـد بدء القتال بنحو ١٧٠٠ دبابة هناك فضلا عن ذلك احتياطى كبير من الدبابات لدى سوريا لابد من وضعه فى الاعتبار كما أن لدى المصريين احتياطيا يقدر بمئات الدبابات على الضفة الغربية للقنـاة . ولدى العراق اكثر من الف دبابة .

ويقول خبراء الدفاع أن استخدام هذا العدد الكبير من المدرعات على جبهات صغيرة نسبيا ومن جانب دول صغيرة نسبيا يعتبر فى الواقع حدثا لم يسبق له مثيل فى التـاريخ العسكرى بما فى ذلك القتال الذى خاضته الدول العسكرية الكبيرة وهى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وبريطانيا والمـانيا فى الحرب العالمية الثانية .

لعلنا نقف هنا وقفة قصيرة والقتال ما زال دائرا عند الجبهة الداخلية ، التى ربما لم تنل حظها من الكتابة .

لقد كان معروفا أن اسرائيل بعد أن تم لها الاستيلاء على سيناء بأكملها فى سنة ١٩٦٧ ، وبعد أن زودتها أمريكا بطائرات الفانتـوم

البعيدة المدى ، صار فى مقدورها أن تصل بسلاحها الجوى الى كل نقطة حيوية تقريبا فى القطر المصرى بأكمله .

وعندما جرى احصاء فى احدى المرات عن المرافق الحيوية التى يمكن أن توجه اسرائيل اليها ضرباتها فى حالة تجدد الحرب وصل عددها الى ما يقرب من ١٥٠٠ هدف حيوى .

والى جانب الصناعات الحديثة التى اقامها الشعب بعرقه ودموعه هناك شبكة الجسور والكبارى والسدود التى تتحكم فى مياه النيل منذ مئات السنين وآخرها السد العالى ثم شبكات ومحطات الكهرباء والمياه القديمة والحديثة والموانىء والى جانب اتساع مساحة القطر المصرى فانه يواجه مشكلة أخرى فى تمركز حياته حول مجرى نهر النيل وفروعه وبالتالى مركزية كثير من مرافقه كخطوط السكك الحديدية والطرق .

ولم يكن سرا أن اسرائيل فى أى لحظة من لحظات الخطر ليس لديها أى مانع من تدمير أى شىء يمكن أن تمتد يداها اليه .

ففى حرب ١٩٤٨ كما كشفت مذكرات اسرائيل بعد ذلك كان قد وضع خططا لضرب القاهرة ودمشق وبيروت بمجرد أن حصل الجيش الاسرائيلى على أول طائراته الحربية .

وفى سنة ١٩٥٦ عندما احتلت اسرائيل سيناء ثم انسحبت منها ، نزعت كل ما أمكنها نزعه من أدوات وآلات من سيناء حتى خطوط السكك الحديدية وأعمدة التلغراف والتليفون ومهدت مالم يكن ممكنا أخذه بما فى ذلك الطرق الصحراوية .

وبعد حرب ١٩٦٧ عندما أغرقت زوارقنا الحربية المدمرة الاسرائيلية « ايلات » ردت اسرائيل بضرب مباشر على معامل

تكرير البترول المصرية الواقعة على شاطىء السويس والمنطقة الصناعية المجاورة لها .

وخلال معارك المدافع عبر القناة كانت اذا لم تجد حيلة لاسكات مدفعيتنا عمدت الى ضرب الأحياء المزدحمة بالسكان ضربا مباشرا .

وخلال حرب الاستنزاف لم يقتصر طيرانها على شن الغارات على منطقة القنال بل حاولت ضرب العمق المصرى كما سبق ذكره مرة لاغراق مساحات شاسعة من الأراضى المزروعة والمسكونة ومرات لضرب المرافق الانتاجية : ودائما لمحاولة ضرب الروح المعنوية لدى الشعب المصرى .

وازاء عمليات المقاومة الفلسطينية ضدها كانت طوال سنوات لا تكف عن الرد بضرب مخيمات اللاجئين فى الأردن وسوريا ولبنان .

كان هذا هو أسلوبها وكان مؤشرا الى ما علينا أن نتوقعه حين يبدأ القتال الجدى ضدها .

هكذا انطلقت الأجهزة الداخلية فى مصر نحو تلك المهمة الصعبة المتشعبة التى سميت اعداد الدولة للحرب .

وكان هذا يعنى وضع كل الخطط الممكنة لمواجهة كافة الاحتمالات: من وقاية الأفراد والمنشآت الى ضمان سير عمل الأجهزة الحكومية والادارية والانتاجية تحت ظروف الحرب الى ايجاد رصيد كاف من التموين ، لا فى مجالات الطعام والشراب فقط ولكن فى مجال كل المواد اللازمة للانتاج .

واذا كان ما يتم عمله فى هــذا المجال ليس من شأنه اثارة الاهتمام الا أن ما تم عمله كثير ، وهو على تفصيلاته بالغ الأهمية .. من صفارات الانذار فى مناطق العمران الى الاستعاضة عنها بصفارات المطاحن والوابورات فى المناطق الريفية الى انشاء غرفة عمليات رئيســية تربط ما بين قيادة القوات المســلحة وقيادة الجبهة الداخلية من جهة وترتبط بكل الأجهزة والوزارات العامة فى العاصمة وانحاء القطر من ناحية أخرى ، متصلة فى ذلك بغرف عمليات فى كل مرفق لهم أو محافظة مع تحصين كل هــذه المراكز الحساسة وايجاد غرف بديلة لها فى حالة اصابة احدى الغرف الأصلية .

وعلى مستوى تقليل الخسائر كانت هناك ضرورة اعدادأجهزة الاطفاء والأفراد المدربين على كل مكان قدر الطاقة وأجهزة الانقاذ بمعداتها ابتداء من أجهزة ثقيلة لرفع الانقاض الى سيارات لنقل المصابين الى معدات طبية لعلاجهم .

ووزعت هذا كله على عدة مناطق رئيســية فى القطر : بطريقة تجعل كل مركز قادر على التحــرك بامكانياته بسرعة فى اتجــاه المنطقة التى تتعرض للضرب ..

وفى جميع مراكز التدريب التى اقيمت للدفاع المدنى فى انحاء القطر شمل التدريب ٤٠٫٠٠٠ مواطن على الدفاع المدنى والاطفاء والانقاذ ليمارسونها فى مواقعهم الانتاجية وتم اعداد فرق الخدمات العامة التى بلغ عدد المدربين فيها أكثر من سبعمائة الف مواطن ، فضلا عن تدريب ضباط وطلبة كلية الشرطة ومعهد الأمناء وقوات الأمن المركزى وقوات الأمن فى كافة المحافظات ..

ووضعت خطط مفصــلة لمواجهة حالات تعطل شبكات الرى

والصرف والمياه والمجارى والكهرباء بل لقد تم تحديد ٦٢ مدينة فى الدولة يتولى أفراد من المتطوعين من ابناءها مسئوليات الدفاع عنها واسهمت وزارة الداخلية فى مجال تزويد كل هؤلاء بالتدريب والسلاح والذخيرة .

ولم يذهب هذا الجهد عبثا بل انه اثبت أهمية وحيوية فى المناطق القريبة من ساحات القتال حيث ركز العدو جزءا من ضرباته على المرافق من هذا النوع ..

كان لابد مثلا أن يضرب طرق المواصلات القريبة من الجبهة لارباك الجهد العسكرى والمدنى معا : ضرب طريق دمياط بورسعيد الساحلى وطريق بور سعيد الاسماعيلية وطريق القاهرة الاسكندرية الزراعى ..

وضرب خطوط السكك الحديدية فى محافظات الاسماعيلية والشرقية والسويس ..

وضرب محطة المياه فى بورسعيد وماسورة المياه الرئيسية الموصلة ما بين دمياط وبور سعيد وترعة الاسماعيلية ..

وقصف محطات الكهرباء فى بور سعيد وبور توفيق وبعض أبراج الضغط العالى فى محافظة الدقهلية وخط الكهرباء الرئيسى لمدينة الاسماعيلية ..

ولم تكن الخسائر التى الحقها العدو بالجسامة التى تتناسب مع حجم غاراته المكثفة على هذه المواقع ولا بحجم اصراره أحيانا على مواصلة الضرب فترات طويلة بقصد منع عمليات الاطفاء والانقاذ والاصلاح .

وكان المفضل فى ذلك الى جانب ذلك شـبكة الدفاع الجوى وقواتنا الجوية الى جماهير الشـعب فى هـذه المناطق وأجهزة الدفاع المدنى بشتى أنواعها .

ولعل أروع صفحات البطولة تجلت فى بور سعيد وفى السويس بالذات ..

فلقد صب العدو جام غضبه على مدينة بور سعيد طوال ايام القتال محاولا تدمير كل مرافقها الحيوية وكانت جماهير الشعب وقوات الأمن وفرق الدفاع المدنى من انقاذ ومكافحة حرائق وغيرها تمارس كلها وحدها فى بسالة رائعة وتحت النيران المستمرة فى ملحمة رائعة ..

وكانت الملحمة الرائعة الأخرى بعد قرار وقف اطلاق النـار حين أسرعت القوات الاسرائيلية المدرعة فى اتجاه مدينة السويس بقصد الاستيلاء عليها باى ثمن ..

ومن الساعة الثامنة صباح يوم ٢٤ اكتوبر حين اتجهت القوات المدرعة الاسرائيلية الى السويس عن طريق شـارع الجيش ، اقتحمت قـوات الجيش والشرطة والدفاع الشـعبى والجماهير العمالية والمتطوعة فى معركة طويلة انتهت بتدمير كل الهجمـات الاسرائيلية حيث مازالت دباباتهم راقدة فى أماكنها شـاهدة على مرارة القتال والهزيمة رغم عدم متانة السلاح ، بتضحيات رجال القوات المسلحة والشرطة والجماهير وامتزاج دمائهم معا .

الاستغاثة

قال الرئيس انور السادات فى مؤتمره الصحفى مع الصحفيين الأجانب بعد الحرب ، ان اسرائيل كانت على وشك الانحدار . وانه لم يكن قد بقى لها بعد ١٢ يوما من الحرب الا القليل من الذخيرة ولكن الولايات المتحدة الأمريكية التى تدخلت لانقاذها ..

وكان هذا صحيحا وباقوال المسئولين والمراسلين الامريكيين انفسهم ..

فمع التآكل الرهيب لأهم اسلحة اسرائيل — الطيران والمدرعات — ومع الخسائر البشرية الضخمة فى الأرواح . دارت اتصالات محمومة بين تل ابيب وواشنطن كانت فى الواقع كما قال سياسى اجنبى مطلع : اشبه بالاستغاثة التى ترسلها سفينة مهددة بالغرق ..

ولعل الأمريكيين سمعوا من اسرائيل لأول مرة لهجة غير لهجة الغرور المألوف وغير التاكيدات المطلقة بانهم قادرون دائما على سحق العرب وبسرعة .

ومعروف أن اسرائيل لم تدخل الحرب بغير سلاح . وان اعلامها الضخم عن تزويد الاتحاد السوفييتى لنا بالسلاح الحديث لا يعنى انها محرومة من السلاح الحديث . وسياسة أمريكا « المعلنة » هى توازن القوى فى المنطقة وترجمتها « المعلنة » لتوازن القوى هو **ان تكون لدى اسرائيل قوة عسكرية تعادل كل**

ما لدى الدول العربية مجتمعة . والسياسة الحقيقية المعلنة ، هى أن تكون اسرائيل متفوقة فى السلاح دائمـــا على كل الدول العربية مجتمعة .ومنطقهم الرسمى ان قدرة اسرائيل على تهديد العرب وهزيمتهم هى وحدها التى تمنع العرب من القضاء على اسرائيل .

فالمفاجاة اذن فى الحرب لم تكن تشـــمل الســـلاح . وما لدى اسرائيل من سلاح كان كثيرا وغزيرا وحديثا يعـــادل ان لم يكن بالتاكيد أكثر مما لدى العرب .

وقد ترددت واشنطن فترة فى تزويد اسرائيل بالسلاح اذ كانت تظن أن اسرائيل تبالغ فى طلباتها وانها بما لديها قادرة على انهاء الحرب لمصلحتها ..

ولكن مجريات القتال العنيف جعلها تغير رايها بالتدريج وتاخذ استغاثات اسرائيل ماخذ الجد ..

كتب جون فينى محرر جريدة النيويورك تايمز فى تلك الفـــترة يقول :

« يعترف المسئولون الأمريكيون فى واشنطن انه بالرغم منعديد من الدلالات المثيرة للشكوك الا انهم لم يتوقعوا ما حدث » .

فقبل عام ونصف مضى حصلت اسرائيل على صور مفصلة لطرق جديدة تؤدى الىنقط التقاء هامة علىالضفة الغربية لقناة السويس. وكشفت هذه الصور أيضا عن معدات سوفيتية لبنـــاء الكبارى مخزونة عند كل نقطة من النقاط التى يمكن استخدامها للعبور . وبالقرب من الخنادق شـــيدت معســـكرات كبيرة مزودة بأجهزة الرادار والدبابات ومخازن الذخيرة ولكن عدد الأفراد فيهـــا كانوا قليلين .

ولكن عندما عرضت الصور على الخبراء الأمريكيين فى حينها ، خرجت التقديرات الأمريكية والاسرائيلية معا بنتيجة واحدة هى : أن عبور القناة على نطاق واسع يشكل تحديا يتجاوز قدرة القوات المصرية المساحة . وبناء على ذلك فقد فوجئت اسرائيل التى بنت استراتيجيتها العسكرية على أساس الاحتفاظ بزمام المبادرة .

ونفس الشيء حدث بالنسبة للجبهة السورية من سوء تقدير عواقب بناء خط متقدم من صواريخ أرض — جو قرب خطوط وقف اطلاق النار بين سوريا واسرائيل .

ان هذا يضيف بعدا آخر لمعنى « المفاجأة » يوم ٦ اكتوبر : كان الظن لدى أمريكا واسرائيل أنه حتى لو حدث هجوم فهو اكبر من طاقة مصر وسوريا وبالتالى لن يكون شاملا وانه سوف يمكن سحقه بسهولة .

ولكن مع تساقط الطيران الاسرائيلى امام شبكات الصواريخ ، ومع الدمار الذى لحق بالمدرعات الاسرائيلية واطقمها من الأفراد، وما ابدته القوات المصرية والسورية حيث اتيحت لها الفرصة من مهارة وروح قتالية عالية ، جعلت أمريكا تغير رأيها بسرعة واتخذ على أعلى المستويات قرار انقاذ اسرائيل ..

ففى يوم ١١ اكتوبر اذاعت وكالات الأنباء العالمية أن أمريكا « بدأت فى ارسال شحنات من السلاح على وجه السرعة الى اسرائيل . وأن الأمر بدأ بطائرتين اسرائيليتين من طراز بوينج تم شحنهما بالصواريخ وبقنابل جديدة من قاعدة أمريكية فى فرجينيا ، وكان الجنود الأمريكيون يخفون العلامات الاسرائيلية على الطائرتين حتى يتم شحنهما ولما سئل قائد القاعدة عن هذه الشحنات رفض التصريح بأى شيء ..

ثم لم تمض أيام حتى كانت اسرائيل قد تلقت اسطولا جديدا بأكمله : ٤٨ طائرة فانتوم جديدة نقلت من أمريكا رأسا الى مطار اللد فى اسرائيل واعترف الاسرى الاسرائيليون فى مصر بأن طيارين أمريكيين كانوا يطيرون بهذه الطائرات رأسا الى مطارات اسرائيل ، حيث يجرى تغيير رسم نجمة داوود فوق نجمة ســلاح الطيران الأمريكى بسرعة ثم تنطلق الى القتال ...

وحملت طائرات شـحن أخـرى الى اسرائيل صـــواريخ « سايد وايندر » جو — جو وصواريخ « وول — آى » الموجهة بالتليفزيون والتى تستخدم ضد الأهداف الأرضية والقنابل المتفجرة المتعددة الاتجاهات التى تستخدم ضد المدرعات وصواريخ شرايك المصنوعة خصيصا لضرب شبكات الدفاع الجوى الصاروخية .

وقالت جريدة الواشنطن بوست أنه بدأ شحن ما يتراوح بين ٨٠ و ٩٠ طائرة سكايهوك الى اسرائيل بطريق البحر ، بعد أن خسرت اسرائيل هذا الرقم تقريبا من نفس النوع من ســلاح طيرانها خلال الأسبوع الأول للقتال .

وقدمت الحكومة فورا الى الكونجرس الأمريكى مشروع قانون لاعتماد مبلغ ٢٠٠٠ مليون دولار حتى يمــكن اعطاء اسرائيــل الأسلحة المطلوبة لها فورا من مخازن الجيش الأمريكى وبلا مقابل ... الا أن هذا الرقم لا يشمل ما قدم لاسرائيل مثلا من شحنات أسلحة نقلتها السفن والطائرات الاسرائيلية ولا يشمل طائرات الفانتوم التى قادها الطيارون الأمريكيون أنفســهم رأســا الى اسرائيل ...

واذاعت وكالة رويتر من لندن أن مطارات أوروبية قد تحولت الى معسكرات يتدفق عليها مئات الأمريكيين والأوربيين اليهود من

الطيارين والفنيين لنقلهم فورا الى اسرائيـــل وان أربع طائرات جامبو مرت بمطار لندن فى يوم واحد فى طريقها الى اسرائيل .

وفى يوم ١٥ أكتوبر كتب جورج شيرمان المحرر العسكرى لجريدة واشنطن ستار نيوز يقول : ان تقديرات المخابرات الأمريكية تشير الى أن اسرائيل قد فقدت أكثر من ثلث قوتها الجوية الضاربة وذلك حتى صباح ١٣ أكتوبر وان خســـائرها من الدبابات تتراوح بين ٥٠٠ و ٦٥٠ دبابة أى ثلث قواتها المدرعة وأنه قد تقرر تعويض اسرائيل عما فقدته .

وفى نفس اليوم كتب جون فينى مراسل النيويوركتايمز الأمريكية فى واشنطن يقول : أن القرار الأمريكى الخاص بارسال الاسلحة الثقيلة برية وجوية والأجهزة المتقدمة الى اسرائيل قد صدر بناء على ثلاث اعتبارات : الأول طول مدة القتال بشكل غير متوقع والثانى مدى الخسائر التى كانت بالجيش الاسرائيلى فى الحرب والثالث حجم شحنات الأسلحة السوفيتية الى ســـوريا ومصر « ويحاط شحن الطائرات والأسلحة الثقيلة الأمريكية هنا فى أمريكا بسرية بالغة وغير عادية من جانب حكومة واشنطن » .

ثم استطرد قائلا « .. ويبدو أن الحكومة الأمريكية ترى أنه لا بد على الأقل من تعويض الطائرات الاسرائيلية التى فقدت .. اذا كان يراد أن يحافظ الســـلاح الجوى الاسرائيلى على قوته الضاربة ضد القوات المصرية المسلحة فى سيناء » .

على أن هذا التكتم لم يلبث أن انفضح وعرف العالم المجهود غير العادى والذى لم يسبق له مثيل الذى بذلته أمريكا عسكريا خلال هذه الأيام الحاسمة لانقاذ اسرائيل .. .

ففى ٢٥ أكتوبر بعد وقف القتال نشر الصحفى الأمريكى المطلع

رسالة من واشنطن (خاصة للنيويورك تايمز والأهرام) روى فيها قصة الجسر الجوى والبحرى كالتالى :

« اعترفت المصادر الرسمية فى الولايات المتحدة بأنها اضطرت الى اقامة نظام خاص للتعجيل بارسال الامدادات الى اسرائيل لأن بعض حلفائها فى منظمة حلف الأطلنطى رفضوا التعاون معها فى هذا الشأن خوفاً من المقاطعة العربية البترولية لهذه الدول .

« وذكر المسئولون العسكريون أن حاملات الطائرات وطائرات الوقود التابعة للسلاح الجوى الأمريكى شاركت مباشرة فى امداد اسرائيل بالأسلحة من القواعد الموجودة فى الولايات المتحدة ذاتها فقد اضطر الأسطول الأمريكى والسلاح الجوى الأمريكى الى اقامة نظام للأمداد المستمر من الولايات المتحدة الى اسرائيل .

« وذكر المطلعون العسكريون نموذجا على ذلك كالتالى : اقلعت طائرات السكاى هوك يقودها رجال البحرية الأمريكية من الساحل الشرقى وهبطت فى جزر الازور للتزود بالوقود ثم طارت الى حاملة الطائرات جون كيندى المرابطة قرب جبل طارق حيث جرى تزويدها بالوقود مرة ثانية بواسـطة طائرات تزويد الوقود . ثم طارت الطائرات المرحلة التالية الى حاملة الطائرات فرنكلين روزفلت فى قلب البحر الأبيض المتوسط حيث قضت الليلة هناك وفى آخر مرحلة تزودت الطائرات بالوقود من الجو فى شرق البحر الابيض فوق حاملة طائرات ثالثة هى اندبندانس قبل أن تصل مباشرة بعد ذلك الى اسرائيل .

« وقد شملت هذه العملية ما بين ٢٠ و ٣٠ طائرة سكايهوك وصلت الى اسرائيل جوا بينما وصلتها حوالى ٥٠ طائرة أخرى على متن سفن النقل التابعة للابسطول الامريكى .

« وقد ظلت طائرات السكايهوك والفانتوم مختفية بعلاماتها الأمريكية الى أن هبطت فى اسرائيل ثم استبدلت علاماتها بعلامات اسرائيلية وعاد الطيارون الأمريكيون على متن طائرات مدنية .

« ولم تعرف بعد طريقة نقل طائرات الفانتوم الى اسرائيل وكيف تم تزويدها بالوقود ولكن المؤكد أن عددا كبيرا خرج فى أول الأمر من القواعد الأمريكية فى أوروبا حتى اعترضت الدول الأوروبية على ذلك فلجأت الى التزويد بالوقود من جو الازور ، قادته أمريكا وهى أرض برتغالية » .

وفى يوم ٢٤ أكتوبر نقلت وكالة اليونايتدبريس تصريحا يعلن فيه « المسئولون الأمريكيون أن الولايات المتحدة سوف تستمر فى تزويد اسرائيل بالأسلحة حتى تعلن الحكومة الاسرائيلية أنها اكتفت تماما . وأضاف المسئولون « اننا سنواصل تزويد اسرائيل بالمعونة العسكرية حتى يشعر الاسرائيليون بأنهم مسلحون بدرجة كافية فالاسرائيليون وليس الأمريكيين هم الذين سيقررون القدر الذى يعتبر تسليحا كافيا . وقد صرح جيرى فرايد هايم المتحدث باسم وزارة الدفاع الأمريكية بأن الجسر الجوى المتجه نحو اسرائيل لا يزال مستمرا بمعدل عشرين رحلة يوميا » .

واستطردت الوكالة تقول « وفى تل ابيب أعلن الجنرال بنيامين بيليد قائد سلاح الطيران الاسرائيلى فى حديث اذاعى أن قوة سلاح الطيران الاسرائيلى تكاد تكون قد استكملت وانها عادت الى المستوى الذى كانت عليه يوم ٦ أكتوبر عندما بدأ القتال وصرح مصدر وثيق الاطلاع بأن الاسلحة والمعدات الأمريكية المرسلة الى اسرائيل مستمرة بنفس المعدل وقد هبطت طائرات النقل التى تنقل هذه الاسلحة والمعدات خلال ليلة أمس فى المطارات المحددة لها وطبقا للمواعيد المحددة » .

وكان هذا بعد قرار وقف اطلاق النار بيومين .

ولعل قول المسئول الأمريكي « أن إسرائيل وليست أمريكا هى التى ستقرر القدر الذى تعتبره تسليحا كافيا » ... لعله قول لم يسبق له مثيل فى الذهاب الى أقصى حد فى تدعيم اسرائيل .

وقد القت جريدة الصنداى تلجراف الانجليزية ضوءا آخر على عملية الانقاذ هذه فى سلسلة تحقيقاتها عن حرب أكتوبر فقالت :

« لم يكن الموقف بالنسبة للعرب فى مثل خطورته بالنسبة لاسرائيل من حيث الامدادات العسكرية ويقول المصريون أن الاسرائيليين كان أمامهم يومان فقط ثم تنفذ ذخيرتهم قبل أن يبدأ الجسر الجوى الامريكى بطائرات « جالاكسى » الجبارة .

« لقد جهزت مائة طائرة من تلك الطائرات الضخمة التى تحمل كل منها مائة طن من الذخيرة والدبابات والأهم من ذلك الأسلحة الالكترونية الحديثة التى تتحكم الآن فى ساحات القتال .

« وقد نقلت طائرات الفانتوم والسكاى هوك مباشرة الى القواعد الاسرائيلية حيث كانت نجمة داوود توضع بسرعة على علامة سلاح الطيران الامريكى المرسومة فوق الطائرات وكان من رأى المصريين أن هذا معناه اشتراك أمريكا فعليا فى القتال .

« وقد يكون الأمر كذلك فعلا . ولكن من الحقائق التى ما تزال غير معروفة ، أن الجسر الجوى الامريكى قد تقرر بعد أقصى درجة من التردد . ولم يبدأ الجسر الجوى الامريكى بالفعل الا عندما اتصلت جولدا مايير مباشرة بالرئيس الامريكى نيكسون بالتليفون

وفى يوم ــ السبت ١٣ اكتوبر ــ أى بعد اسبوع من نشوب الحرب اعطى كيسنجر رأيه بالموافقة .

« وفى اليوم التالى كانت طائرات «جالاكسى» تطير كل ١٥ دقيقة متجهة الى مطار اللد عن طريق جزر الازورس وكانت الاسلحة التى تحملها تنقل مباشرة بطائرات نقل من طراز هيركول الى القواعد الامامية فى سيناء حيث تتجه الدبابات مباشرة الى خط القتال ..

« وكانت هناك حاجة فى الصـــحراء الى الكثير من الاسلحة الأمريكية الجديدة وخاصة الصاروخ ت. و. ف. المضاد للدبابات.
وقالت مجلة « افييشن ويك » الامريكية فى ١١/٢٦ أن شركة الطيران الاسرائيلية « العال » قدمت للجيش ٧٥٪ من عمالها كما قدمت له معظم امكانياتها وشوهدت فى مطار لندن طائرة بوينج ٧٤٧ من طائراتها وقد أزيل عنها اسم الشركة واستبدل بشعار ســـلاح الجو الاسرائيلى . وكانت تنقل جنودا وطيارين بملابسهم العسكرية وكانت كل من طائرتى البوينج ٧٤٧ الموجودتين لدى شركة العال تنقل الى اسرائيل فى كل رحلة ما يوازى ٧٥ طنا . كما شوهدت طائراتها الاخرى فى عدة مطارات أمريكية وكانت اطقم التفريغ على الارض مزيجا من المدنيين العسكريين والمتطوعين الذين جاءوا من اســـكندنافيا والولايات المتحدة وكندا . وكانت طائرات ستارليفتر س ــ ١٤١ تغادر اسرائيل بعد ٩٠ دقيقة من وصولها . وتقول المصادر الاسرائيلية أن هذا لم يكن ممكنا لو لم يرسل سلاح الطيران الامريكى جهازى تفريغ آليين صمما خصيصا لتفريغ هذا الطراز من الطائرات وكان سلاح الجو الاسرائيلى قد استأجر طائرات بوينج أخرى بالاضافة الى أسطول شركة العال الذى يضم ١٢ طائرة بوينج .

وكتب مائير كوهين (١) فى ملحق جريدة « هاآرتس » الاسرائيلية فى ٧٣/١٢/٢١ عن الجسر الجوى الامريكى فقال : ان الاسم الذى اطلق على العملية كان «نيكل جراس» وقد استخدمت فيه طائرات النقل الأمريكية الضخمة . اذ قامت طائرات ستاليفترس — ١٤١ بنحو ٤٢٠ رحلة وطائرات جالاكسى بنحو ٢٥٠ رحلة . ووصل عدد الرحلات اليومية فى أواخر ايام القتال الى ٢٨ رحلة فى اليوم وكانت احيانا توجد ١١ طائرة مرة واحدة فى مطار اللد . وأرسلت أمريكا بعثة من ٣٠ خبيرا للاشراف على عمليات التفريغ والصيانة الارضية والتزويد بالوقود .

وفى رسالة من الجبهة للمراســل الامريكى رايموند اندرسون كتبها عندما زار الجبهة فى سيناء بعد الحرب مع وفد من الزوار الامريكيين يروى قصة أخرى فيقول « ... وعلى هضبة قريبة ، قاد ضابط مصرى زائرا أمريكى الجنسية من بين المجموعة ليريه حفرة كبيرة أحدثتها إحدى القنابل ثم أشار بيده الى ثلاث قنابل لم تنفجر كل قنبلة منها فى حجم كرة البيسبول وقال له « هذا النوع من القنابل الوحشية ممنوع بحكم القانون الدولى . هذه بعض عينات شحناتكم من الاسلحة الى اسرائيل .. وســوف تجد أنها تحمل تاريخ انتاجها وهو ابريل ١٩٧٣ » .

وفى دراسة لمؤسسة الدراســات الفلسطينية عن المساعدات الامريكية لاسرائيل منذ ساعة بدء القتال جاء ما يلى :

« منذ بداية القتال فى ٧٣/١٠/٦ باشرت الولايات المتحدة بتزويد اسرائيل بكميات ضخمة من ذخيرة المدافع والدبابات والطائرات .

---

(١) ترجمة نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية .

وقالت جريدة جيروزاليم بوست الاسرائيلية أن طائرات شركة العال كانت تنقل هذه الذخائر من قاعدة نورفولك البحرية فى ولاية فرجينيا .

« وفى ٧٣/١٠/١٣ بدأت امريكا فى تعويض اسرائيل عن خسائرها فى الحرب من طائرات ودبابات وللاسراع فى توصيل هذه التعويضات الى أرض المعركة تقرر سحبها من اعتدة الجيوش الامريكية المرابطة فى اوروبا وانحاء أخرى من العالم (جيروزاليم بوست ٧٣/١٠/١٦) ..

وقالت الصحيفة الاسرائيلية ذاتها ان الجسر الجوى كان من الضخامة بحيث اضطرت البحرية الأمريكية الى الاستعانة بطائرات النقل المدنية التى استؤجرت من شركات الطيران الأمريكية . واضافت الجريدة الاسرائيلية أن ضابطا من سلاح الجو البرتغالى يخدم فى القاعدة البرتغالية الامريكية المشتركة فى جزر الازور ذكر أن اعدادا كبيرة من طائرات النقل الامريكية هبطت فى تلك القاعدة وهى فى طريقها الى اسرائيل وأنها كانت محملة « بكل ما تحتاجه الحرب » . وقال انه شاهد فى الطائرات : دبابات وقنابل للطائرات وصواريخ موجهة وغيرها . وقالت مصادر برتغالية أخرى أن عشر طائرات بوينج واربع طائرات نقل ضخمة من طراز جالاكسى واعدادا كبيرة من طائرات نقل من طراز هيركوليس وطائرات فانتوم مقاتلة ، مرت على القاعدة فى نفس اليوم الأول من الجسر الجوى وكانت الطائرات بمعدل تصل واحدة كل خمسة عشر دقيقة .

« وفى نفس الوقت بدأت أمريكا بشحن الاسلحة الى اسرائيل بحرا . وقد شوهدت السفينة الاسرائيلية « بن دان » وهى فى قاعدة نورفولك البحرية ، محملة بطائرات سكايهوك وذخائر ودبابات (الديلى تلجراف ٧٣/١٠/١٧) وذكرت مجلة « تايم »

الامريكية (٢٩/١٠/٧٣) ان الجسر الجوى الامريكى استطاع نقل ٨٠٠ طن يوميا ، غير الطائرات المقاتلة والقاذفة التى كانت تصل مباشرة . هذا الى جانب ما كانت تنقله طائرات العـال . وقد اوفدت أمريكا خمسين فنيا من سلاحها الجوى الى مطارات اسرائيل للمساعدات فى عمليات التفريغ والتركيب .

« ومن الأسلحة التى سلمت الى اسرائيل لأول مرة صواريخ « مافيريك » جو ــ ارض ضد الدبابات وصواريخ « ستاندرد آرم » جو ــ أرض ضد محطات الرادار ، قواذف « لو » مضادة للدروع ، قنابل موجهة بأشعة ليزر وقنابل « روكاى » .

« وفى الوقت نفسـه طلب نيكسـون من الكونجرس الامريكى اعتماد مبلغ ٢٠٠٠ مليون دولار لمساعدة اسرائيل بصرف النظر عن الاسلحة التى صرفت بالفعل .

« وبالاضـافة الى ذلك صرح بنحاس سـابير وزير المـالية الاسرائيلى لدى وصوله عائدا الى مطار اللد بأن اليهود فى أمريكا وعدوا لجمع مبلغ ٧٥٠ مليون دولار عن طريق الجباية اليهودية الموحدة ومبلغ ٤٥٠ مليون دولار عن طريق السندات والقروض وطلب من اليهود فى سائر أنحاء العـالم التبرع بمبلغ ٥٠٠ مليون دولار أخرى ...

« وقالت المصادر الغربية على المستويات العليا أن اسرائيل كانت على حافة الهزيمة قبل الجسر الجوى الأمريكى للنقص الخطير فى المعدات والذخائر (التايمز الانجليزية ٣١/١٠/١٩٧٣) ..

●

فى الوقت الذى بدا فيه السلاح الامريكى يتدفق الى اسرائيل

ويصل مباشرة تقريبا الى خطوط القتال فى سيناء وبعد أن ضمنت اسرائيل تعهد أمريكا باستمرار تدفق العتاد على هذا النحو الذى لم يسبق له مثيل أعطت القيادة الاسرائيلية الضوء الاخضر لعملية ((الغزال)) ، عملية عبور قناة السويس الى الضفة الغربية ... وكما سبق ذكره لم تكن هذه الخطة جديدة بل انها كانت موضوعة منذ زمن ...

وفى الأيام الأولى للقتال صرح موشى ديان أن اسرائيل ستقاتل هذه المرة غرب القناة .

وكان شارون وغيره من القادة يطالبون بها كما سبق ذكره منذ اليوم الاول ...

ولكن القيادة الاسرائيلية رفضت باستمرار ازاء العبور المصرى الشامل ومعارك الدبابات الضخمة وخسائر اسرائيل الجوية والبرية الفادحة وكما قال موشى ديان وقتها لشارون : اذا حاولت وخسرت فلن تكون هناك قوات لنا فى سيناء وستتعرض اسرائيل ذاتها للخطر ..

كان لا بد أن يدخل الموضوع عنصر جديد ...

وكان هذا العنصر الجديد فى الواقع عنصران :

الأول : هو الانقاذ الأمريكى وضمان استمراره .

والثانى : هو اقتراب موعد لا مفر فيه من تدخل العالم لوقف اطلاق النار .

واسرائيل مشهورة ببراعتها فى تنسيق العمل السياسى والعسكرى معا ...

وقد كانت أهداف اسرائيل من فتح ثغرة بين الجيشين الثانى والثالث ، والعبور الى غرب القنـــاة عـــدة أســـباب سياسية وعسكرية :

أولا ـــ نقل القتال الى غرب القناة بحركة مفاجئة ، تستهدف وضع القيادة المصرية فى موقف مربك بأن تضطر الى الاختيار بين الوقوع فى الحصار شرق القناة أو اعادة قواتها الى غرب القناة وهذا هو الحد الأقصى الذى كانت اسرائيل تطمح اليه .

ثانيا ـــ تدمير شبكات الصواريخ الموجودة على الأرض بعد أن عجز الطيران عن تدميرها . حتى يسترد طيرانها حرية العمـــل كاملة فوق جو ساحة القتال ...

ثالثا ـــ أن تسبق وقف اطلاق النار ولو بنوع من النصر النفسى المحدود الذى يجعلها فيما سوف يتلو وقف اطلاق النار فى موقف أقوى مما أدى اليه قتال أكثر من اسبوعين ...

ويكشف لنا عن هذه الأهداف بالذات نوع الاسلحة التى ارسلتها اليها الولايات المتحدة فضلا عن كمياتها .

وقد فشلت اسرائيل فى تحقيق الهدفين الأولين . فلم ترتبك القيادة . ولم تجد نفسها مضطرة للانسحاب الى غرب القناة ولم يتم تدمير الجسور المقامة ولا تقليل حجم القوات الموجودة شرق القناة . ولم تدب فوضى كانت تحلم بها اشبه بانهيار ١٩٦٧ . كذلك فشلت اسرائيل فى تحقيق الهدف الثانى اذ توقف القتال وشبكات الصواريخ ما زالت تحدث أثرها المدمر فى الطيران الاسرائيلى .

ولكنها حققت هدفها الثالث فى أن يقف اطلاق النار ولها قوة منتشرة فى غرب قناة السويس عدلت بها وقع الهزيمة الشاملة عليهـــا ..

ومع ذلك فقد احتاجت اسرائيل لفتح هذه الثغرة ليس الى قوات محدودة كانت لديها كما كان شارون يتصور ، ولكنها احتاجت الى ان تلقى بكل ثقلها البرى والجوى فى قتال شرس لم يسبق له مثيل، واحتاجت الى أن تفقد فى هذه الثغرة أضخم خسائرها خلال أيام القتال كلها ..

.. واحتاجت فوق ذلك الى : ان تتلاعب بوقف اطلاق النار ذاته ..

فحتى الساعة التى حددت لوقف اطلاق النار لم يكن لها على الضفة الغربية سوى جيب محصور غير صالح للبقاء ولكنها لم تلبث حين وقت ساعة وقف اطلاق النار أن ألقت بكل ثقلها من جديد وكانت خطتها الانتشار ولو بقوات بسيطة على أوسع دائرة ممكنة حتى تجىء قوات الطوارىء الدولية لتجدها على هذا الانتشار ..

هدف رابع لم تحققه اسرائيل من هجومها . وهو الاستيلاء على احدى مدن القناة الرئيسية بسبب الدور الاعلامى لهذا الحدث . فركزت على مدينة السويس بعد قرار وقف اطلاق النار تركيزا رهيبا . وتعاونها فى التنسيق السياسى العسكرى أعلنت رسميا سقوط مدينة السويس فى يدها عدة مرات على أمل أن يتحقق ذلك بالفعل حين تصل قوات الامم المتحدة الى الموقف . ولكن هجماتها الجوية والبرية بالمدرعات فكرت الهجوم تلو الهجوم عند مداخل المدينة الباسلة التى التحم داخلها الجيش بالدفاع الشعبى بالمواطنين العاديين فى ملحمة استبسال نادرة . وبلغ من عنف الهجمات وشدة حملة الاعلام وتأكيد البلاغات الاسرائيلية ان العالم فعلا لم يصدق أن السويس لم تسقط الا عند ما وصلت قوات الامم المتحدة الى المدينة واذاعت ذلك بنفسها ..

وخرق اسرائيل لوقف اطلاق النار بعد ساعات من قبوله ، وانتهاز الفرصة لاختلاس المكاسب ليس أمرا جديدا على اسرائيل . بل انها أحرزت معظم توسعاتها منذ سنة ١٩٤٨ بهذا الأسلوب .

ويكفى أن نقلب بعض ما هو منشور فى أوراق دافيد بن جوريون حول حكايات وقف اطلاق النار واستغلالها :

● سنة ١٩٤٨ صدر من الامم المتحدة قرار الهدنة الاولى ، وتوقف القتال بين قوات الدول العربية واسرائيل . وكتب بن جوريون « باعلان الهدنة يوم ١١ يونيو ، انتقل زمام المبادرة الينا ! » كيف !

كانت قوات اسرائيل حتى اعلان الهدنة تحارب متقهقرة . وحين أعلنت الهدنة للبدء فى تنفيذ قرار التقسيم الصادر من الأمم المتحدة ، قبلت اسرائيل الهدنة لسبب آخر تماما ، هو : اعادة ترتيب قواتها، والاستعداد للبدء هذه المرة بالهجوم ، لا بالدفاع .

« فخلال الهدنة الأولى — يقول بار زوهار المؤرخ الشخصى لبن جوريون وعلى لسانه — ضللت اسرائيل مراقبى الامم المتحدة. وجاءت السفن سرا حاملة آلاف الأطنان من السلاح والعتاد . وتسلل آلاف المهاجرين عبر شتى الطرق إلى اسرائيل . وتكونت فرق مسلحة جديدة وتأسست أول أسراب لطيران الاسرائيلى . وحين كان ممثلو الامم المتحدة يسألونه عن رأيه فى خطوط التقسيم، كان يقول فى غموض : حيث تقف قوات اسرائيل » مضمرا هجوما غادرا ينهى به الهدنة .

هكذا ، بمجرد انتهاء الهدنة الأولى ، يوم ٩ يوليو ، شنت اسرائيل هجوما شاملا على كل الجبهات ، لتحتل كل الأراضى التى تريد لها أن تكون جزءا من دولتها التى كانت فى الشهر الثانى من عمرها.

وفى خلال عشرة أيام ، أعلنت بعدها الهدنة الثانية ، كانت قوات اسرائيل قد دفعت القوات المصرية جنوبا ، واستولت على مثلث الجليل الخصب كله ، واحتلت منطقة الرملة واللد والمطار الدولى فيها ، كما استولت على مدينة المسيح ، الناصرة .

● وكانت الأمم المتحدة قد فرضت الهدنة الثانية فرضا ، على أن تستمر ويستمر وقف اطلاق النار حتى تسوى المشكلة نهائيا . ولكن اسرائيل قبلت الهدنة الثانية وهى تضمر شيئا آخر تماما .

فقد عطلت مرة أخرى عامدة محاولات الامم المتحدة لتطبيق قرار التقسيم حتى بعد التعديلات التى أجرتها اسرائيل بالقوة . وفى هذه المرة لم يقف الأمر عند حد « تضليل » مراقبى الامم المتحدة ، بل وصل الى اغتيال ممثل الأمم المتحدة الكونت برنادوت ، فى قلب مدينة القدس يوم ١٦ سبتمبر ١٩٤٨ على يد اشخاص مازالوا أحياء أحرارا مكرمين فى اسرائيل ! ذلك أن اسرائيل كانت تستعد لخرق الهدنة الثانية فى الوقت المناسب .

كانت تريد الاستيلاء على القدس ، والاستيلاء على النقب ، حتى تتم لها أول خريطة تريدها لنفسها ..

وفى أوراق بن جوريون مرة أخرى : نرى كيف أن الخطة أعدت فى سرية تامة ، وقدر العسكريون لتنفيذها عشرة أيام . وكان هدفها هذه المرة الجيش المصرى وحده .

وعرض بن جوريون الخطة فى سرية تامة على قادة حزبه ثم على مجلس الوزراء . ثم أخطروا بها موسى شاريت وزير خارجيتهم الذى كان فى الامم المتحدة وقتها لكى يستعد للعاصفة .. وبقى اختلاق السبب ..

وقرروا أن يكون المفتعل هو ارسال التموين الى مستعمرة

اسرائيلية بعيدة فى النقب . قرروا الا يرسلوا مجرد قافلة تموين كما كانت تقضى اتفاقية الهدنة بل يرسلوها مصحوبة بطابور مسلح، فيصبح اصطدامه بالجيش المصرى حتميا ، ثم يبدأ الهجوم بحجة أن الجيش المصرى خرق شروط الهدنة ومنع وصول الطعام الى المستعمرة الاسرائيلية البعيدة .

وبالفعل ، تحركت القافلة يوم ١٥ أكتوبر ١٩٤٨ : وكان لا بد أن تشتبك بقوة الحراسة المصرية الواقفة على خط الهدنة . وفورا قفز الجيش الاسرائيلي كله للهجوم على الجيش المصرى من كل الاتجاهات ..

وأسرعت الامم المتحـــدة للتدخل من جديد ، ولمطالبة أسرائيل بالانسحاب ولكن اختيار موعد خرق الهدنة الثانية كان محسوبا بدقة : يقول دافيد بن جوريون بالنص « تقرر أن يكون الهجوم بعد النصف الثانى من سبتمبر حين تكون رئاسة مجلس الامن لامريكا، فتستطيع أن تمنع صدور أى قرار عنيف ضد اسرائيل ، وحين تكون انتخابات الرئاسة الامريكية قريبة فلا يستطيع الرئيس ترومان أن يخاطر باغضاب اليهود الأمريكيين » .

قال بن جوريون أن الشيء الذى كان يمكن أن تخشاه دولة جديدة هو توقيع عقوبات عليها ، ولكن هارى ترومان ، الذى اعيد انتخابه رئيسا لامريكا ، كان قد اتصـــل فى مـــكالمة تليفونية طويلة بمدير المخابرات الأمريكية فى باريس يطلب منه أن يطمئن اسرائيل الى أن أمريكا ستمنع أى قرار لتوقيع العقوبات عليها . ويروى بن جوريون أنه عندما علم سفير أمريكا فى باريس وقتها — الجنرال جورج مارشال : بكل رصيده الضخم — بهذا الأمر انفجر غاضبا وهدد بالاستقالة ولكن دون جدوى .

وبعد أن حققت الحملة أغراضها ، توقفت القوات الاسرائيلية .

ثم تم توقيع هدنة اخيرة بينها وبين الدول العربية فى فبراير ومارس وابريل . **ولكن بن جوريون شن خلال هذه الهدنات هجوما اخيرا يوم ١٠ مارس فى النقب وصلت به اسرائيل الى مياه خليج العقبة حيث يقوم اليوم ميناء ايلات .**

● **.. واقرب كثيرا من هذا أن نتذكر حرب ١٩٦٧ ، على الجبهة السورية بالذات ..**

لقد صدر قرار وقف اطلاق النار وقبلته كل الأطراف ، قبل أن تحول اسرائيل ثقل هجومها من سيناء الى الجولان . وببساطة أعلنت اسرائيل سقوط معظم الجولان كذبا قبل اعلان وقف اطلاق النار : أما القتال الذى دار بعد ذلك فى الجولان للاستيلاء فعلا على مرتفعاته ، فقد دار بعد أن وقف اطلاق النار ، وبينما وفدها ووفد الولايات المتحدة يمارس عمليات الخداع والتضليل فى الامم المتحدة ومجلس الامن حتى تم لاسرائيل احتلال الجولان متخطية مسافات كثيرة للخطوط التى صدر عندها قرار وقف اطلاق النار .

لا شىء جديد اذن فى الكتاب الاسرائيلى للحرب والخديعة والتلاعب بالقرارات الدولية ..

دروس الحرب

تحاول اسرائيل أن تجعل الانتصـــار العسكرى الذى أحرزته قواتنا بكفاءاتها ودمائها فى ساحة القتال صدفة أو غلطة من غلطات التاريخ . وهى حتى عندما أعلنت عن تأليف لجنة عليا للتحقيق كانت الى جانب محاولتها مواجهة موجة الســـخط لدى الراى العـــام الاسرائيلى الداخلى أن تجعلها لجنة تحقيق تبحث فى « الأخطاء » التى أدت الى هذه النتيجة ...

وكل حرب تقع فيها أخطاء بل واخطاء لدى الطرف المنتصر والطرف الخاسر على الســـواء ولكن ليس كل الأخطاء هى « شخصية » تواجه بالتحقيق .

وهذا يهم اسرائيل الى حد كبير لانها ستظل تحاول اعادة بناء اسطورة الجيش الذى لا يهزم ، لان مجرد احتمال هزيمة الجيش وانتصار العرب فى اى صراع ، سوف يتلوه على وجه اليقين تغير عميق فى نظرة اسرائيل الى نفسها والى العالم العربى المحيط بها. تغير لاتريد اسرائيل ان تواجهه . وواقع جديد لاتحب اسرائيل ان تتامل اسبابه او نتائجه .

ولذلك فمن المهم جدا ان نقف عند بعض دروس المعركة التى دارت على الجبهتين المصرية والسورية خصوصا فى اطار المقارنة بينهما وبين اى قتال عربى اسرائيلى سابق منذ سنة ١٩٤٨ والى الآن ...

عنصر المفاجأة :

ان اسرائيل تعترف بأثر عنصر المفاجأة فى الانتصار الذى أحرزته قواتنا ...

ولكن كما أشرنا أشارة عابرة فى غير هذا المكان فان المفاجأة يمكن أن تكون لها صورتان ..

اسرائيل تحاول أن تجعلها أشبه بمفاجأة اليقظان النائم فى لحظة غفوة عابرة ولكن الكثير من صفحات هذا الكتاب توضح غير ذلك ..

فالخطة العسكرية الدقيقة التى رسمها وخطط لها ضباطنا وقيادتنا كانت قد بذلت مجهودا كبيراً لتحقيق عنصر هذه المفاجأة بالمعنى الاستراتيجى العام ...

وقد ذكرنا نماذج من عمليات التضليل الاستراتيجية التى لم تكن عفوية ولكن بذل فى سبيلها الكثير من العرق والمجهود ومن الحساب الدقيق والتقدير جزءا لايتجزأ من الخطة العسكرية للحرب ذاتها ..

والمفاجأة بهذا المعنى حق من حق أى جيش محارب . ان المفاجأة عنصر لا تخلو منه أى حرب أيا كانت بل لاتخلو منه أى معركة صغيرة فى أثناء حرب مشتعلة بالفعل . ان نصف المعارك يكون كل خصم فيها قد أعد لخصمه مفاجأة ولو من زاوية الاقتراب منه ، أو من شرك منصوب له ، أو من احتياطى غير ظاهر ، لدخول المعركة فى ساعة معينة ....

المفاجأة .. المفاجئة ، هى تلك التى تكون حين تشن دولة ما الحرب على دولة أخرى دون أى مقدمات تبرر ذلك . كالغزو المفاجىء الذى شنه هتلر مثلا على الاتحاد السوفيتى فى الاربعينات فى وقت كان يتظاهر فيه باحترام معاهدة للصداقة وعدم الاعتداء جديدة معه

أو مثل هجوم اليابان على بيرل هاربر القارة الأمريكية فى الحرب العالمية الثانية . بينما كانت وفود السلام تتفاوض فى واشنطن واحتمال قيام اليابان بهجوم ضد أمريكا وهم بعيد .

ولكن فى حالتنا هذه كانت الحرب لاسترداد الأرض وارغام العدو على تغيير سياسته واعادة القضية الى سخونتها السابقة كانت هدفا معلنا على السنة كل مسئول ، فى دولتى المواجهة . وحالة الحرب ذاتها قائمة منذ ١٩٦٧ بوجه خاص على الأقل واسرائيل — تعقد كل يوم صفقات السلاح الجديدة ، وتضرب المدن العربية هنا وهناك بطائرات ، فهى ليست المفاجأة الشاذة . ولكنها المفاجأة العسكرية المدروسة والتى تشهد ببراعة الخطة لا بقدر العدو ...

ومع ذلك فقد جاء فى أجزاء سابقة من هذا الكتاب كيف توالت النذر فى الأسبوع السابق على القتال ، على أدنى تقدير بالنسبة لاسرائيل ، عن حشود مصرية وسورية وأجهزة تقام وأسلحة تعد وتبادلت المخابرات العسكرية الأمريكية والاسرائيلية المعلومات والتساؤلات — والتفسيرات على اعلى المستويات . ولكن عناصر التضليل الاستراتيجى التى لعبت بها قواتنا فى احكام واقتدار ودقة بالغة فى التنفيذ هى التى ساهمت فى أن يبقى السؤال عن نوايانا لدى العدو سؤالا حائرا ليس له جواب قاطع حتى فجر يوم الهجوم على الأقل ...

ان قيمة هذا بالنسبة لنا انه يثبت ، ان أحد أسلحة الحرب وهو عنصر القدرة على التخطيط وخداع العدو ووضع التفاصيل اللازمة لكل ذلك ، والتى تصل الى ضرورة معرفة كل وحدة بواجباتها القتالية حتى أصغر سرية من السرايا ، ان هذا العنصر الهام ، فى امكاننا انجازه وتحقيقه ، والتفوق فيه ، لو حشدنا طاقاتنا ووفرت لها الظروف المواتية . أو ان هذا النوع من الذكاء ، والقدرة على اتقان

الدراسة والتفاصيل ليس صفة قاصرة على العدو ، وليس من طبيعة العرب — الازلية — الفوضى وعدم الاتقان وانعدام الخيال ، كما قال أدب النكسة الانهزامى ، وكما ظل يردد على اسماعنا ما يقرب من سبع سنوات . . .

ومع ذلك فقد استعد الاسرائيليون احتياطيا — قبيل المعركة كما سبق ذكره . فضلا عن انه كان لديهم ثلاث حواجز ضد المفاجأة الشاملة مستعدة للعمل فورا : أولها خط تحصينات بارليف بكل استعداداته وخططه وفاعليته جنوبا أو استحكاماتهم فى مرتفعات الجولان الحصينة طبيعيا فى الشمال ، وسلاح الطيران الاسرائيلى القوى ، وهو نوع من الأسلحة القابل للاستخدام فورا وخلال دقائق بعكس القوات البرية التى قد يحتاج زجها فى المعركة الى بعض الوقت . . .

وقد استخدمت اسرائيل هذه العناصر الثلاثة فور وقوع المفاجأة ، دون أن تحقق لها الأثر المطلوب الأمر الذى يؤكد أن المفاجأة وحدها — على اننا فخورون بها — لم يكن ممكنا أن تنجز وحدها ما أنجزته بغير الصفات القتالية الأخرى التى أظهرتها قواتنا . .

هذا عن « المفاجأة » التى سبقت القتال ولكن هناك نوع آخر من المفاجأة هو :

المفاجأة مع بدء القتال :

لقد انتهينا من تحليل عناصر مفاجأة بدء القتال ولكن هناك مفاجأة اخرى هى مفاجأة — أو مفاجئات — القتال ذاته . . .

ان هذه ناحية أخرى من المهم التأكد عليها لما تعطيه لنا من لفتة فى أنفسنا ، ولما ترد به على حرب العدو النفسية وتأثير أدب النكسة الانهزامى المدمر . . .

ساعة أن تطلق الطلقة الاولى ، نكون قد عبرنا عنصر المفاجاة الأول ، ودخلنا الحرب ذاتها التى تحتاج بدورها الى مفاجآت .

وقد كان لدى قواتنا فى هذا المجال بعض المفاجآت أيضا ... وكان هناك الى جانب ذلك عنصر القتال الصريح ذاته حيث لايكون هناك ثمة مجال لمفاجآت ...

هنا ايضا نجد مفاجآت لاتدخل فى دائرة ماتجريه اسرائيل من تحقيقات ، ولكنها تدخل فى دائرة ما أثبتته التجربة لدينا من كفاءات وقدرات حين تتاح لقواتنا المسلحة وكفاءاتنا الفنية وعقولنا المفكرة فرصـــة العطاء ...

مفاجاة توصل قواتنا الى طريق لفتح ثغرات سريعة فى الســـد الترابى الضخم ...

ومفاجاة معدلات السرعة التى يمكن بها لقواتنا المسلحة أن تقيم خلالهـــا رءوس الكبارى عبر القنـــاة ، بالساعات والـــدقائق لا بالايام ..

ومفاجاة التدريب المحكم على نماذج اقيمت لدينا من حصون خط بارليف ، واكتشاف الخطط الكفيلة بالاستيلاء على أهمها فى الساعات الأولى من القتال .

ومفاجاة وجود حتى قواتنا البحرية فى أبعد الأماكن جنوب البحر الأحمر مثلا ، ساعة المعركة بعد تحركات ومناورات لم يفهم العدو مغـــزاها ...

ثم هناك المفاجأتان الكبيرتان ، اللتان تدخلان فى بنـــد الكفاءة التخطيطية والقتالية معا ، المفاجاة التى هى صميم المواجهة فى المعـــركة :

الأولى — مفاجأة قدرة الجيش المصرى لا على أن يعبر القناة ويحطم خط بارليف فحسب ، ولكن أن يتم هذا فى أقل من ٤٨ ساعة والا ينتهى يوم واحد على بدء القتال الا وقد صار على الضفة الشرقية للقناة جيشان كاملان بكل قياداتهما وأسلحتهما ومعداتهما الثقيلة ...

مفاجأة بهذا الحجم وفى وجه كل العقبات والاستحكامات التى أقامتها اسرائيل عبر سنوات وتحت حجم النيران المنصبة عليها من السماء والأرض ، هى مفاجأة تدخل تحت بند الكفاءة القتالية المحض : من التخطيط الى التنفيذ الى بسالة القوات بجنودها وضباطها وقياداتها وروحهم القتالية العالية .

كتب هنرى تانر مراسل النيويورك تايمز يقول :

« شاهدت بنفسى منطقة المعارك فى سيناء والقوات المصرية بدباباتها وعتادها تتدفق عبر قناة السويس ، كان الجنود المصريون فى حالة معنوية عالية . وكانوا فيما يبدو غير عابئين بقذائف الطيران والمدفعية الاسرائيلية .

« لاتقلقوا أن الله معنا » هكذا صاح واحد من ثلاثة جنود شبان امام المراسلين الذين سارعوا بالاختباء عندما انفجرت قنبلة قريبة أما المصريون الثلاثة فقد بقوا حيث هم واقفون على رأس تبة . وكانت سيارات النقل تقف بين بطاريات المدافع المضادة للطائرات فى صفوف على أرض مكشوفة تنتظر دورها فى العبور دون خوف من التعرض للهجوم الجوى . وفى احدى سيارات النقل العابرة كان ثمة جنديان شابان يقفان فوق شحنة من العتاد ويرقصان على وقع تصفيق الآخرين . كانت فرحة النشوة بالعودة الى الأراضى المصرية المحتلة منذ أكثر من ست سنوات ظاهرة فى كل مكان . وقد كان

الانطباع الواضح الذى رأيناه فى كل مكان هو أن القوات المصرية فى سيناء تساورها كلها فكرة واحدة ــ هى التقدم شرقا » .

والحكايات كثيرة عن الجنود الذين كانوا يرتمون بأجسادهم على الأسلاك الشائكة والالغام ليعبر زملاؤهم بسرعة ، والذين كانوا يسدون ــ بأجسادهم ــ فوهات خط بارليف لتمكين زملائهم من الاقتراب والاقتحام . والضباط الذين كانوا يستشهدون مع جنودهم فى كل مكان ..

المفاجأة الثانية .. هى التكتيك الذى استخدمته قواتنا فى القتال ذاته ، خصوصا فى صد الهجمات المضادة التى كانت تقوم بها القوات المدرعة للعدو ، واستخدام المشاة فى معارك الدبابات ..

لم تكن المفاجأة هنا فى سلاح سرى نملكه ولا يعرف العدو شيئا عن وجوده . وقد قال الكتاب الاسرائيليون أنفسهم ذلك فى تحليلاتهم لمعارك اكتوبر ١٩٧٣ . ولكن قواتنا المسلحة توصلت الى هــذا الأسلوب فى استخدام المشاة المسلحين بالصواريخ فى مساعدة دباباتهم وفى مواجهة موجات مدرعات العدو بشكل لم يتوقع العدو أن تكون له هذه النتائج المدمرة ...

السلاح لم يكن سرا ولكن الاسلوب القتالى والبسالة التى يحتاج اليها هى التى كانت مفاجأة ..

لقد امتلأت الصــحف العالمية بتصريحات المسئولين والخبراء العسكريين من البلاد الكبرى يقولون أن حرب اكتوبر جعلتهم يعيدون النظر فى أساليب وأسلحة كثيرة .

وذهب البعض الى القول بأن الدبابات التى كانت لها السيادة على أرض المعارك ، عادت تخلى سيطرتها القديمة للمشاة .

ولم يكن ذلك — بصرف النظر عن دقة هذا الحكم — الا بفضل اسلوب استخدام المشاة حاملى الصواريخ فى مواجهة الدبابات .

ولم تكن هذه الصواريخ سرا . وقد اعترف المراقبون العسكريون بأن الطرفين كان لديهما أنواع متشابهة من الصواريخ المضادة للدبابات ولكن القوات المصرية استخدمت المشاة ضد الدبابات بطريقة فعالة أربكت العدو . هذا فضلا عن معارك الدبابات الكبرى التى واجهت الالوية المدرعة فيها من الجانبين بعضها البعض .

واستخدام المشاة ضد الدبابات فضلا عن انه يحتاج الى تدريب دقيق جدا فانه يتوقف الى حد كبير على جسارة الرجال : الذين يقفون بأجسادهم امام تلك القلاع الفولاذية الزاحفة ..

قال مراسل عسكرى أجنبى عريق : ان مواجهـــة دبابة تطلق نيرانها أمر مرعب حقا ! .. وانتظارها حتى نقترب الى مرمى السلاح الذى يحمله الجندى يحتاج الى أعصاب من فولاذ ! بل ان صوت ومشهد انفجار الدبابة بعد ضربها عن قرب منظر يهز الابدان هزا!

ولكن .. كانت تلك هى الظروف التى قاتل فيها ضباطنا وجنودنا لتحطيم هجمات العدو المضادة بالطائرات والدبابات معا خصوصا قبل أن تعبر الوية المدرعات الرئيسية الى شرق سيناء .

النظرية العسكرية ذاتها :

لقد قيل الكثير عن النظرية العسكرية الاسرائيلية التى لاتقهر...

ولكن القوات المصرية والسورية حين اتخذت قيادتها قرارهما بأن يكون الهجوم شاملا بطول الجبهةكلها حطمت هذه انظرية العسكرية الاسرائيلية وعرفت الطريق الى أن اى نظرية لا تتميز بالكمال ، بل فيها الثغرة التى يكمن فيها مقتلها بشرط معرفة طريقة مواجهتها..

نظرة إسرائيل إلى العرب

ما اكثر الأدب الذى كتبه الصهيونيون وأنصارهم فى العالم وكتبه الاسرائيليون لأنفسهم عن العرب قبل حرب أكتوبر ٧٣ ..

بل ما اكثر ماكتبه بعض العرب أنفسهم .. عن أنفسهم ..

لم يكن ممكنا قبل اكتوبر ١٩٧٣ ، ان نقرأ فى صحيفة اسرائيلية مثل دافــار (١٩٧٣/١٢/١٠) مقالا كالذى كتبه الكاتب الاسرائيلى « أهارون غيفع » ، حول هذا الموضوع يقول فيه :

« يبدو لى ان زمن الخبراء بالنفسية العربية » وعلى اختلاف انواعهم الذين اثروا فينا بآرائهم وتحليلاتهم قبل الحرب قد انتهى.. ومن الأفضل أن يفتشوا لانفسهم عن مصدر آخر للرزق ...

ويمكن تقسيم خبراء الأمس هؤلاء الى ثلاث فئات . منها من اعتاد أن يعلن « لقد ولدت فى العراق . واننى أفهم العرب » . وتضم الفئة الثانية اولئك الذين يتذكرون أيام صباهم عندما كانوا يعملون كمراقبين على الفلاحين العرب فى بيارات البرتقال فى « بتاح تكفاه » أما الفئة الثالثة وهى أخطر هذه الفئات فتضم اولئك الذين درسوا الثقافة الاسلامية فى الكتب .

وفى الحقيقة لقد أثار هؤلاء « الخبراء » شــكوكى فى المــاضى ..

أن خبراءنا لا يشبهوه ، لاسمح الله ، اللااساميين . فاللااساميون يكرهون اليهود ولكن خبراءنا لم يكرهوا العرب ولكنهم استخفوا

بهم ، وأحيانا ارتدى هذا الاستخفاف طابعا « علميا » .. فماذا زعموا ؟

زعموا أن العرب بحكم ثقافتهم الخاصة يتجاهلون الواقع ويقعون ضحية خيالهم وقد قدموا أكثر من مرة البرهان على ذلك من بلاغات الجيوش العربية فى حرب ١٩٤٨ وحرب الأيام الستة التى كانت كلها تنم عن خيال خصب .

ولكن الحرب الأخيرة اثبتت أن هذا الادعاء ليس صحيحا وانما فى هذه المرة كانت بلاغات الناطق العسكرى المصرى دقيقة للغاية .

ولدى خبرائنا ادعاء آخر : ان العرب لا يفهمون الا لغة القوة فقط . لقد كان هذا الادعاء الأساسى للخبراء اليهود الذين ولدوا فى البلاد العربية أو من القدامى الذين عملوا مع العرب فى المزارع. ولكن الواقع الآن يكذب هؤلاء الخبراء . فلم تكن هناك مظاهرة قوة أكبر من حرب الأيام الستة .. وماذا كانت النتيجة ؟ هل رضوخ للغة القوة ؟ أم الاستعداد لحرب جديدة ؟ ..

ثم ان معلقينا — خصوصا فى الاذاعة — يخبروننا كل يوم عن الانقسامات والخلافات فى العالم العربى . كل المؤتمرات والمشاورات وزيارات الوزراء المتبادلة ليست الا تعبيرا عن الصراع الداخلى فى العالم العربى . وهكذا خلق لدى الجمهور الاسرائيلى انطباع بأن العالم العربى عالم منهار عاجز عن التكتل .

لا شك فى أن هناك صراعات عربية داخلية . وهناك مصالح متضاربة وصراع على السيطرة على العالم العربى . كل هذا صحيح طبعا . ولكن الواقع أثبت أن العرب يستطيعون أن يتحدوا ليس بالكلام فقط ، خذوا استخدام سلاح البترول . ان من يقرأ كلام الاستخفاف بتهديدات استعمال النفط ، التى نشرت فى الصحف

الاسرائيلية قبل الحرب ، لابد أن يتساءل باستغراب : من يعيش فى عام خيالى .. نحن أم جيراننا ؟

ان للعرب ثقافة خاصـــة بهم تختلف عن ثقافة الغرب . ان هذه الثقافة ثمرة تطور خلال مئات السنين . وقد فرضت طابعها على طرق التفكير وطرق التصرف . ولكننا بالغنا فى تقدير الخلاف بين الثقافات ، ونسى الكثيرون أن الشعوب لا تراوح فى مكانها . ان الشعوب تتغير احيانا بسرعة واحيانا ببطء . ولكنها تتغير » ..

***

روى لى صحفى أمريكى كبير ، انه كان قبل حرب أكتوبر بستة شهور يزور جولدا مايير رئيسة وزراء اسرائيل ، ومعها سيمحا دينتز سفيرها فى واشنطن . وكان الصحفى الامريكى يحدثها عن تشدد اسرائيل وعداءها لأمة عربية آخذة فى التطور ، ولكن مايير رفضت الاقتناع بأن هناك أى تغير حقيقى فى العالم العربى .

وقال لها الصحفى : هناك شباب عرب يعملون الآن فى عدة عواصم عربية على الآلات الحاسبة المتقدمة «الكومبيوترز»وانفجرت مايير بالضحك وقال دينتز له : كومبيوترز ؟ انها اللعبـــة الجديدة الباهظة الثمن التى يلعبون بها ، تماما كما شغفوا قبل ذلك بلعبة الطائرات النفاثة ثم فشلوا فيها !

ولم تهتم مايير وتبدى مظهرا للقلق ، طبقا لرواية الصـــحفى الأمريكى ، الا حين قال لها : ان آلاف الأطفال فى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين لا هم لهم الا التعليم والدراسة ..

العبرة ..

منذ بدأ العالم العربى يفتح جفـونه فى بطء على حقائق العالم الجديد ، قبل قرنين من الزمان وبعد نوم دام قرونا طويلة دقت بابه عدة تحديات كان لكل منها وقع الصدمة ، والتنبيه معا ..

عرفوا صدمة الحملة الفرنسية التى قادها نابليون الى مصر ثم حاول أن يمتد بها الى المشرق .. وكانت الحملة الفرنسية تحمل معها أول معلومات عن الحضارة الجديدة فى اوربا من جهة وتحمل معها أيضا أول محاولة استعمار غربية من جهة أخرى عرفوا مبادىء الحضارة الغربية الأولية وما فيها من علم ومعرفة وعرفوا معهـا جانبها الشرس ، النهم الطامع فى امتداد قوته الى آفاق جديدة .. وكان هذا أول تحريض للوطنية المصرية ، ثم لأقطار عربية كثيرة على التمرد لا على المستعمر الجديد وحده ولكن على التفكير فى نقض عبارة الظلام والاستبداد العثمانيين أيضا ...

ثم عرفوا صدمة تحالف دول اوروبا ضد محمد على الكبير ، حين حاول من القـاعدة المصرية الحـديثة التى انشـأها أن يتحدى الامبراطورية التركية من الداخل ولحساب المنطقة لا لحساب غيرها من القوى الأجنبية ، حتى فرنسا التى شجعته وساندته ودربت له جيوشه انضمت فى الساعة الحاسمة الى انجلترا وروسيا وغيرها الى جانب الامبراطورية التركية المتداعية ، ضـد القوة المحليـة البـازغة ...

وعرفوا صدمةالاحتلال الانجليزىلمصر سنة ١٨٨٢ الذىلم يتأخر

كثيرا عن فتح قنـــاة السويس . والـــذى جاء فى لحظة وصلت فيها الوطنية المصرية بالثورة العرابية الى احدى قمم محاولاتها لطرح الحكم التركى والحصول على الحقوق الدستورية للشعب المصرى .. ورأوا الاستعمار الانجليزى الذى جاء ليبقى وكان أول ما قرر تسريح الجيش المصرى الوطنى ، وفك المصانع الحربية والبحرية وبيعها خردة وافلاس الصناعات الوطنية لحساب طوفان البضائع الأجنبيـــة .

وعرفوا صدمة الحرب العالمية الاولى التى وعدتهم اوروبا فى بدايتها بالاستقلال اذا ثاروا فى وجه العثمانيين .. ثم ظهر أن الوعد كان خدعة .. وان الغرب خلال ثورتهم كان يستعد لاحتلال بقيـــة العالم العربى واعادة تقسيمه وتوزيعه .. ووجد باقى العرب ـــ كما حدث للمصريين قبلهم ـــ انفسهم أمام استعمار أكثر رغبة فى إدخال بعض الإصلاحات ، ولكنه أكثر شبابا وقوة من الاستعمار العثمانى ...

أما صدمة اسرائيل التى عرفوها بعد الحرب العالمية الثانية فقد كانت من نوع آخر تماما فهذا هو النصل الحاد للعالم المتقدم يقترب من رقابهم مرة أخرى .. وقد جاء هذه المرة لا ليحتل ويرحل ولكن لكى يستوطن ويبقى وينشىء قومية جديدة وحصنا مستمرا ، تتجه منه اليهم التهـــديدات والانذارات الـــكفيلة بابقـــائهم راكعين ، خاضـــعين ...

استطاعت اسرائيل أن تلحق بالعرب فى ساحة القتال سلسلة من الهزائم ، ربما أرادت بها هى ومن وراءها تعليم العرب درس الخنوع وقد ظنت بعد حرب يونيو أن الدرس قد حقق أغراضه فى النهاية ...

ولقد حاولت عشرات الكتب والدراسات والأبحاث تمزيق الروح

العربية بعد تمزيق الجسد العربى وانتشرت بضاعة النظريات التى تفلسف أسباب تخلف العرب ، وعجزهم عن التقدم ، وعجزهم عن الاتقان أو حتى التنسيق فيما بينهم .

حاولوا اعتبار لحظة المحنة الشاملة وصـــورة الأمة العربية خلالها على انها صورتهم الدائمة .. التى لن تتغير ...

ومن هنا كانت أهمية لحظة ٦ اكتوبر فى نظرى ...

لحظة أثبتت أن هزيمة الهزيمة أمر ممكن .

وان الانتصار ممكن .

وان العـــرب مثل أى شـــعب آخر اذا اعطيت لهم الظـــروف والامكانيات والمؤسســـات التى تجعلهم قادرين على تحقيق ذاتهم واستخدام امكانياتهم قادرون على أن يرتفعوا الى مستوى التحديات التى تواجههم .

وليست الحرب فى ذاتها دلالة الحضارة . ولا التفوق فيها شهادة بالتفوق فى كل شىء . ولكن الحرب مع ذلك ، وتلك حقائق التاريخ : اذا فرضت فرضا على شعب فانها تصبح الامتحان الأكبر لقدراته ومواهبـــه .

قدراته على الاحتمال والصـــبر ، وعلى مواجهة المكاره وعلى الثبات وعلى الشجاعة الذهنية والجسدية .

ومواهبه فى التفكير والخلق والابداع والاستفادة من الدروس ...

والمواجهة المفروضة علينا من خصم يريد التوسع ويؤمن بالتفوق وضعنا فى هذا الامتحان المستمر ...

امتحان يجعل فى مقدمة مهماتنا وجود جيوش قومية عصرية حديثة مقتدرة ...

ومجتمعات عصرية حديثة قادرة على انجاب مثل هذه الجيوش...

.. كتلك الجيوش التى عبرت القناة : وصـــمدت فى مرتفعات الجولان ، فى تلك الأيام المجيدة من اكتوبر ١٩٧٣ .

* * *

أين كانوا وأين كنا قبل ٦ اكتوبر ؟

لست اقصد أن أحدد اين كانوا وأين كنا بمعنى المواقع التى تقف عندها جيوشهم وجيوشنا فهى على وجه التأكيد مواقع للانطلاق نحو نضال سياسى عنيف أو نحو قتال عسكرى جديد أكثر عنفـــا وضراوة ...

ان الحرب لم تنته بعد . . وما اقصده هو المعنى السياسى والمعنوى والنفسى ، وهو اثر بالغ الأهمية من آثار الحروب ...

اذا كانت ثقتنا بأنفسنا ، وبقواتنا المسلحة قد صعدت ، وثقتهم فى أنفسهم ومناعة قواتهم المسلحة قد هبطت فهذه نتيجة هامة .

واذا كانت صورتنا فى العالم قد تغيرت الى الأحسن والهالة التى كانوا يحيطون بها أنفسهم قد شحبت فهذه نتيجة أخرى ...

واذا كان نهوضنا للقتال غدا اسهل علينا نفسيا وعسكريا بكثير من نهوضنا به بعد ركود دام سنوات ، فهذه نتيجة هامة أيضـــا ، اذ سوف يحسب كل طرف فى الدنيا حساباته على أن العرب قد قاتلوا وأبلوا بلاء حسنا ، وبالتالى فانهم يمكن أن يقاتلوا فى اى وقت ...

واذا كانت ارادة القتال حلقات تتصاعد وتغذى روح المقاومة فى الشعوب ، بينما القعود والركون له منطقه الخاص الذى يجذب روح المجتمع الى القاع ، فقد عادت عزيمتنا تطفو على السطح وتتنفس الحياة بطاقة اكبر على مواجهة تحديات المستقبل دون وجل.

* * *

كان ٦ أكتوبر امتحانا مجيدا عرفنا منه : وعرف العالم ، اننا نستطيع ان نهزم الهزيمة .. لا ان نرفضها فقط ونبقى ساكتين ..

وعرفنا وعرف العالم اننا وقد هزمنا الهزيمة ، نستطيع ان ننتصر ...

ليس فى ساحة القتال ضد عدو عنصرى توسعى فقط ، ولكن ان ننتصر فى كل ساحات التحديات التى يطرحها العصر الحديث على العالم العربى باكمله ..

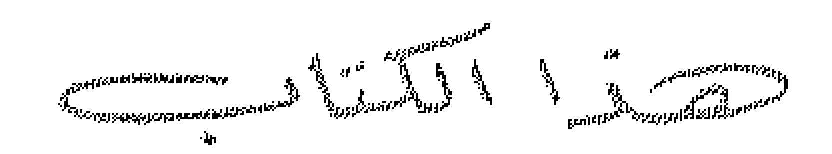
فهرست

صفحة

دار الشروق

مطابع الاهرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٤/١٦٢٩



في يوم ٦ أكتوبر ، أطلق « الرئيس انور السادات » الشرارة التى اندفعت بعدها جيوش سوريا ومصر ، ودول عربية كثيرة ، الى تحطيم الأسطورة الاسرائيلية التى خيمت على المنطقة طوال ربع قرن ، وزادت كثافتها منذ يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ .

وهو بهذا يوم لا ينسى ، في حياة الأمة العربية . لقد أعاد اليها بضربة صارمة واحدة ، ثقتها بنفسها وقدراتها ...

.. وبعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، ملأت اسرائيل الدنيا بالكتب التى حاولت ان تبرهن للعالم — ولنا — ان العرب غير قادرين على القيام طائعين مختارين بمواجهة عسكرية ضدهم ، وانهم أمة مازالت بعيدة عن العصر الذى نعيش فيه ..

.. وقد تسرب جزء من هذا السم الى نفوس عربية كثيرة ، حتى جاء وقت كادت لا ترى فيه بصيصا من النور .

وهذا الكتاب محاولة لوضع هزيمة يونيو ٦٧ وانتصار أكتوبر ١٩٧٣ في اطارهما الصحيح ، انه يستند في الدرجة الأولى الى الوقائع الثابتة ، والى المصادر الاجنبية والمعادية ، لاثبات ان جيوشنا اذا أعطيت الفرصة والظروف المدروسة ، فهى قادرة على القيام بواجبها خير قيام ...

وهو يرد بنفس الوقائع والمصادر على المحاولات الدائبة التى بدأت لكى تقلل من شأن المغزى العسكرى ليوم ٦ أكتوبر المجيد ، فوق انه يقدم صورة متكاملة لمسيرة الحرب من ساعة انطلاق الشرارة الى ساعة وقف اطلاق النار .

مطابع الأهرام التجارية